مباحث في علم التوحيد
الجزء الأول

الدكتور
سالم محمد مرشان

مباحث في علم التوحيد

الجزء الأول

الدكتور: سالم محمد مرشان

الجامعة المفتوحة

1998

رقم الايداع بدار الكتب الوطنية / بنغازى

٩٧ / ٣٤٦٢

تنفيذ واخراج

المكتب الجامعى الحديث - اسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة
وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو
العزيز الحكيم ﴾

سورة آل عمران الآية 18

الإهداء

إلى أمي وأبى ...

((رب ارحمهما كما ربياني صغيرا [1]))

وإلى زوجي وأولادي ...

رب وفقهم لصالح القول والعمل .

(1) سورة الإسراء جزء من الآية رقم 24 .

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

الحمد لله رب العالميـــن ، سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفـــرد الصمد ، له الأمر من قبل ومن بعد ، أنزل علي عبده كتاباً غير ذي عوج يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وصلى الله علي سـيدنا محمد الداعي إلى الدين الحق والتوحيد المطلق ، فأدى رسالة ربـــه حق الأداء ، وجاهد في الله حق جهاده ، ورســـم للنـــاس منـــهج السعادة في الدارين . اللهم صل وسلم وبـــارك على سيدنا محمـــد المبعوث رحمة للعالميـــن ، وعلى آله وصحبه ، ومن سلك سبيله ، وسار على نهجه إلى يوم الدين .

أما بعد ،،،

فإن علم التوحيد من العلوم الإسلامية الأصيلة ، به اســـتطاع علماء المسلمين في العصور الأولي للإسلام أن يؤيدوا قواعد الدين الإسلامي بالحجج والبراهين المبنية على المناهج القويمـــــة ، وأن يردوا على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات ، فكان بذلك علمـــا يقتدر معه على إثبات العقائد على الغير ، وإلزامـــه إياهـــا بـــإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها .

نعم إنه علم أنار العقول ، ووضح المفاهيم ، ووضع حلـــولا لكثير من القضايا المهمة ، ودافع عن العقيدة بأساليب قوية وحجـج برهانية فأثبت للخالق ــ جل وعلا ــ الوجود والكمـــال والتنزيـــه المطلق عن كل ضرب من ضروب التشبيه والتجسيم الـــواردة فـــي بعض النصوص ، ودلل على صدق النبوة ، وضرورتها ، وإمكـــان الآخرة بأدلة كثيرة لا تحصى .

إن علم التوحيد يعد ناحية مهمة من نواحي الفكر الإســـلامي في مجال العلوم الشرعية ، وهى ناحية فطن بعض الدارسين مـــن المستشرقين إلى أهميتها ، مثل : "أر نست رينـــان" ، الفيلســوف الفرنسي ، المتوفى عام 1892م ، الذي صرح بأن الحركة الفلسـفية الحقيقية في الإسلام ينبغي أن تلتمس في مذاهب المتكلميـــن ومـــن مظانها الخاصة بها [1] .

ومن هنا فإن للبحث في هذا العلم ودراسته وتعلمه وتعليمـــه مزايا عديدة ، وفضائل جمة يدركها كل من اطلع عليـــه ، وعلـــى المصادر والمراجع المؤلفة فيه ، وعلى جهود علمائه الأفذاذ الذيـــن حملوا مشعل النور والعرفان منذ أن فتحوا عيونهـــم علـــى نـــور الإسلام ، وعقولهم على القـــرآن يضيئـــون للإنســـانية طريقـــها ،

---

(1) أرنست رينان . ابن رشد والرشدية ترجمة عادل زعيتر ص116 .

ويكشفون وجه الحق ، ويأخذون بيدها إلى الصواب ، ويوجـــهون قوافلها نحو المجد والعزة ، إنهم بحق رواد المعرفـــــة وحـــراس العقيدة ، ودعاة الخير والفضيلة .

وقد تركوا لنا تراثا قيما يمتاز بالعمق والأصالة ، يحتاج منـــا إلى دراسة واعيـــة متأنية حتى يكون عاملا مـــهما فـــي نجاحنـــا وتقدمنا ، لأن الإنسان في كل مكان وزمان وارث لمـــا قدمـــه لـــه أسلافه من علوم ومعارف يستفيد منها في حاضره ، ويضيف إليـــها من تجاربه ، ويطورها بعلمه ومعرفتـــه من أجـــل بنـــاء حـــاضره وتقدمه ، ومن أجل بناء مستقبله ، فالفكر سلسلة متصلة الحلقـــات يكمل بعضها بعضا .

والناس حول كلام الأقدمين ــ كما يقول ابن عاشور رحمه الله تعالى ــ ((أحد رجلين : رجل معتكف فيما شاده الأقدمون ، وآخـــر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون ، وفى كلتا الحالتين ضر كثير ، وهناك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير ، وهى أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده ، وحاشا أن ننقضه أو نبيده ، عالما بأن غمط فضلهم كفران للنعمة ، وجحد مزايا سلفها ليس من

حميد خصال الأمة ، فالحمد لله الذي صدق الأمل ويسر إلـــى هــذا الخير ودل [1])) .

إننا نتجه إلى ما بناه علماؤنا كي نهذبه ونوضحه ، ونلقى من خلاله الأضواء على مختلف نواحي التراث الإسلامي الأصيل ، وبهذا نكون أكثر تفهما لماضينا ، وأشد تمسكا بهذا التراث الذي من شأنه أن ينير أمامنا السبيل ، ويوضح لنا الرؤية في حاضرنا ومســتقبلنا على السواء .

انطلاقا من هذا كله حاولت / بقدر جهدي / الإفادة من جــهود علمائنا ــ رحمهم الله تعالى ــ والسير على نهجــهم فــي إرســاء قواعد هذا العلم ، مضيفا إليه ما أتى به علماؤنـــا فــي العصــور المتأخرة ، وما أثروا به هذا العلم من مسائل مفيـــدة ، وإضافــات جديدة .

وقد قدمت هذه الأبحاث لتعالج موضوعات وأصولا مهمة تمس إليها حاجة الطالب ، توخيت فيها التركيز في المادة ، والوضوح في العرض حتى تكون سهلة المنال بعيدة عن التعقيد والغمــوض ، كما حاولت ــ بقدر المستطاع ــ الاختصار والإيجـــاز غــير المخــل ، وابتعدت عن التعرض لكثير من الآراء التي تبعد عن المقصود .

---

(1) *ابن عاشور التحرير والتنوير ج1 ص7 .*

وأملى أن تكون هذه الموضوعات وسيلة نافعة يستعين بـــها طلاب العقائد الإسلامية على قراءات أكثر ، ومطالعـــات أوسـع وأعمق ، حتى يصلوا حاضرهم بماضي أسلافهم مـــن العلمـاء إلا الأجلاء في البحث والدراسة والتنقيب .

وقد سارت هذه المباحث على منهج دراسة كل موضوع منـها دراسة موضوعية منهجية ، والاستدلال عليها من الكتاب والســنة والعقل والعلم ، مع توضيح رأى علماء التوحيد الذين تعرضوا لتلك الموضوعات .

ومن الحق أن أعترف أن هذه الدراسة ربما انطـــوت علـى جوانب من النقص ، أو تعثر في الأسلوب ، أو زلل في الاســتنتاج وإصدار الأحكام ، أو غياب بعض الأفكار ، أو تعرضـــت لمسـائل ونقاط كان يمكن الاستغناء عنها ، وعذري في ذلك أننـــي بشـر ، فالكمال لله وحده عالم الغيب والشهادة ، فأستغفر الله تعالى ، ممـا زل به القلم واللسان ، ووقع لي في هذا العمل المتواضع من الخطأ والنسيان ، ملتمسا ممن اطلع عليه ، أن يسد ما عثر عليـــه مـن الخلل ، فالإنسان هو الإنسان دائما كثير السهو والنسيان ، وإننـــي لأرجو من القارئ الكريم الصفح إذا وجد فيه تقصـيرا أو غلطـا ،

متأسيا بقول العلامة القسطلاني شارح صحيح البخاري [1] ـ رحمهما الله تعالى ـ (فإن تصفح الناظر فيه الغلط فليصفح ولا يكن من أناس بالأغاليط يفرحون ، وليصلح ما يجده فاسدا ، فان الله تعالى ذم رهطا قال فيهم :((يفسدون في الأرض ولا يصلحون)) [1] .

والله أسال أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به كما نفع بأعمال من أخذت عنهم من العلماء العاملين بسنة النبي ذي الخلق العظيم ، وأن يجعله لي ذخرا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم [2] ، وأن يجعله وسيلة إلى رضاه والجنة ، وسببا للتقوى والعمل بالكتاب والسنة ، كما ندعوه / عز وجل / أن نكون من الذين ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، ومن ((الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا [3])) ربنا اهدنا سواء السبيل ، وهب لنا من أمرنا رشدا ، وألهمنا الصواب في

---

(1) القسطلانى . إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري ج10 ص552

(1) يشير إلى قوله تعالى : (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) سورة النمل الآية 50 .

(2) سورة الشعراء الآيتان : 88 ـ 89 .

(3) سورة فصلت جزء من الآية : رقم 29 .

القول والعمل ، وأعنا وخذ بيدنا إلى معرفة الحق واتباعه ، فـــأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بك عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليـــك المصير .

المبحث الأول

مبادئ علم التوحيد

المبحث الأول

مبادئ علم التوحيد

من المعلوم أن لكل علم مبادئ ومقدمات ، وهى مسائله التي ينبغي للباحث معرفتها حتى يتصوره تصورا كاملا ليكون طالبه على بصيرة في طلبه ، فإذا تصوره بتعريفه سواء أكان حدا لمفهوم ، أم رسما له فقد أحاط بجميعه إحاطة إجمالية (1) .

وهذه المبادئ هي : تعريفه ــ موضوعه ــ فائدتــه ــ واضعــه ــ اسمه ــ حكمه ــ نسبته ــ مسائله ــ فضله ــ استمداده .

وقد جمعها بعضهم بقوله :

إن بــادي كل فن عشرة ... الحــد والموضوع ثم الثمــــرة

وفضله ونسبة والواضع ... والاسم الاستمداد حكم الشارع

مسائل والبعض بالبعض اكتفى ... ومن درى الجميــع حاز الشرفا

(أ) تعريفه :

التوحيد لغة : العلم بأن الشيء واحد

(1) انظر : الإيجي . المواقف. ج1 ص22 .

واصطلاحا / بمعنى الفن المدوّن / عرّفه كثير من العلماء بتعريفات مختلفة ، عرفه عضد الدين الإيجي بقوله: ((هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير ، وإلزامه إياها بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها [1])) ،

ثم بين المراد بالدينية فقال : أي المنسوبة إلى دين محمد / صلى الله عليه وسلّم / ، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام [2] .

ومن هذا التعريف يدرك الباحث رسالة علم التوحيد ، وهي تعريف المسلم كيف يدافع عن دينه ، أي إثبات العقائد الدينية على الغير ، وإلزامهم بها بالحجج والبراهين ، كما يفهم منه كذلك / بأن العقائد الدينية يجب أن تؤخذ من الشرع ليعتد بها ، وإن كانت مما يستقل العقل فيه .

والمعنى العام لهذا التعريف أن علم التوحيد هو علم بأمور يقتدر معها ، أي يحصل مع ذلك العلم حصولا دائما عاديا قدرة تامة عن إثبات العقائد الدينية على الغير ، وإلزامها إياه بإيراد الحجج ودفع الشبه ، فإيراد الحجج إشارة إلى وجود المقتضى ، ودفع الشبه إشارة إلى انتفاء المانع .

---

(1) نفس المصدر . ج1 ص 23 .

(2) نفس المصدر . ج1 ص 25 ــ 26 .

ثم إن المـــراد بالأمور ـــ هنا ـــ ما يقصد بـــه نفـــس الاعتقـــاد ، كقولنا : الله /تعالى/عالم قادر مريد سميع بصير ، لا ما يقصد به العمـــل ، كقولنا : صلاة العصر فرض وصلاة الوتر سنة .

وعرفه ابن خلدون بقوله : هو علم يتضمن الحجـــاج عـــن العقـــائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والـــرد علـــى المبتدعـــة المنحرفيـــن فـــي الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة . (1)

وهذا التعـــريف يتفق مع تعريف الإمام الغزالي لعلـــم التوحيـــد إذ يقول : هو علم مقصده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها من تشويش أهل البدعة . (2)

ويورد سعد الدين التفتازانى في كتابه : (المقاصد) تعريفـــا لعلـــم التوحيد ، فيقول : هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية . (3)

والعقائد جمع عقيدة ، والمراد بها ما يجب شرعا اعتقاده ، كوحدانيـة الله/ تعالى/، وقدرته ، وإرادته ، ونحـــو ذلـــك ، وخـــرج بـــه الأحكـــام الشرعية ، كالعلم بوجوب الصلاة وغيرها فإنه فقه ، وليس علم توحيـــد ،

---

(1) *المقدمة ص 400 .*

(2) *المنقذ من الضلال . تقديم د. عبد الحليم محمود ص. 76 .*

(3) *أحمد السكناسي . أشرف المقاصد في شرح المقاصد ص 12 ، وانظر : تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام للكردستاني ج1 ص. 8 ـ 9 .*

وخرج به أيضا العلم بالأحكام غير الشرعية ، كالعلم بالعلوم التجريبيـــة ، والطبية وغيرها .

وقد سار الشيخ محمد عبده / في تعريفه لعلم التوحيد / علـــى نـــهج التفتازانى مع شئ من التوضيح ، فيقول : هو علم يبحث فيه عـــن وجـــود الله / تعالى/ ، وما يجب أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصـــف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم ، وما يجـــب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم (1).

ولعل تعريف أبى نصـــر الفـــارابى (ت 339 هـــ) مـــن أقـــدم التعريفات التي دونها العلماء ، يقول هـــذا الفيلســـوف / في تعريفه لـــهذا العلم / : صناعة الكلام يقتدر بها على نصرة الآراء والأفعال المحمـــودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل (2).

من خلال تعريف الفارابي يتبين لنا أن علم التوحيد صناعة تحتـــاج إلى معرفة وعلم ومراس ومران ، ولابد لهذه الصناعة مـــن قـــدرة علـــى إظهار حجج المخالفين والرد عليها ، وحمل المخالف على وجه يوافق مـــا في الدين .

---

(1) محمد عبده رسالة التوحيد ص4 .

(2) الفارابي : إحصاء العلوم ص71 .

يتضح لنا من التعريفات السابقة كلها أن علم التوحيد له دور مهم في تثبيت العقائد الدينية ، والبرهنة عليها بالأدلة المناسبة لكل عصر ، ثم دفع الشبه المثارة ، أو التي يمكن أن تثار .

بناء على ذلك فإن لعلم التوحيد طابعين : تعليمي ، ويتمثل في توضيح العقيدة والاستدلال عليها من الكتاب والسنة ، وترسيخها وفق منهج العصر . وهذا ما يمكن فهمه من تعريفي الشيخ محمد عبده ، وسعد الدين التفتازاني .

وطابع دفاعي ويتمثل في الرد على المنحرفين من أهل البدع ، ودفع الشبه عن العقيدة بأساليب منظمة ، وحجج قوية . وهذا ما يفهم من خلال التعريفات الأخرى التي سبق ذكرها .

ولعل الطابع التعليمي هو الذي ساد في العصور المتأخرة [1] ، وصار العلماء في العصور الحديثة يرددون ما قاله الأولون ، بل وينتقدون ولا يأتون بالبديل المفيد .

(ب) اسمه :

1 – سمى هذا العلم علم التوحيد وسمى بذلك لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه ، كما سمى بعلم التوحيد والصفات ، وقد لازمته هذه التسمية

(1) انظر د. بالقاسم بن محمد الغالي . علم الكلام بين تحديات الأمس واليوم . مقال منشور بمجلة كلية الدعوة الإسلامية . العدد الثاني عشر ص76 .

الأخيرة لما انحصر دور هذا العلم في الجانب التعليمي ، وتخلى أهله عن الدفاع عن العقيدة ورد الشبهات عنها .

2 ــ ومن تسمياته كذلك (علم أصول الدين) ، أي العلم الذي يبحث فيه المسائل الأصولية ، كالعقائد الجوهرية ، ونحوها تمييزا له عن علم الفقه الذي يبحث في الفروع ، وعن علم أصول الفقه الذي يهتم بالنظر في الأدلة الشرعية من حيث تستنبط منها الأحكام والتكاليف .

3 ــ ويسمى كذلك (علم النظر والاستدلال) لأنه قائم على النظر في المسائل العقدية ، مستدلا عليه بالأدلة العقلية والنقلية .

4 ــ وسماه أبو حنيفة ــ رحمه الله تعالى ــ الفقه الأكبر تمييزا له عن الفقه الأصغر ، وهو فقه العبادات والمعاملات .

5 ــ كما سمى أيضا (بعلم الكلام) ولعل هذه التسمية قد غلبت عليه في أغلب العصور ، والسبب في هذه التسمية ــ كما في المواقف ــ أنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم كالمنطق للفلسفة (1) ، الذي يجعل الفيلسوف بارعا في الاستدلال ، أو لأن مسألة : (كلام الله) كانت أشهر المباحث وأكثر المسائل التي دار حولها الجدال والنزاع بين المعتزلة من جهة ، وأهل الحديث من جهة أخرى (2) .

---

(1) عضد الدين الايجي : المواقف . ج1 ص 39 ــ 40 .

(2) التفتازاني : شرح العقائد النسفية ص15 .

وسمي بذلك (أي بعلم الكلام) لقوة أدلته ، ووضوح حجتـــه حتـــى صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من العلوم ، كما يقـــال للأقـــوى مـــن الكلامين هذا هو الكلام !! .

ويشير المرحوم مصطفى عبد الرازق إلى أن البحـــث فـــي أمـــور العقائد كان يسمى كلاما قبل تدوين هذا العلم ، وكان يسمى أهل هذا البحث متكلمين ، فلما دونت الدواوين ، وألفت الكتب في هذه المسائل أطلق علـــى هذا العلم المدون ما كان لقبا لهذه الأبحـــاث قبـــل تدوينـــها علمـــا علـــى المتعرضين لها [1] .

(ج) موضوعه :

موضوع علم التوحيد هو المعلوم من حيث يتعلق به ذلك الإثبـــات ، وقيل موضوعه : الله /تعالى/ ، ورســـله/ عليـــهم الصـــلاة والســـلام / ، والسمعيات من حيث اعتقادها والإيمان بها ، وقيل إن موضوعه الموجـــود من حيث هو موجود .

(د) فائدتـــه :

فوائد علم التوحيد تتعدد باعتبارات مختلفة ، فبالنسبة لفرع الدين بناء العلوم الشرعية عليه ، فإنه إذا لم يثبت إله واحد مرســـل للرســـل مـــنزل للكتب لم يتصور علم تفسير ولا حديث ولا فقه ، وغيرها .

وبالنسبة لأصول الدين : دفع الشبهات عنها ، وبالنسبة لقوة الشخص الفكرية الانتقال من التقليد إلى اليقين ، وبالنسبة لقوته العملية الإخلاص في العمل ، فإنه يكون بفوز معرفة الله /تعالى/ ، والخوف من عذابه ، والطمع في رحمته وثوابه ، وبالنسبة إلى الغير إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة في ذلك ، وحفظ قواعد الدين عن أن يزلزلها شبه المبطلين .

وأخيرا فإن الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله/ تعالى/ بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله ــ عليهم الصلاة والسلام ــ على وجه اليقين الذي تطمئن إليه النفس اعتمادا على الدليل ، لا استرسالا مع التقليد حسبما أرشدنا إليه القرآن الكريم ، وسنة الرسول الأمين /صلى الله عليه وسلم/ ، فالدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوي أركانه .

(هـ) واضعه :

والمقصود بواضع علم التوحيد أي المدّون لمسائل هذا العلم وموضوعاته ، وليس المقصود التوحيد بمعناه العام إذ بهذا المعني الأخير هو رسالة كل رسول من رسل الله ــ عليهم الصلاة والسلام ــ .

والذي دوّن علم التوحيد ، وأرسى قواعده في بداية نشأته " واصل بن عطاء " وأتباعه ، "وأبو الحسن الأشعرى" وأتباعه ، "وأبو منصور الماتريدى" وأتباعه .

(و) حكمه : يشير الإمام الغزالى إلى أن التبحر في علم التوحيد ، والاشتغال به ، وتحقيق مسائله وبراهينه ليس فرض عين ، ولكنه فرض كفاية ، أما أنه ليس فرض عين فلأن الواجب في حق عامة الناس إنما هو الإيمان وتطهير القلب من الشكوك ، وإنما تكون إزالة الشك فرض عين في حق من اعتراه الشك فقط .

وأما أنه فرض كفاية فلأن كل زمن وكل بلد لا يخلو عن مبتدع يثير على الناس الشكوك في عقائدهم بما هو عليه من الزيف والضلال .

وإزالة الشكوك في العقائد أمر واجب ، فإذا لم يقم به أحد ــ والحالة هذه ــ أثم الناس جميعا [1] .

ومن العلماء من قال إن حكمه الوجوب العيني على كل مكلف ، وأقل ما يتحقق به هذا الواجب معرفة العقائد الإسلامية بالأدلة الإجمالية ، أما معرفته بالأدلة التفصيلية فهو واجب على الكفاية .

---

(1) *أبو حامد الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد . تحقيق د. عثمان عيش ص25 ــ 26 .*

والمراد بالدليل الإجمالي هو ما يعجز المكلف عن تفصيله ورد الشبه عنه ، ومعنى الدليل التفصيلي هو ما يقتدر معه على إقامة الحجة ودفع الشبهات .

(ز) مسائله :

كل حكم نظري لمعلوم هو من العقائد الدينية ، أو متوقف عليه إثبات شئ منها، وعلم العقائد الدينية هو العلم الأعلى ، وبهذا الاعتبار ليست له مبادئ تبين في علم آخر ، سواء أكان علما شرعيا أم غير شرعي ، لذلك فإن علماء الإسلام قد دونوا لإثبات العقائد الدينية المتعلقة بالباري / تعالى/ وصفاته وأفعاله ، وما يتفرع عنها من مباحث النبوة والمعاد علما يتوصل به إلى إعلاء كلمة الحق فيها ، ولم يرضوا أن يكونوا محتاجين فيه إلى علم آخر أصلا ، فأخذوا موضوعه على وجه يتناول تلك العقائد ، والمباحث النظرية التي تتوقف عليها تلك العقائد ، سواء أكان توقفها عليها باعتبار مواد أدلتها ،أم باعتبار صورها ، وجعلوا جميع ذلك مقاصد مطلوبة في علمهم هذا ، فجاء علما مستغنيا في نفسه عما عداه [1] .

ويمكن أن يقال إن مسائل علم التوحيد هي القضايا الباحثة عما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق الله تعالى /، وفى حق رسله / عليهم الصلاة والسلام // ، وعن السمعيات ووجوب الإيمان بها .

---

(1) انظر الايجى : المواقف ج1 ص37 ــ 38 .

(ح) نسبتـــه :

والمـــراد بذلك نسبته إلى غيره من العلوم ، فـــهو أصـــل العلـــوم الشرعية ، ورئيس العلوم على الإطلاق لنفاذ حكمه فيها بأسرها ، وليـــس ينفذ فيه حكم شئ منها .

(ط) فضلــه :

علم التوحيد أشرف العلوم وأســناها ، لأنـــه قـــد شـــرف بشـــرف موضوعه ، وهو الله / تعالى / ، إذ لاشك أنه إذا كان المعلوم أشرف كـــان العلم به أشرف (1) .

(ي) استمداده

من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال العلماء المبنية على الحجـــة والبرهان .

(1) نفس المصدر ج1 ص 34 ـ 35 .

المبحث الثاني

نشأة علم التوحيد

المبحث الثاني

نشأة علم التوحيد

كان المسلمون في عهد رسول الله / صلى الله عليه وسلم / متمسكين بكتاب الله / عز وجل / (القرآن الكريم) يقرؤونه ويفهمون معانيه ويعملون بكل ما جاء فيه ، يحلون حلا له ويحرمون حرا مه ، ورسول الله / صلى الله عليه وسلم / بينهم يبين لهم ما خفى عنهم أمره في جميع المسائل التي تتصل بحياتهم الدنيوية والأخروية .

فالسلف الصالح ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ (خلصت قلوبهم من أدران التقليد والعصبية ، وصفت نفوسهم لما يدعوهم إليه رسول الإيمان / صلى الله عليه وسلم / ، واطمأنت خوالجهم إلى أمانة هذا الرسول الكريم وصدقه ، فعضوا على ما دعاهم إليه بالنواجذ ، واستمسكوا منه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها [1])) .

فكانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أن الله / تعالى / موجود واحد لا شريك له بيده الأمر كله ((لله الأمر من قبل ومن بعد [2])) ، وأن محمدا

---

(1) محمد محي الدين عبد الحميد : مقدمة كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ص 4 .

(2) سورة الروم . جزء من الآية رقم 3 .

/ صلى الله عليه وسلم / رسول الله أرسله ((بالهدى ودين الحق ليظـــهره على الدين كله ولو كره المشركون[1])) .

لذا فإن القرآن الكريم ، وسنة سيد المرسليـــن / صلـــى الله عليـــه وسلم / هما المرجعان الأصليان اللذان كانا يعتمد عليهما المســـلمون فـــي عصر النبوة الطاهرة ، وكيف تكون الحاجة إلى غيرهما ؟! والمسلمون في عهده / عليه الصلاة والسلام / يستمعون إلى ما يقرره الوحي الإلهي فـــي كل المسائل التي تتعلق بعقيدتهم في الله / تعالى / وصفاته ، وفى موضـوع الوحي وصفات النبي / صلى الله عليه وسلم / ، ودلائـــل صدقـــه وغايـــة رسالته ، بل في أمورهم كلها .

أجل إن المسلمين في عهد الرسول محمد / صلى الله عليه وســـلم / غير محتاجين إلى أفكار وآراء واجتهادات وتأويلات ، إنهم محتاجون إلـــى نور النبوة يبين لهم ما نزل إليهم ؛ وبهذا فإن عقيدتهم في الله / تعـــالى / ، وفى كل ما يتصل بالأمور الدينية كلها كانت صافية نقية بعيدة كـــل البعـــد عن الشك والظن والوهم .

ومن هنا فإن الصحابة ــ رضوان الله عليـــهم أجمعيـــن ــ لصفـــاء عقيدتهـــم ببركة صحبة النبي / صلى الله عليه وســـلم / ، وقـــرب العـــهد بزمانه ، وقلة الوقائع والاختلافات وتمكنهم من المراجعة إلـــى الثقـــات ــ إنهم بسبب هـــذا كله مستغنون عن تدوين علم التوحيد ، وترتيبـــه أبوابـــا

---

(1) *سورة الصف. جزء من الآية رقم 9 .*

وفصولا [1] .

مضى زمن النبي / صلى الله عليه وسلم / ، وهـــو المرجـــع فـــي الحيرة ، والسراج في ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده مـــا قـــدر لهما من العمر في مدافعه أعداء الإسلام ، والجهاد في سبيل نشـــر دعـــوة الإسلام وجمع كلمة الأمة على طريق الحق والتوحيد .

ولم يكن للناس ــ وقتئذ ــ من الفراغ ما يجعلهم يبحثون في مســـائل عقلية ، وأصول عقدية ، وإذا حصل خلاف ما فإنه يـــرد إلـــى مصـــدري الإسلام ، وإلـــى أولي العلـــم من الصحابة يحكمـــون فيـــه بما أنـــزل الله / تعالى / في كتابـــه الكريم ، وسنـــة خير المرسلين / صلـــى الله عليـــه وسلم / ، وأغلب الخلاف ــ إن وجد ــ كان في الأحكام الفرعية العمليـــة ، لا في الأصول والأمور العقدية ؛ إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفـــة الثالث عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ مما أدى إلى قتله ؛ ثم توالـــت الأحداث بعد ذلك ، وحصل ما حصل في عهد الخليفة الرابع على بن أبـــى طالب ــ كرم الله وجهه ورضى عنه ــ وانتهى أمـــر الخلافـــة بموتـــه ، وظهر السلطان في بنى أمية ، فانصدع بناء الأمة الإسلامية ، وانفصمـــت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم الآراء ، وظـــهرت الفـــرق ، بعضـــها سياسي وبعضها ديني ، وأخذ كل فريق ينصر رأيه علـــى رأى خصمـــه بالقول والعمل .

---

(1) شرح العقائد النسفية. ص 4 .

ولكن هذا لم يقف في طريق الفتح والدعوة إلى الإســـلام ، ودخـل أناس كثيرون في دين الله من الفرس والروم وغيرهمـا ، وبعـض منـهم يحمل بين جنبيه أفكاراً ومعتقدات ورثها عن آبائه وأجداده لا صلة لها بهذا الدين الحق الجديد .

وقد ظهر أثر من دخل في الإسلام من اليهود والنصارى والمجـوس والدهرية والثنوية ، فقد بدءوا في إثارة المشاكل التي كانت تثار في أديانـهم القديمة ، وكان كثير من أصحاب تلك الآراء قد تسلحوا بالفلسفة والمنطـق اليونانيين ، فنظموا طرق بحثهم ، وتعمقوا في ذلك كثيرا ، وأخـذوا فـي مهاجمة الإسلام وأصوله ، فكان لابد للعلماء المسلمين من الـرد عليـهم ، ومقارعتهم بالحجة والبرهان ، وبنفس السلاح الذي يستعملونه ، مما حتـم عليهم دراسة علوم اليونان ، وبخاصة العلوم العقلية .

وكان المعتزلة هم أول من تسلح من المسلمين بسـلاح خصومـهم حتى يستطيعوا الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، والرد على كل مـن يثـير شبهة ضد الإسلام .

ويشير ((طاش كبرى زادة)) في كتابه : (مفتاح السعادة [1]) إلـى أن مبدأ شيوع الكلام كان بيد المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة ؛ لأن ظهور الاعتزال كان من جهة واصل بن عطاء (80 ــ 131 هـ)،

(1) جـ1 ص 37 .. وانظر كذلك : د . حسن ابراهيم حسن / تاريخ الإسلام . جـ2 ص 335 ــ 337 .

وكان واصل به عطاء تلميذا للحسن البصري الزاهد المعـــروف (21 ــ 110 هـ) ثم اختلف معه في بعض المسائل ، واعتزلـــه وكـون بذلـك مذهب المعتزلة .

ويذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الخلاف ظهر بيـــن الفـرق الكلامية في عهد الدولة الأموية ، واعتمد هذا النزع على كل وسائل الدفاع من جدل يقوم على أدلة نقليه و عقلية ، ثم تولدت مسائل اعتقاديـــه كـانت موضع جدل ونزاع ... فظهر علم الكلام على أيدي هذه الفرق ، خصوصا المعتزلة .

وإذا كان واصل بن عطاء هو أول من أظهر الاعتزال فإنـــه أخـذه عن الإمام أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الهاشمي المتوفـى عـام 98 هـ [1] .

وكان المعتزلة يعتمدون اعتمادا كبيرا على البحث العقلـــي الحـر ، ويستعملون أساليب المنطق والجدل في مقارعة خصوم الإســـلام ، فمـال الناس إلى آرائهم ، وصارت هي السائدة بين الآراء الأخـــرى ، إلـى أن ظهر الإمام أبو الحسن الأشعرى (270 ــ 330 هـ) الذي أخـــذ علـم الكلام على أبى على الجبائى (235 ــ 324 هـ) وتبعه في الاعتـــزال أربعيـن سنـة حتى صار إمـام المعتزلـة ، ثم أعلـن رجوعـه عـن

---

(1) *انظر : مصطفى عبد الرزاق . تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . ص 287 .*

مذهبهم [3] .

ويعتبر الإمام أبو الحسن الأشعرى أول من عـرض لنصـرة أهـل السنة بالبراهين العقلية ، وأخذ في مجادلة مخالفيهم ، خصوصا المعتزلـة ، اعتمـادا على النقل والعقل ، وكتب عدة مؤلفات فـي الـرد علـى الآراء الباطلة ، والانتصار لأهل السنة والجماعة حتى إن آراءه عرفت فيما بعـد باسم : (مذهب أهل السنـة والجماعة)

والإمام الأشعرى ــ على كل حال ــ كان في آرائه مقررا لما يقـول به السلف ، مدافعا عن العقيدة الحقة بطريقي النقل والعقل .

يقول صاحب كتاب : طبقات الشافعية الكبرى (المتوفى 756 هـ) :

((اعلم أن أبا الحسن الأشعرى لم يبدع رأيا ولم ينشئ مذهبا ، وإنما هو مقـرر لمذاهب السلف ، مناضـل عما كان عليـه صحابة رسـول الله / صلى الله عليه وسلم / ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقـد علـى طريق السلف نطاقا وتمسك به ، وأقام الحجج والـبراهين عليـه فصـار المقتدى به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعريا... وقـد ذكـر

---

(3) انظر : ابن عساكر الدمشقي : تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعرى ، وتجد فيه بيان الأسباب التي من أجلها ترك الأشعرى الاعتزال من ص 38 ــ 43 .

شيخ الإسـلام عز الدين بن عبـد السلام أن عقيدتـه اجتمـع عليـها الشافعية ،

والمالكية ، والحنفية ، والفضلاء الحنابلة [1]))

ويذكر المقريزي في ((خططه)) ما عليه المذهب الأشـعرى منـذ نشأته إلى عهده فيقول : ((وحقيقة مذهب الأشعرى ــ رحمه الله تعـالى ــ أنه سلك طريقا بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال ، وبين الإثبات الـذي هو مذهب أهل التجسيم ، وناظر على قوله هذا ، واحتج لآرائه فمال إليـه جماعة وعولوا على تلك الآراء ، منهم : القاضي أبو بكر محمد بن الطيـب الباقلانى المالكى ، وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، والشيخ إبراهيـم بن محمد بن مهران الإسفارينى ، والشيخ أبو حـامد محمـد بـن محمـد الغزالى ، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني ، والإمـام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى ، وغيـرهم ممـن يطـول ذكره ، ونصروا مذهبه ، وناظروا عليه ، وجادلوا فيه ، واستدلوا له فـي مصنفات لا تكاد تحصر ، فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى في العـراق من نحو 380هـ ، وانتقل منه إلى الشام [2] .

---

(1) ابن تقى الدين السبكى : طبقات الشافعية . جـ2 ص 254 ــ 255 .

(2) الخطط جـ4 ص 184 .

ثم انتشرت آراؤه في أقطار الدولة الأيوبية في ذلك الوقت التي كانت تعاضده ، ثم ببلاد المغرب على يد أبى عبد الله محمد بن تومرت . ومن هنا فان أراء علماء آهل السنة والجماعة صارت هي الآراء المقبولة لدى الغالبية العظمى من الناس إلى وقتنا الحاضر .

وكانت آراء علماء أهل السنة والجماعة الذين أتوا بعد الأشعرى تعتمد على العقل بالإضافة إلى النقل ، كما وضعوا المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، مثل : إثبات الجوهر الفرد ، والخلاء ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وغيرها مما تتوقف عليها أدلتهم ، وجعلوا هذه القواعد تبعا للعقائد في وجوب الإيمان بها ، وقرروا أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول ، وهذه الطريقة هي المسماة بطريقة المتقدمين ، وعلى رأس هذه الطريقة القاضي الباقلاني ، وإمام الحرمين الجويني .

ثم مارس أتباع مذهب الأشعرى المنطق ، وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية ، وسموه : ((معيار العلوم)) ونهجوا في استدلالاتهم ومناظراتهم على نهج قواعد المنطق ، وساروا على طريقة أخرى سميت بطريقة المتأخرين ، وهى الطريق التي سار عليها الإمام الغزالى ، والإمام فخر الدين الرازى ، وغيرهما حيث وضحت طريقة هؤلاء أن الجهل بالدليل لا يؤدي إلى عدم المدلول ، وبنوا رأيهم هذا على أساس أنه قد يكون في الدليل الذي تقرر عند المتقدمين ضعف ، أو قد يوجد عند سواهم أقوى منه، إذ قد تقتضي الأحوال تعديله أو تبديله تبعا لتطور العلوم والمعارف، فلا معنى للحجر على العقول ، وليستدل الناس على العقائد بما هداهم إليه

المنطـق والعقل السليم ما دامت النتيجة هي رسـوخ العقيـدة وثبـات اليقين [1] . وبذلك فتحوا الباب أمام الجدل العقلي المبنـى علـى منـاهج منطقية منظمة ، وأول من ألف في هذا العلم على هذا النمط الإمام الغزالى وتبعه الإمام فخر الدين الرازى .

ثم اختلط علم التوحيد بالفلسفة ، والتبس عليهم شأن الموضوع فـي العلمين فحسبوه واحدا ، كما نرى في مؤلفات عديدة فـي علـم التوحيـد لعلماء مشهورين مثل : كتاب الطوالع للبيضاوى ، والمواقف لعضد الديـن الإيجى ، وأبكار الأفكار للآمدى ، والعقائد النفسية لنجم الدين عمر النسـفى وغيرها .

وبعد هؤلاء ضعفت الهمم عن الدراسات القويـة لعلـم التوحيـد ، وسار العلماء والباحثون في العصور المتأخرة والحاضرة مقتصرين علـى النظر في كتب السابقين وبيان مسائلها وشرحها .

وبعد فمهما كانت الأسباب إلى نشأة علم التوحيـد ، سـواء أكـانت راجعة إلى نشأة الفرق ، أم إلى محاولة علماء المسلمين إلى فـهم القـرآن الكريم ، وسنة رسول الله /صلـى الله عليـه وسـلم / ، أم إلـى وجـود حضارات وديانات أخرى ، أم غيرها ، فإن النتيجة التي يمكـن أن تكـون مرضية ومقبولة أنه كان من الضروري أن ينشأ علم التوحيد في العصـر

---

(1) د . محمود البشبيشى : تاريخ الفرق الإسلامية ص 15 .

الذي نشأ فيه ، وأنه كان من الخير أن ينشأ لأنه قام بدور فاعل ومهم في تاريخ الفكر الإسلامي ، وقد تمثل هذا الدور في إثراء الفكر العربي الإسلامي بكثير من المسائل العلمية الدقيقة التي لا تزال حتى يومنا هذا محل تقدير واحترام من العلماء المنصفين ، كما تمثل أيضا في رد علماء التوحيد على كل المارقين والزنادقة والمبتدعين ردا مبنيا على أسس متينة ، ومناهج قوية ، وأدلة مقنعة .

المبحث الثالث

علم التوحيد بين المؤيدين والمعارضين

المبحث الثالث

علم التوحيد بين المؤيدين والمعارضين

اختلف علماء المسلمين حول أهمية علم التوحيد ، فهناك من العلماء من امتدحه واستحسن الخوض فيه ، وهناك من ذمه ونهى عن تعليمه وتعلمه ، ومع تقديري واحترامي لأقوال وآراء علمائنا ـ رحمهم الله تعالى ـ ، وبعد قراءاتي لأدلة كل من الرأيين المذكورين أميل إلى الرأي الأول ، وأعتبره رأيا صائبا ومقبولا لما يأتي :

من المعلوم أن القرآن الكريم قد عني بالعقائد / التي ينبغي أن يعتقدها المسلم / عناية كبيرة ، فقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة بشأن العقائد الإسلامية ، وكان على رأس تلك العقائد عقيدة التوحيد ، ويذكر الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره القيم : ((أن الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، وأما البواقي ففي بيان التوحيد والنبوة ، والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين .[1])) ويستخلص الرازى من هذا أنك لو فتشت علم التوحيد لم تجد فيه إلا تقرير هذه الدلائل ، والذب عنها ، ودفع المطاعن والشبهات القادحة فيها [2] .

---

(1) الرازى : التفسير الكبير جـ1 ص 203 .

(2) نفس المصدر . جـ1 ص 203 .

إن الغرض من علم التوحيد-كما سلف - تقرير الدلائل والـــبراهين على وجود الصانع ، وعلى صفاته ، وعلى النبوة والمعاد ، والناظر فـــي القرآن الكريم يجد أنه قد ذكر العقائد المخالفة لعقيدة الإسلام ، ورد عليـــها وأبطلها ، والآيات في ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى : ((وقالوا ما هـــي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هـــم إلا يظنون [1]))

فقد حكي الله /تعالى/ أقوال الدهرية ، ورد عليها ، كمـــا رد علـــى أولئك الذيـــن ألهوا الكواكب وعبدوها كالصابئة ، وذلك بمثـــل آية إبراهيم / عليه السلام / :

((فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحـــب الآفلين [2]))

كما رد على منكري البعث بمثل قوله/ تعالى/: ((يوم نطوي السـماء كطي السجل للكتاب كما بدأنا أول خلق نعيـــــده وعـــدا علينـــا إنـــا كنـــا فاعلين [3])) ، وغير ذلك من الردود على الكفار والمشركين ، وأصحـــاب

---

(1) سورة الجاثية : الآية 23 .

(2) سورة الأنعام : الآية 77 .

(3) سورة الأنعام : الآية 103 .

البيانات المحرفة ، ومن هنا فإن علم التوحيد قد تحددت رسالته في الدفاع عن العقائد الدينية ، ودفع الشبهات عنها انطلاقا من القرآن الكريم .

وعليه فإن علماء التوحيد / المتقدمين منهم والمتأخرين / ساروا على النهج الذي اختطوه لأنفسهم ، وألفوا في هذا العلم كتبا كثيرة ، وردوا على المخالفين والزنادقة ، ونجحوا في التصدي لكل أولئك الذين وقفوا ضد الإسلام وأهله .

فمقصود علم التوحيد ــ إذن ــ حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة ، على حد قول الإمام الغزالى [1] .

لقد أثيرت مشكلة القدر من جانب بعض النصارى الذين اعتنقوا الإسلام ولم يكونوا مخلصين فيه ، وأثيرت شبهات التشبيه والتجسيم من قبل من أسلم من اليهود ، وفي قلوبهم الكيد للإسلام ، وأثيرت فتن أخرى من جانب بعض من أسلم رياء ونفاقا من اليهود والنصارى وغيرهم [2] .

ونتيجة لذلك كله كان لابد للمسلمين من الدفاع عن دينهم وعقيدتهم ، والدخول في جدل مع أصحاب تلك الآراء والعقائد الفاسدة ، وهذا الجدل يحتاج إلي التسلح بسلاح المنطق والحجج العقلية ، الأمر الذي ترتب عليه

---

(1) *الغزالى : المنقذ من الضلال ص 118 .*

(2) *انظر : الشهرستانى الملل والنحل ج1 ص 113 ،*

، انظر كذلك: البغدادي الفرق بين الفرق ص 15 ــ 16 .

وجود علم التوحيد باعتباره العلم المدافع عن العقائد الإســـلامية بـــالحجج والبراهين المبنية على الأقيسة المنطقية .

((وكان المهدي العباسي أول من أمر الجدليين من أهل البحث مـــن المتكلمين بتصنيف الكتب للرد على الملحدين وغيرهم ، وقد قام المتكلمـون بهذا ، وأقاموا البراهين على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين ، فأوضحوا الحق للشاكين [1])) .

لقد قام علماء التوحيد بالرد والنقد والنقض لآراء المخـــالفين لعقيـــدة الإسلام بعد أن درسوا مذاهب الخصوم حتى يســـتطيعوا الـــرد عليـــهم ، ويكون هذا الرد قاطعا لآراء المخالفين ، وهذا منهج له قيمتـــه العلميـــة ، وذلك لأن رد المذهب أو الرأي قبل فهمه والإطلاع على حقيقته رمى فـــي عماية ، على حد تعبير الإمام الغزالي [2] .

إن أولئك العلماء وجدوا أنفسهم في عصر مملوء بالعقـــائد الفاســـدة والديانات المحرفة ، والملل والنحل والأهواء التي يصعب حصرها ، فكـــان عليهم أن يواجهوا هذه كلها ، ويقاتلوا أهواءها بسلاح من نفس ســـلاحها ، ويستعملـــوا عقولهـــم في إدحاض كل بدعـــة ، جامعين فـــي حجاجهـــم بين

---

(1) ادم متز : *الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ج1 ص 354 .*

(2) انظر : *الغزالي . المنقذ من الضلال ص 126 .*

المعقول والمنقول[1].

إن علماء التوحيد وجدوا أنفسهم مدفوعين إلي البحث والجدال والمناقشة في مسائل العقيدة ، وفي مسائل أخري يرون أن العقيدة تتوقف عليها ، مثل : تركب الأجسام من الجواهر الفردة ، وجواز الخلاء وغيرها ، كما وجدوا كثيرا من أهل الأهواء والبدع في المجتمع ينشرون أفكارا لا تتفق مع عقيدة هي الحق بعينه ، فهل إذا ردوا عليهم بالحجة والبرهان والنقل من القرآن الكريم ارتكبوا خطأ يستحقون عليه الإثم ، وينسبون إلي الابتداع في الدين ؟ ، وهل إذا تحدثوا في موضوعات العقيدة وفي مسائلها المتصلة بها ، فهل كل ذلك يعتبر بدعة وضلالة ؟ .

وهنا يتساءل الإمام الأشعرى قائلا : هل صحيح أن كل بحث حول أمر لم يبحثه رسول الله / صلى الله عليه وسلم / يعتبر بدعة وضلالة ؟ لو كان الأمر كذلك للزم أن يكون الصحابة كلهم ، وكذلك التابعون على كثير من الضلالة ــ وحاشاهم ذلك ــ لأنهم ((أى المعترضين)) قد بحثوا في أشياء لها تعلق بالدين من جهة التشريع لم يرد فيها نص عن رسول الله /صلى الله عليه وسلم/ فقد بحثوا لفظ البائن والحرام في الطلاق مثلا ، كما بحثوا مسائل العول والجدات في علم الفرائض ..الخ ، ثم يقول للمعترضين على علم التوحيد : ولم قلتم إن البحث في مثل الحركة والسكون والجوهر والعرض .. وغيرها بدعة وضلالة ؟ مع أن النبي /

---

(1) انظر : محمد كرد على : *الإسلام والحضارة العربية ج2 ص18* .

صلى الله عليه وسلم/ لم يقل إن من بحث في مثل هذا فهو مبتدع وضـال ، وإذن فقد قلتم ما لم يقله رسول الله/ صلى الله عليه وسلم / ، وحكمتم بشـي لم يحكم به ، فيلزمكم تبعا لتعليلكم أن يكونوا مبتدعة ضلالا [2] (وهذا لـم يقل به أحد لأنهم كانوا على هدى) .

يقول شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام مبينا أن البحث في أمور العقيدة إنما هو من الدين ، يقول ــ رحمه الله تعالى ــ فإن لأهل الحـق أن ينكروا المنكر ، ويردوا على أهل الباطل أقوالهم وبدعهم ، فكيـف يكـون مخطئا من أنكر المنكر ودعا إلي المعروف ... ولو جاءنا واحد وقال أنـا متحير في إثبات شي من ذلك أو نفيه ، فهل نقول له حينئذ لا تسـأل عـن هذا فإن سؤالك عنه بدعة ، وتأمره أن يبقى على شكه وتردده في ذلـك ، ولا تبين له الحق من الباطل ، والخطأ من الصواب لأن الكلام فـي ذلـك بدعة ؟! . كلا وكيف لا يكون ذلك من الدين ، وقد تكلمت فيه طوائف مـن المسلمين ؟! .

وأما الافتراء على الصحابة والتابعين والأئمة المتقين ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ بأنهم سكتوا على ذلك فجهالة عظيمة ، لأن سكوتهم عـن

---

(2) *الأشعرى : استحسان الخوض في علم الكلام ص 4 .*

وانظر كذلك : د/ حمودة غرابة أبو الحسن الأشعرى ص76- 77 .

وأما الافتراء على الصحابة والتابعين والأئمة المتقين ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ بأنهم سكتوا على ذلك فجهالة عظيمة ، لأن سكوتهم عن ذلك كان قبل ظهور البدعة ، ولا حجة لسكوتهم لأنهم سكتوا حيث يجوز لهم ذلك إلى أن ظهرت البدعة فتكلموا فيها [1] .

فالبدع يجوز السكوت عنها مادامت خامدة ساكنة ، فإن ظهرت وسارت وجب الابتدار إلى إنكارها وإبطالها ، وتبيين الحق في ذلك نصحا لدين الله ، وعملا بكتابه إذ يقول فيه : ((ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون [2])) .

وقد سار على نهج العز بن عبد السلام طائفة كبيرة من العلماء أيدوا أراء أهل السنة والجماعة في دفاعهم عن الدين بالمنقول والمعقول .

وقد لخص الإمام الغزالى ذلك بقوله : ((لقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسول الله / صلى الله عليه وسلم / عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها ، فأنشأ الله /تعالى/ طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل

---

(1) انظر: محمد جمال الدين القاسمي . دلائل التوحيد ص72-75 .

(2) سورة آل عمران : الآية : 104 .

البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله . فلقد قامت طائفة منهم بما ندبهم الله/تعالى/ إليه فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة [1] .

ثم إن علماء التوحيد إنما ساروا في مناهجهم الكلامية على منهج القرآن الكريم من حكاية الأقوال الفاسدة والآراء الباطلة ، وذكر البراهين القطعية لإبطالها ، غاية ما فيه إنهم أحدثوا اصطلاحات تليق بضبط العلم لأهل الزمان ، ولا حجر إجماعا في الأوضاع والعبارات والتصرف فيها بحسب ما يليق بمصالح الأقضية المطروحة [2] .

فعلم التوحيد قد بحث في دلائل وجود الله /تعالى/ التي أشار القرآن الكريم إليها ، ومن ذلك الدلائل الخمسة ، وهى : خلق المكلفين ، وخلق من قبلهم ، وخلق السماء ، وخلق الأرض ، وخلق الثمرات من الماء النازل من السماء إلي الأرض ، وكل ما ورد في القرآن الكريم من عجائب السماوات والأرض فالمقصود منه ذلك ، وقل مثل هذا في صفات الله /تعالى/ ، وفي النبوة والرسالة ، والرد على المعاندين والمكابرين .

---

(1) *الغزالى : المنقذ من الضلال . ص121 .*

(2) *انظر : عبد العزيز جاب الله . الدليل الصادق ج1 ص5 وما بعدها.*

أفترى أن علم التوحيد يذم لاشتماله على هذه الأدلة التي ذكرهـــا الله /تعالى/ أو لاشتماله على دفع المطاعن عن هذه الأدلـــــة ؟ . مـــا أرى أن مسلما عاقلا يقول ذلك ويرضى به [1] .

ويشير صاحب كتاب : ((كبرى اليقينيات الكونية)) إلـــى أن علـــم التوحيد إنما أطلق على المناقشات العلمية التي دارت أو تدور حول مبـــادئ العقيدة الإسلامية بقطع النظر عن نوع الشبه ، وطريقة البحث والنقاش فإن كل ذلك من شأنه أن يختلف ويتطور من عصر إلي آخر ، وأنه لا تتـــافى بين منهج علماء التوحيد ، ومنهج القرآن الكريم ، ولا تعطيـــل لأحدهمـــا على حساب الآخر .

فنحن بحاجة إلي منهج القرآن بالنسبة لمن تركزت في قلبه مبـــادئ الإيمان بالله /تعالى/ ورسوله /صلى الله عليه وسلم/ ، ولكنه بحاجـــة إلـــي تقويتها والحفاظ عليها ، وإقامة الصورة الإسلامية الصحيحة في فكره دون أي زيف أو انحراف عنها ، ونحن ننصح لمثل هذا الإنسان بعدم إضاعـــة الوقت في تأمل هذه المناقشات الفكرية التي تحوم حول البحث في شـــبهات ما هو منها في شئ إلا أن يحتـــاج إليها فـــي مجـــال توجيـــه الآخريـــن وتعليمهم ، ولابد له من ذلك على الأقل في مجال المعرفة العامة .

---

(1) انظر : الرازى : التفسير الكبير. ج1 ص203 .

ونحن بحاجة إلي المنهج الفكري الذي سلكه علماء التوحيد بالنسبة لمن لم يدخل بفكره بعد في دائرة الإيمان بالله /تعالى/ ورسوله /صلى الله عليه وسلم/ والقرآن الكريم ، لأن المنهج الذي سار عليه علماء التوحيد في عصورهم ، ونسير نحن عليه في مثل هذا الكتاب ليس خارجا على منهج القرآن الكريم .

فالقرآن أمرنا أن لا نقفو في أفكارنا واعتقادنا مالا علم لنا به ، وأمرنا أن نحكم العقل وموازينه في كل ما يعرض لنا من أمور الحياة .

والقرآن الكريم ناقش المشركين طبقا لميزان ((العلة الغائية)) الماثلة في الكون ، وهو الذي نبه أفكار المشركين إلي بطلان الشريك لله تعالى طبقا لما يقتضيه برهان : ((التمانع)) فأي دستور تريده من القرآن أكثر من هذا كي تطمئن إلي أن مناقشة أصحاب الشبهات طبقا لمقتضى الأدلة والبراهين التي يتعاملون بها هو من صميم المنهج القرآني ؟ *(1)*

وإذا كان علم التوحيد له من المبررات ما يجعله علما قيما مفيدا ، وقضاياه قضايا صالحة للبحث والمناقشة ، فإنه ينبغي أن يوجه ــ اليوم ــ للدفاع عن العقيدة الإسلامية ــ كما هو هدفه ــ بأساليب علمية ضد الملحدين والزنادقة ، والمارقين الذين يتربصون بالإسلام وأهله ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن كتب علم التوحيد التراثية لها قيمة علمية وتاريخية كبيرة في تصوير العصور التي كتبت فيها ، وبيان جهود مؤلفيها في التدليل

---

(1) *انظر : د محمد سعيد رمضان البوطى . كبرى اليقينيات الكونية ص 16 17*

للعقائد الدينية ، والرد على أرباب المقالات الزائفة والآراء المخالفة للعقيدة الإسلامية [2] .

بالإضافة إلي ذلك فإن مناهج أولئك العلماء تعتبر من المناهج العلمية القيمة التي تفيد الباحث في كثير من المسائل المتعلقة بالعقيدة والدفاع عنها والدعوة لها ، وإن تلك المناقشات العلمية التي دارت بين كثير من علماء التوحيد تعتبر في حد ذاتها علما يستفاد منه في علوم أخرى .

وأخيرا فعلي من عنده الرغبة الكاملة ، والعزيمة الصادقة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية والدعوة إلي الله /تعالى/ بالحجة والبرهان ، والتصدي للفلسفات المادية الملحدة ، والعقائد المنحرفة ، عليه أن يسلك في سبيل ذلك الإقناع بكل حججه ووسائله ، ابتداء من مناهج القرآن الكريم المتعددة ، وانتهاء بالأدلة البرهانية والعلمية التي تنبض بالحياة ، وتفحم الخصوم – التي جاء بها المفكرون قديما وحديثا – .

وخلاصة الموضوع فإن علم التوحيد الذي استحسنه العلماء ، إنما هو العلم الذي يرسخ العقيدة ويدافع عنها بالأدلة القاطعة والبراهين الدامغة ، البعيد عن البحث في ذات الله /تعالى/ غير المائل مع الانحراف والبدع ، السائر مع منهج القرآن الكريم لأنه أعدل منهج وأقوم طريق ، لا

---

(2) انظر د. محمد يوسف موسي ، وزميله. مقدمة كتاب الإرشاد للجويني ص/ش

جدال في الله/تعالى/ ، ولا بحث في كنه ذاته ، ولا كثرة اختـــــلاف فـــي دينه ، ولا اتباع سبل مضللة ، ولكن اتباع ســـبيل واحـــد ، صـــراط الله ، ونظرة لهذا الوجود الذي يصافح حواسنا ، ويأخذ بمجامع عقولنا وقلوبنـــا ، نظرة تمتلئ بها القلوب خوفا وخشية لمن خلق فسوى وقدّر فهدى .

المبحث الرابع

أقسام الحكم العقلي

المبحث الرابع

أقسام الحكم العقلي

الحكم هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه ، وينقسم ثلاثة أقسام : شرعي ، وعادي ، وعقلي .

1 ـ فالحكم الشرعي هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالطلب أو الإباحة أو الوضع لهما .

ومعني ذلك أن كلام الله /تعالى/ الأزلي قد خاطب به عباده ، إما أمرا ، كقوله : /تعالى/ : ((يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون [1])) ، وإما نهيا كقوله / تعالى/ : ((ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن [2])) ، وإما إباحة ، كقوله /تعالى/ : ((وكلوا واشربوا [3])) وإما وضعا ، كقوله /تعالى/ : ((الحج أشهر معلومات[4])) .

---

(1) سورة الحج الآية : 75 .

(2) سورة الأنعام . جزء من الآية :152 .

(3) سورة البقرة. جزء من الآية : 185 .

(4) سورة البقرة. جزء من الآية : 195 .

وكـــل منهـــا وإن كان من قبيل الإنشاء لكنه يتضمن الخبر ، مثلا : ((ولا تقربوا الفواحش)) يستلزم قولنا : عمل الفواحـــش حـــرام ، وهـــو مشتمل على إثبات الحرمة للفواحش وهذا النهي ثبت جبرا لا اختيارا للعبـــد فيه ، كما قال /تعالى/ : ((وما كـــان لمؤمـــن ولا مؤمنـــة إذا قضـــي الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم [1])) .

2 ــ وأما الحكم العادي فهو إثبات الربط بين أمر وأمر وجودا أو عدمـا بواسطة التكرار على الحس .

والمـــراد بالأمرين في التعريـــف الموضوع والمحمـــول في نحو : " الأكل مشبع " ، فالأكل هو الموضوع ، ومشبع هو المحمول ، فمتي أريـد بأحدهما أحدهما أريد بالأخر الآخر وجودا وعدما .

إذن فحقيقة الحكم العادي إدراك النسبة الحكمية الكائنة بين المحمـول والموضوع ، أي التصديق بها من جهة وقوعها فتكون القضية موجبة ، أو من حيث عدم وقوعها فتكون القضية سالبة .

وفي التلازم بين الســـبب والمســـبب دار خـــلاف بيـــن العلمـــاء والمفكرين ، فمنهم من اعتقد أن الأسباب العادية تؤثر في مسبباتها بطبعـــها وذاتها ، والتلازم بينهما عقلي ، فلا يجوز التخلف ، وهذا الاعتقاد فاســـد ، ناشئ من عدم التمييز والنظر في العقليات ، وصاحب هذا الاعتقاد كافر .

---

(1) *سورة الأحزاب . جزء من الآية : 36 .*

ومنهم من اعتقد أن الأسباب العادية تؤثر في مسبباتها بقوة أودعها الله فيها ، والتلازم بينهما عادي فيصح التخلف ، وهذا أيضا اعتقاد غير صحيح .

ومنهم من يعتقد أن المؤثر في المسببات العادية / كالإحراق بالنسبة للنار، والري بالنسبة لشرب الماء ، والشبع بالنسبة للأكل / هو الله تعالى وحده ، إلا أنه يعتقد أن الملازمة بين الأسباب والمسببات عقلية لا يمكن تخلفها ، فمتى وجدت النار وجد الإحراق ، ومتى وجد الأكل وجد الشبع ، ومتى وجد الماء وجد الري ، وهذا الاعتقاد غير صحيح ، وربما يؤول إلى الكفر، والعياذ بالله /تعالى/ لأنه يلزم عليه إنكار ما خالف العادة ، كمعجزات الرسل/ عليهم الصلاة والسلام/ ومنهم من يعتقد أن المؤثر في المسببات العادية هو الله/تعالى/ وحده ، وأن الملازمة والمقارنة بين الأسباب والمسببات العادية يمكن تخلفها ، بأن يوجد السبب دون وجود المسبب ، كما حصل لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل /عليه الصلاة والسلام / عندما ألقي في النار ، فكانت عليه بردا وسلاما ((قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم [1])) ، وهذا الاعتقاد هو الحق والمنجى عند الله تعالى ، فالملازمة بين السبب والمسبب عادية يمكن تخلفها ، والمؤثر في المسببات العادية هو الله وحده .

---

(1) سورة الأنبياء. الآية : 68 .

3 ـ وأما الحكم العقلي فهو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه من غير توقف على تكرار ولا وضع واضع . وهذا الإثبات أو النفي إما أن يكون على جهة الوجوب أو الجواز أو الاستحالة . إذن فالحكم العقلي لا يخرج عن أحد هذه الثلاثة .

وقد عرف علماء التوحيد الواجب والجائز والمستحيل استغناء عن تعريف الوجوب والجواز والاستحالة ، وذلك لأن الواجب وأخويه مشتق من الوجوب وأخويه ، ومعرفة المشتق تستلزم معرفة المشتق منه .

فقد عرفوا الواجب بأنه مالا يتصور في العقل عدمه ، ومعني ذلك أن الواجب هو الثابت الذي لا يقبل الانتفاء أو الزوال في ذاته ، أي بالنظر لذاته لا لشي آخر .

وينقسم قسمين :

(أ) ـ **ضروري** ، وهو مالا يتوقف إدراك وجوبه على فكر ، مثل : التحيز للجرم ، أي أخذه قدر ذاته من الفراغ ، ومثل : صغر الولد عن أبيه .

(ب) ـ **نظري** ، وهو ما توقف إدراك وجوبه على نظر واستدلال ، مثل : قدم الإله وعلمه وجميع صفات الكمال .

ومن خواص الواجب أن ذاته تقتضي الوجود ، وما كان من مقتضى الذات فلا يتخلف عنها . وأن ذاته مستغنية عن الغير أي غير محتاج إلى

والمستحيل هو مالا يتصور في العقل وجوده ، أي الأمـــر الـــذي لا يتصور وجوده ، فهو المنتفي الذي لا يقبل الثبوت ، وهو قسمان :

(أ) ـ ضروري ، وهو مالا يحتاج في إدراك اســـتحالته إلـــي بحث ، مثل : خلو الجرم عن الحركة والسكون ، أو ثبوتهما له معا .

(ب) ـ نظري ، وهو ما احتاج في إدراك استحالته إلـــى فكـــر واستدلال ، مثل : تعدد الآلهة ، وكذب الرسل وخيانتهم .

وحكم المستحيل لذاته أنه لا يطرأ عليه وجود ، فإن العدم من لـــوازم ماهيته من حيث هي ، فالمستحيل لا يوجد ، فهو ليس بموجود قطعا ، بـــل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة [1] .

والممكن أو الجائز هو مالا وجود له ولا عدم من ذاته ، فهو أمـــــر قابل في حد ذاته للانتفاء وللثبوت ، وهو قسمان :

(أ) ـ ضروري ، وهو مالا يتوقف إدراك جـــوازه أو إمكانـــه على بحث ، مثل : الحركة والسكون بالنسبة للجسم .

(ب) ـ نظري ، وهو ما توقف إدراك إمكانه أو جـــوازه علـــى بحث واستدلال ، كالإحراق عند مماسة النار ، وغير ذلك من كـــل حكـــم

---

(1) ... محمد عبده. *رسالة التوحيد* ص 5 .

... : *الخريستاني. تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام* ج1 ص86 .

عادي فإنه جائز عقلي ، لأن العقل إذا تأمل في وحدانية الله تعالى ، وأنه الفاعل المختار المتفرد بالإيجاد والإعدام علم أن الأفعال كلها لله تعالى وحده ، ولا تأثير لما سواه ، خلافا لمن جعلها من الأحكام الواجبة العقلية التي لا يمكن انفكاكها ــ كما سبق ــ .

ومن خواص الممكن لذاته أنه لا يوجد إلا بسبب ، ولا ينعدم إلا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين ــ أي الوجود والعدم ــ له لذاته فنسبتهما إلي ذاته على السواء ، فإن ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح ، وهذا محال ، ومن أحكامه كذلك أنه إن وجد يكون حادثا ، لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب .

ومن أحكامه أيضا أنه موجود قطعا ، والدليل على ذلك أننا نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد أن كانت موجودة ، كأشخاص النباتات والحيوانات ، فهذه الكائنات كلها إما أن تكون مستحيلة ، أو واجبة ، أو جائزة ، لا سبيل إلي الأول ، لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ، ولا إلي الثاني لأن الواجب له الوجود من ذاته ، وما كان وجوده من ذاته فلا يزول ، فلا يطرأ عليه العدم ، ولا يسبقه إذن فهي ممكنة الوجود .

المبحث الخامس

المعـــرفـــة

المبحث الخامس

المعـــرفـــة

ما هي المعرفة المطلوبة في العقيدة الإسلامية ؟

المعرفة معناها الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل ، أي الجزم المطابــق لما في نفس الأمـــر ، وهو علم الله تعـــالى ، وخـــرج بـــالجزم الظن ، وهو إدراك أحد المتقابلين براجحية ، والوهم وهو إدراك أحدهمـــا بمرجوحية ، والشك وهو إدراك كل منهما على السواء .

فإن المتصف بواحد من هذه الثلاثة في شئ من العقـــائد لا يحمـــل الإيمان الصحيح ، وخرج بالمطابق للواقع غيره كاعتقاد النصارى بـــأن الله تعالى ثالث ثلاثة فإن هذا لا يسمى معرفة ، بل هو جهل مركب لتركبة من جهلين : جهل صاحبه بما في الواقع ، وجهله بأنه جاهل لزعمه أنه عالم .

إذن فالمتصف بالظن أو الوهم أو الشك أو غير المطابق للواقع فـــي العقائد الإسلامية هو كافر ، لأن الإيمان بالله تعالى لابـــد أن يكـــون عـــن إدراك جازم لا يعتريه أي خلل ينقضه ، ولذلك نرى العلماء اختلفـــوا فـــي إيمان المقلد ، وهو الذي أخذ بقول الغير من غير دليل [1] .

---

(1) *انظر : حسن متولي . مذكرة التوحيد ص 15 / 16 .*

وليس المطلوب في معرفة الله تعالى إدراك ذاته ، وإنما الغاية من معرفته تعالى معرفة ما يجب له وما يستحيل وما يجوز ، لأن العقول قاصرة عن إدراك حقيقة الذات العلية ، وقد نهانا الشرع الحكيم عن البحث في حقيقتها .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (تفكروا في آلاء الله ومخلوقاته ولا تفكروا في ذاته فإنكم لن تقدروا قدره)) [1] ؛ أي إن فكرتم في ذاته فما عظمتموه حق تعظيمه .

فالله جلت قدرته عرف نفسه بنفسه ، ودل الإنسان على أن يعرفه بآلائه ونعمه ، فترك إدراك الذات هو في حد نفسه إدراك ، والبحث عن ذات الله إشراك ، ذلك لأن العقول البشرية لا يمكن لها الوقوف على حقيقة الذات العلية .

وحكم المعرفة الشرعية الوجوب لكنه يكون عينيا في معرفة كل عقيدة ولو بدليلها الإجمالي ، ويكون كفائيا في المعرفة بالدليل التفصيلي [2] والدليل علي وجوب المعرفة ما يلي :

---

(1) رواه أبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رفعه : لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله فمن خلق الله ، فمن وجد من ذلك شيئا فليقل : ((آمنت بالله)) . انظر كشف الخفاء ج1 ص 2/ 3 .

(2) انظر : الكردستانى مصدر سابق . ج1 ص28 .

1 ــ قوله تعالى : ((فاعلم أنه لا إله إلا الله [1])) أمرنا بالعلم ، وهـــو لا يكون إلا عن دليل .

2 ــ قوله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشـــهدوا أن لا إله إلا الله [2])) فالشهادة ما كانت عن علم ، والعلـــم لا يكـــون إلا عن دليل .

3 ــ وقد أجمعت الأمة علي وجوب الإيمان الذي هو المعرفة العلمية ، والإيقان بالدليل والبرهان ، كما أجمعت علي وجـــوب العبـــادة بعـــد معرفة المعبود من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ولا تتصور العبـــادة إلا بعد معرفة المعبود ، فمعرفة المعبود مقدمة للواجب المجمع عليه فـــهي واجب مجمع عليه .

أما طريق وجوب المعرفة فهو الشرع ، لأن العقل لا يدرك حســـــنا ولا قبحا في فعل من الأفعال ، ولا يدرك حكم الله في شئ ، ولولا الشـــرع لما كنا مكلفين ولا محاسبين علي أي فعل مـــن الأفعـــال ، إذ قبـــل ورود الشرع لا حكم أصلا لا أصليا ولا فرعيا .

---

(1) سورة محمد صلى الله عليه وسلم . جزء من الآية رقم 25 .

(2) حديث صحيح رواه ابن عمر . انظر : التاج الجامع للأصول/ منصور ناصف ج1 ص34 .

والدليل علي ذلك قولـــه تعالى : ((وما كنا معذبيـــن حتـــى نبعـــث رسولا [3])) فقد انتفي الوجوب قبل البعثة بنفي لازمـــه وهـــو العـــذاب ، ونفي الوجوب ــ حينئذ ــ يلزمه عدم الوجوب مطلقا بـــالعقل ، فتعيـــن أن الوجوب بالشرع .

وقوله تعالى أيضا : (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقـــالوا ربنـــا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى [1])).

فقد أفادت هذه الآية أنهم لو اعتذروا في ارتكاب الذنوب بعدم إرسال الرسل إليهم قبل عذرهم ، فلو كان الوجوب عقليا لما قبل منـــــهم العـــذر لوجود العقل ، ومن هنا نرى أن طريق وجوب المعرفة هو الشرع خلافـــا للمعتزلة الذين يقولون إن طريق وجوبها العقل .

فالواجبات ــ كما يقول أهل السنة والجماعة ــ كلها سمعية ، والعقل لا يوجب شيئا ، ولا يقتضي تحسينا أو تقبيحا ، فمعرفة الله /عـــز وجـــل/ بالعقل تحصل وبالسمع تجب ، كذلك شكر المنعم ، وإثابة المطيع ، وعقـاب

---

(3) سورة الإسراء الآية رقم 15 .

(1) سورة طه الآية 133 .

العاصي يجب بالسمع دون العقل ، ولا يجب على الله تعالى شئ ما بالعقل [2] .

---

(2) انظر : حسن متولي . مذكرة التوحيد ص18/19 .

المبحث السادس

العقيدة الدينية

المبحث السادس

العقيدة الدينية

** **تمهيد** :

العقيدة مشتقة من اعتقد ، واعتقد بالشي معناه صدقه وتديـــن بـــه ، وعقد قلبه وضميره ، والاعتقاد إحكام القلب والضمير علي معنى معيـــن ، وهو التصديق به والثبوت عليه .

وعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين ما أمر غرزى مشترك بين النـــاس في كل زمان ومكان ، فإنه لم تخل جماعة من الناس في أي عصـــر مـــن عقيدة علي نحو ما .

والعقيدة بالمفهوم العام أنواع متعددة تختلف باختلاف الجوانب للحيـاة الإنسانية ، وأهم تلك الأنواع جميعا العقيدة الدينية التي يكـــون لـــها مـــن التفوق في التأثير والسبق في توحيد الجماعات والأفراد ما يجعلـــها دائمـــا علي رأس جميع أنواع العقائد المختلفة ، وتكون موضع الاهتمام البالغ مـــن العلماء والمصلحين والمربين .

ويشير المرحوم عباس العقاد إلى أن العقيدة فـــي الإلـــه هـــي رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها ، من عرف عقيدة قوم في إلههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ، ومن صحة المقاييس التي يقـــاس

بها الخير والشر ، فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية ، ولا يعلو ديـــن وعقيدته في الإله هابطة [1] .

والعقيدة الدينية تتميز عن غيرها من العقائد المختلفة بأمرين :

** ***الأول :*** أن موضوعها يمثل حقيقة خارجة مستقلة قائمة بذاتـــها يضفي عليها المتدين لونا من القدسية ، وتقوم الصلة بينها وبين المتدين بها علي أساس الصلـــة بين ذات هي المتدين ، وذات أخـــرى هـــي الشـــيء المقدس ، أي موضوع الاعتقاد .

** ***الثاني :*** أن العقيدة الدينية تختص بالإيمان بالغيب ، أي الإيمان بالعالم غير المنظور ، وتؤمن به ، وتعتقد فيه اعتقادا جازما .

ذلك لأن من شأن المتدين أنه يطلب وراء كل حس معنى ، ويلتمـــس تحت كل ظاهر باطنا ، ويضع في مبدأ كل فعل فاعلا ، جازما أنه لا يقـــع في الكون كله شئ من دقيق الحوادث وجليلها إلا وللمعبود فيه قصد وتدبير وشأن[2] .

1 – ***العقيدة الإسلامية .***

من الأمور المقررة أن أساس الإسلام عقيدته ، وجوهر العقيدة فيـــه الإيمـــان بوجود الله تعالى بوحدانيتـــه ، وبصفاتـــه العليـــة ، والإيمـــان –

(1) *عباس العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص36 .*

(2) *د. محمد بيصار: العقيدة والأخلاق واثرهما في حياة الفرد والمجتمع ص 58 - 59.*

كذلك ـ بأنبيائه ورسله وملائكته واليوم الآخر وما فيه من حساب وثـواب وعقاب وجنة ونار ، إذ لا مطمع في تحقيق شـي مـن أحكـام الشـريعة الإسلامية إن لم تكن المبادئ الاعتقادية مركوزة من قبل ذلك في القلـب ، ولا مطمع في ارتكاز شئ من هذه المبادئ فيه إلا بعد الإيمان بوجـود الله تعالى .

هذه العقيدة هي أول ما جاءت به دعوة الرسول محمـد/ صلـى الله عليه وسلم/ وطلب إلي الناس الإيمان بها في المرحلة الأولي من مراحـل دعوته ، وجاءت نصوص القرآن الكريم داعية لها موجهة الأنظـار إلـي اعتناقها ، والأخذ بها .

وهذه العقيدة لم يختلف مضمونها منذ آدم / عليه السلام / إلى بعثـة خاتم النبيين والمرسلين محمد/صلى الله عليه وسـلم/ ومضمونـها الـذي تعاقب الأنبياء والرسـل كلهـم علي الدعـوة إليـه هو الإيمان بوجـود الله تعالى/ وبوحدانيته ، وتنزيهـه عن كل مالا يليق بـه مـن صفـات النقص ، فكان كل رسول يدعو قومه إلي الاعتقاد بهذه الأمور ، واللاحـق منهم يؤكد على دعوة من سبقه ، ويبشر ببعثة من سيأتي بعده مـن رسـل الله/ عليهم الصلاة والسلام / .

يقول الله /تعالى/ : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحي إليـه أنه لا إله إلا آنا فاعبدون [1])

---

(1) سورة الأنبياء : الآية 25 .

ويقول /تعالى/ : (شرع لكم من الدين ما وصي به نوحـــا والـذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيمـــوا الديـــن ولا تتفرقوا فيه [1])

فالدين أو الإسلام عند الله واحـــد غـــير متعـــدد ، وكـــل الأنبيـــاء والمرسلين دينهم الإسلام ، يقول الله /تعالى/ (ما كان إبراهيم يـــهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين [2]).

إذن الدين الحق الذي هو العقيدة لا يتعدد ولا يختلف ، إذ أن العقيـدة مسائلها تكون دائما من قبيل الأخبار ، ولا يتصور للخبر الواحد أن ينقـــل على أشكال ووجوه عديدة متخالفة ، ثم تكون كلها ــ مع ذلـــك ــ أخبـــارا صحيحة إلهية صادقة .

فأخبار الدين الحق لا يمكن أن تكون مختلفة لأنها مـــــن عنـــد الله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا [3]) .

وعليه فالوحي من عند الله /تعالى/ لأنبيائه ورسله ــ عليهم الصـــلاة والسلام ــ وحـــي واحد صادق لا يختلف ولا يتعـــدد ــ فيمـــا يتعلـــق

---

(1) سورة الشورى : جزء من الآية 11 .

(2) سورة آل عمران الآية 66 .

(3) سورة النساء جزء من الآية رقم 81 .

بالعقيدة – لأنها الجوهر والأساس ، أما الذي يمكن أن يختلف ويتعدد فهو التشريع علي اختلاف أنواعه ، فالله الحكيم الخبير جعل لكل أمة من الأمم شريعة ومنهاجا علي ما تقتضيه مصالح العباد الدنيوية والأخروية ، (لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا [1]).

2 – العقيدة والشريعة في الإسلام .

يعرف الدين الحق بأنه نظام إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقاد ، والخير في السلوك والمعاملات ، وهو صادر من قبل الله عز وجل ، يبين للناس سبل الرشاد ، ويوضح لهم طريق الاعتقاد ، ويشرح لهم مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات نحو خالقهم ، ونحو أنفسهم ، ونحو المجتمع الذي يعيشون فيه ، ونحو الأمة التي يشرفون بالانتساب إليها ، بل ونحو العالم كله .

((وقد جاء دين الإسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة في الإله الواحد صححت فكرة الفلسفة النظرية ، كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين من أعظم المعجزات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف ، والبديهة الصادقة [2])) .

---

(1) سورة المائدة. جزء من الآية رقم 50 .

(2) عباس العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص36 .

وسمو العقيدة الإسلامية يرجع إلى أن دين الإسلام هو الدين الحق الذي رضيه الله ـ جلت قدرته ـ للإنسانية كلها ، وأرسل به خاتم أنبيائه ورسله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نورا ورحمة للعالمين ، وجعل القرآن الكريم كتابه الأول والأخير فرقانا بين الحق والباطل في الاعتقاد والعمل علي حد سواء .

فقد جاء هذا الكتاب بعقائد واضحة سهلة الفهم والإدراك ، وبعبادات تنظم صلة العبد بربه علي نحو لا عسر فيه ولا حرج ، وبأصول محكمة عادلة تقوم عليها المعاملات بين الناس حتى لا يبغي بعضهم علي بعض ، وبأخلاق وآداب سامية تسمو بها نفوس أتباعه ، وبنظم فائقة مفيدة في شئون السلم والحرب والعلاقات الدولية ، وغير ذلك مما لابد منه لصلاح الفرد والمجتمع في كل عصر ومكان ، وهذا كله له أثر بالغ في سرعة انتشار الإسلام ، ونجاح الدعوة الإسلامية .

وعليه فإن الله / تبارك وتعالى/ رضي للناس دين الإسلام ، وجعله دينا متكاملا من كل الجوانب ، وجعل له أصولا وقواعد ثابتة وشريعة سمحة ميسرة .

ومن المسلم به أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الأصليان لعقائد الدين ، وللأحكام الواردة في أصول الدين وشرائعه ، فهما قد حويا الأصول والمبادئ الكلية والجزئية لهذا الدين الحنيف .

وقد جرت عادة جمهور الباحثين في العلوم الإسلامية من المسلمين ، وبخاصة علماء التوحيد منهم علي اعتبار أن العقيدة في هذا الدين تمثل الجانب النظري منه – إن صح التعبير – وأن الشريعة تمثل الجانب التطبيقي فيه .

فالبنية الإسلامية تتكون – إذن – من العقيدة والشريعة ، فالمعني الإسلامي يتكامل لدى المسلم بالعقيدة الصحيحة ، إذ تستقر في قلبه وبالشريعة يعمل بها ويطبق ما ورد فيها من عبادات ومعاملات وآداب وسلوك ، فالإيمان الصادق هو ما وقر في القلب وصدقه العمل .

غير أن عماد ذلك كله إنما هو العقيدة فهي الأساس الأول الذي لابد منه ، فإن تركزت العقيدة في القلب فإن صاحبها بذلك يكون مؤمنا ، وإن قصر في العمل فيما يتعلق بالشريعة ، غير أنه يكون قد ارتكب إثما بسبب تقصيره يعرضه لعقاب الله /تعالى/ إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ، أما إذا لم تتوفر العقيدة كاملة في يقينه وإدراكه فإنه لا يكون مسلما حتى لو أفنى عمره كله بالعبادة والطاعة [1] .

ذلك لأن الإنسان الذي لم يعتقد بوجود الله تعالى ، وما جاءت به الرسل – عليه الصلاة والسلام – من الأحكام ، ولم يعتقد بأن محمدا رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين ، هذا الإنسان فقد الأساس الذي تبنى عليه

---

(1) محمد البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص72 .

جميع الأحكام ، حيث إن تلك العبادات والطاعات جاءت في غير محلـــها ، وبذلك لا يعتد بها ، وتكـــون وكأنها غير موجودة ، مصداقا لقوله تعـــالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهـــم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطـت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزؤا [1]).

ثم انظر إلى الآيتين اللتين بعد الآيات السابقة تجد المولي ــ تبـــارك وتعالى ــ قد قرن الإيمان الذي هو العقيدة بـــالعمل الصـــالح الـــذي هـــو الشريعة ، بقوله تعالى : (إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات كـــانت لـــهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا [2]).

كما يقول الله / تعالى/ : (من عمل صالحا من ذكرا وأنثـــى وهـــو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون [3]).

ويقول /تبارك وتعالى/ : (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذيـــن آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر [4]).

---

(1) سورة الكهف : الآيات : 99 ــ 101 .

(2) سورة الكهف : الآيتان: 102-103.

(3) سورة النحل : الآية : 97 .

ويقول /تعالى/ : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فـــلا خـــوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كـــانوا يعملون [1]) .

من خلال الآيات الكريمة السابقة ــ وغيرها كثير ــ نتبين أن العقيـدة والشريعة ، أو الإيمان والعمل الصالح (الاستقامة) أمـــران متلازمـــان ، أمر الله /تعالى/ عباده بالتمسك بهما والعمل بمقتضاهما ، ولا يكون المـــرء مسلما حقا يستحق الجنة والرضوان ، وعدم الخوف والحـــزن ، والحيـــاة الطيبة الهانئة السعيدة إلا إذا آمن بقلبه إيمانا كاملا ، وعمل عملا صالحـــا يقربه من ربه .

ولا ينافى هذا مع ما ذكر سابقا من أن الإيمان القلبي هـــو الركـــيزة وعليه تدور جميع الأعمال الأخرى ، أقول لا ينـــافي ذلـــك لأن المؤمـــن بوجود الله تعالى، وبكل ما جاء به الرسول الأمين محمد/صلـــى الله عليـــه وسلم/ هو في الحقيقة مسلم ، وإن قصر في العمـــل بالصالحـــات ، وفـــي الكثير والغالب لا يقصر وبخاصة الذي تركز الإيمان في قلبه كمـــا هـــو مفروض ، وعلي فرض تقصيره فالله تعالى يقبل توبته ورجوعـــه إليـــه ،

---

(1) سورة العصر : كاملة .

(1) سورة الأحقاف : الآيتان 12 ــ 13 .

ويغفر له ذنوبه إن شاء يقول الله /تعالى/ : (إن الله لا يغفر أن يشرك بـــه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا [1]).

3 ـ الفرق بين العقيدة والشريعة .

إن الأحكام المأخوذة من الشرع قسمان :

أحدهما ما يقصد به نفس الاعتقاد ، كقولنا : الله /تعالى/ عالم قـــادر مريد سميع بصير ، وهذه تسمي اعتقادية وأصلية وعقـــائد ، وهـــذا هـــو موضوع علم التوحيد ، فقد دون هذا العلم لحفظها وبيانها وتفصيلها .

والثاني ما يقصد به العمل ، كقولنا : صلاة العشاء فرض ، وصـــلاة الوتر سنة ، وهذه تسمي عملية وفرعية ، وأحكاما ظاهرية ، وقد دون علـم الفقه لبيانها وشرحها [1] .

وبتعبير أوضح أن العقيدة تتعلق بأمر قلبي ، ومثال ذلك :

(الله واجب الوجود) ، (الله واحد) ، (الله متصف بكـــل صفـــات الكمـــال) ، (القرآن حق) ، (محمـــد رسول الله) ، (البعـــث حـــق) ، (الجنة والنار والصراط والميزان حق) ، (عذاب القبر ونعيمه حق) .

---

(1) سورة النساء الآية : 115 .

(1) انظر : الايجي : المواقف ج1 ص 25 .

فالتصديق بمثل هذه القضايا إنما هو تصديق بأمور اعتقادية إيمانيـــة نظرية تتعلق بالاعتقاد الذي محله القلب ، ودائرته الفكر والنظر .

وأما الشريعة فإنما تتعلق بكيفيات أعمال المكلفين ، ومثال ذلك :

(أكل الطيبات من الرزق حلال) ، (السرقة حـــرام) ، (شـــرب المسكـــرات حرام) ، (الصلاة واجبـــة) ، (صيام رمضان واجـــب) ، (صلاة العيدين سنة) ، ونحو ذلك .

إن الحكـــم في مثل هذه القضايـــا لا يتعلـــق بقلـــوب المكلفيـــن أو اعتقاداتهم ، إنما يتعلق بكيفيات أعمالهم .

فالحكم علي أكـــل الطيبات من الـــرزق بـــالحل ، وعلـــي الســـرقة بالحرمة ، وعلي شرب المسكرات بالحرمة ، وعلي الصـــلاة بـــالوجوب ، وعلي صيام رمضان بالوجوب وعلي صلاة العيدين بالسنية ، إنما هو حكم علي كيفيات لفعل وقع أو يقع من المكلفين بشريعة الإسلام .

وباختصار فإن موضوع العقيدة الإسلامية إنما هو اعتقاد المكلفيـــن ، أما موضوع الشريعة فإنما هو كيفية أعمال المكلفين[1] .

---

(1) د. محمد بيصار : *العقيدة والأخلاق* ص25 .

المبحث السابع

الإيمان والإسلام

المبحث السابع
الإيمان والإسلام

** أولا : الإيمان .

(أ) المعني اللغوي للإيمان :

بالرجوع إلي المعاجم اللغوية نجد أن الإيمان يستعمل عنـــد علمـــاء اللغة في معنيين :

ـ *الأول :* التأمين وإعطاء الأمان ، وبهذا المعنـــــي يكـــون ضـــد الإخافة ، يقول الله /تعالى/ : (لإيلف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيـف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنـــهم مـــن خـــوف[1]) ويكون بهذا المعني اسما من أسماء الله تعالى ،.

يقول المولي / تبارك وتعالى/ : (السلام المؤمن المـــهيمن العزيـــز الجبار المتكبر[2]) . وذلك لأن الله ــ تقدست أسماؤه ــ أمن الناس مـن أن يقع عليهم ظلم .

---

(1) *سورة قريش : كاملة .*

(2) *سورة الحشر : جزء من الآية رقم 17 .*

ـ ***الثاني :*** التصديق ، أي اعتقاد الصدق ، ومحلـــه القلـــب ، يقـــول الله /تعالى/ (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين [1]) أي بمصدق لنا .

ومن المحققين في اللغة من قال : الإيمان أصله في اللغة هو المعنـــي الأول ، وأما التصديق فإنما سمي إيمانا لأن المتكلـــم يخـــاف أن يكذبـــه السامع ، فإذا صدقه فقد أزال ذلك الخوف عنه ، وعليه ســـمي التصديـــق إيمانا [2].

والإيمان من حيث اللغة يتعدى باللام ، كما في قوله /تعالى/ : (وما أنت بمؤمـــن لنا [3]) ، أي بمصدق لنا ، ويتعدى بالباء ، كمـــا في قولـــه ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (الإيمان أن تؤمن بـــالله وملائكتـــه وكتبـــه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره [4]) أي تصدق وتعتقـــد بقلبك بجميع ما ذكر في الحديث الشريف .

---

(1) *سورة يوسف عليه السلام : جزء من الآية رقم 17 .*

(2) *انظر : الرازى : شرح أسماء الله الحسنى ص189 .*

(3) *سورة يوسف عليه السلام : جزء من الآية رقم 17 .*

(4) *جزء من حديث الإيمان والإسلام وقد رواه الخمسة: انظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول . منصور علي ناصف ج1 ص25 .*
- انظر : الرازى محصل أفكار المتقدمين ص174 ، وكذلك القسطلانى ج1 ص 100 ـ 101 .

(ب) حقيقة الإيمان الإصطلاحية :

للعلماء في حقيقة الإيمان آراء مختلفة ووجهات نظر متباينة ، نذكـر منها ثلاثة فقط ، ولا نتعرض لبقية الآراء الأخرى لأنها قد تكون داخلة في أحد الآراء الثلاثة وهذه هي :

ـ ***الأول :*** الإيمان هو التصديـــق القلبـــي ، وهـــو رأى جمـــهور الأشاعرة ، ومن نحا نحوهم .

ـ ***الثاني :*** الإيمان هو التصديق والإقرار ، وهو رأى الإمام أبـــي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ ومن وافقه .

ـ ***الثالث :*** الإيمان هو التصديق والإقرار بالشـــهادتين والعمـــل ، وهو رأى الخوارج والمعتزلة والفقهاء والمحدثين [1] .

وهذه الآراء تحتاج إلي البيان والشرح والتفصيل حتى يتضح المـــراد بكل منها :

---

(1) *انظر : الرازي محصل أفكار المتقدميـــن ص. 174 ، وكنلـــك القســـطلاني ج1 ص. 100 ـ 101 .*

** أولا رأى علماء الأشاعرة ومن وافقهم :

الإيمان في نظر هؤلاء هو تصديق نبينا محمد /عليه الصلاة والسلام/ في كل ما علم من الدين بالضرورة ، والمراد بالتصديق الإذعان والرضي والقبول والارتياح النفسي لهذه العقيدة .

يقول الله /تعالى/ : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما [1]) .

وعلي هذا لا يكفي وقوع نسبة الصدق من غير إذعان ، ولا رضي وتسليم ، ذلك لأن كثيرا من الناس تحصل لهم معرفة بدون إذعان وتسليم ، فهم غير مؤمنين ، كما حصل من اليهود الذين قال الله /تعالى/ عنهم : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون [2]) .

ومعنى التصديق بكل ما علم مجيئه من الدين بالضرورة ، أي ما اشتهر وصار العلم به يشبه العلم الضروري لشهرته . ومثال المعلوم من الدين بالضرورة : وحدانية الباري /عز وجل/ وإرسال الرسل ، والملائكة ، ووجوب الصلاة ، وحرمة الزنا ، ونحو ذلك .

---

(1) سورة النساء : الآية 145 .

(2) سورة البقرة : الآية 145 .

ويجب التصديق الإجمالي فيما يعتبر الإجمال فيه ، كالإيمان بـــأن الله /تعالى/ رسلا مبشرين ومنذرين ، وبأن له ملائكة مطهرين ...الخ .

ويجب التصديق التفصيلي فيما كلفنا بمعرفته تفصيـــــلا ، كالإيمـــان بالرسل الوارد ذكرهم في القرآن الكريم ، بحيث لو عـــرض علي المكلـف ـ مثلا ـ اسم واحد من المذكورين لا ينكره ويصدق به .

أما الإقرار بالشهادتين فهو شرط في إجراء الأحكام الدنيويـــة علـــي الإنسان ، لأن التصديق أمر باطني لا يمكن لأحد الإطلاع عليه إلا العـــالم بما تخفي الصدور / سبحانه وتعالى/ .

إذن فكيف يعرف إيمانه ؟ يعرف ذلك بعلامة تدل علي أنـــه مؤمـــن ليعامل معاملة المؤمنين ، كإقراره بالشهادتين نطقا للقادر عليه فمن صـــدق بقلبه ، ولم يقر بلسانه لا لعذر منه ولا لإباء فهو مؤمن عند الله تعالى غـير مؤمن في الأحكام الدنيوية .

** ***أدلة أصحاب الرأي الأول :***

استدل الأشاعرة ومن سار علي نهجهم بأن الإيمان هو التصديـــق بما يلي :

1 ـ يقول الله /تعالى/ : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان [1]) .

---

(1) *سورة النحل : جزء من الآية رقم 106 .*

ويقول /تعالى / : (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان [1])

ويقول /تعالى/ : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكـــن قولـوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم [2]).

ومن دعائـــه / صلى الله عليه وسلم / : (اللهم ثبـــت قلبـــي علـــي دينك [3]) .

فهذه النصوص الكريمة تدل دلالة واضحة علي أن محل الإيمان إنما هو القلب ، ولا يحل في القلب إلا التصديق ، أما الأعمال الظاهرة فمحلـــها الجوارح .

ويؤيد ذلك قوله/ صلى الله عليه وسلم / لأسامة بن زيد ، وقد قتـــل من قال : لا إله إلا الله (هلا شققت قلبه [4]).

وإذا ثبت أن الإيمان هو فعل القلب وجب أن يكـــون عبـــارة عـــن التصديق الذي من ضرورته المعرفة ، وذلك لأن الشـــارع الحكيـــم إنمـــا يخاطب العرب بلغتهم ليفهموا ما هو المقصود بالخطاب ، فلو كـــان لفـــظ

---

(1) سورة المجادلة جزء من الآية رقم 22 .

(2) سورة الحجرات جزء من الآية رقم 14 .

(3) سند الإمام احمد ج2 ص 4-8 .

(4) صحيح مسلم كتاب الإيمان الحديث رقم 158 .

الإيمـــان في الشرع مغيرا عن وضع اللغة لتبين للأمـــــة نقلـــه وتغيـــيره بالتوقيف ، كما تبين نقل الصلاة والزكاة وأمثالهما ، ولا شـــــتهر اشـــتهار نظائره ، بل كان هو بذلك أولي [1] .

وعلي هذا فقد جاء دليلهم الثاني وهو :

2 ــ أن الإيمان في اللغة هو التصديق ، ولا دليل علي نقله إلـــي معان أخرى كالإقرار والعمل .

3 ــ أن الكفر ضد الإيمان ، والكفر هو الجحود ، ومحل الجحود القلب فضده وهو الإيمان محله القلب ، لأن الضدين يتواردان علي محـــل واحد ، وليس فيما ذكر دليل علي إقـــرار أو عمـــل ، فالإيمـــان ــ إذن ــ محله القلب وهو التصديق .

4 ــ يقـــول الله /تعـــالى/ : (إلا مـــن أكـــره وقلبـــه مطمئـــن بالإيمان[2]) . تفيد هذه الآية الكريمة أن انعدام الإقرار لا يوجـــب ســـلب الإيمان ، وذلك لأن الإقرار ليس داخلا في مفهوم الإيمان .

5 ــ عطـــف العمـــل على الإيمـــان في مثـــل قولـــه تعـــالى : ((إن الذيـــن آمنـــوا وعملوا الصالحـــات كانت لهـــم جنـــات الفـــردوس

---

(1) عضد الدين الايجي: المواقف ج2 ص593 .

(2) سورة النحل، جزء من الآية رقم 106 .

نـــزلا [1]) والعطف بالواو يقتضي المغايرة ، فإذن الإيمان شـــئ ، والعمل شئ آخر [2] .

6 ــ الأمر بالعمل بعد إثبات الإيمان ، يقول الله /تعـــــــالى/ : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب علي الذيـــن مـــن قبلكـــم لعلكم تتقون [3])

7 ــ اجتماع الإيمان مع المعاصي ، يقول الله تعـــالى: (الذيـــن أمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم [4]) . ووجه الاستدلال بـــهذه الآيـــة علـــي أساس أن الظلم المراد به هنا المعصية غير الشرك بالله / تعالى/ .

8 ــ الإيمان شـــرط في صحـــة الأعمـــال ، والشـــرط يغـــاير المشروط ، يقول الله /تعالى/ (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فـــلا كفران لسعيه [5]) .

---

(1) سورة الكهف الآية رقم 102 .

(2) انظر : علم التوحيد. خضر جلال الدين ص119 .

(3) سورة البقرة. الآية رقم 182 .

(4) سورة الأنعام : جزء من الآية رقم 83 .

(5) سورة الأنبياء : جزء من الآية رقم 93 .

9 ـ اقتصار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيان الإيمان عند سؤال جبريل ـ عليه السلام ـ له عنه علي التصديق دليل علي أن العمل ليس داخلا في مفهوم الإيمان ، ولو كان العمل أو الإقرار داخلا في مفهومه لكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقصرا في الجواب ، وكان سؤال جبريل تلبيسا علي الناس في أمر دينهم وكل منهما ـ بكل يقين ـ ليس واردا .

** *أدلة أصحاب الرأي الثاني :*

وهو الرأي القائل بأن الإيمان هو التصديق مع الإقرار :

يرى أبو حنيفة -رحمه الله تعالى- أن الإيمان شرعا هو التصديق مع الإقرار ، فهو اسم لعملي القلب واللسان ، فالإقرار جزء من حقيقة الإيمان ، فمن لم يقر في عمره وهو قادر عليه ، ولو مرة واحدة لم يحكم بإيمانه لا في الدنيا ولا في الآخرة .

والدليل علي ذلك عنده هو قوله /صلى الله عليه وسلم / : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علي الله)[1] .

---

(1) مسند الإمام أحمد، جـ4 : 8 .

فقد فهم أبو حنيفة ــ رحمه الله تعالى ــ ومن وافقه من هذا الحديث أن الإقرار داخل في حقيقة الإيمان .

وقد أجاب علماء الأشاعرة عن هذا الحديث بأن معناه أن قول لا إله إلا الله شرط لإجراء أحكام الإسلام في الدنيا حيث رتب فيه على القول عصمة الدم والمال دون النجاة في الآخرة ، لأنه لا أثر لعمل اللسان في الآخرة ، قال الله /تعالى/ : ((من كفر بالله من بعد إيمانه ألا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)) [1] .

وقال /تعالى/ : ((إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا)) [2] . فقد أثبتت هاتان الآيتان ــ ونحوهما ــ أنه لا أثر لعمل اللسان في الآخرة ما لم يكن ناشئا عن العقيدة الصحيحة النابعة من القلب .

** ***أدلة أصحاب الرأي الثالث :***

وهو الرأي القائل بأن الإيمان هو التصديق والإقرار بالشهادتين والعمل :

يرى الخوارج أن التصديق والنطق بالشهادتين ، والعمل بالجوارح هي أجزاء للإيمان في مرتبة واحدة ، فمن فقد جزءا منها فهو ليس مؤمنا.

---

(1) سورة النحل جزء من الآية رقم 106 .

(2) سورة النساء الآية رقم 144 .

وأما المعتزلة فيقولون إن من فقد التصديق أو النطق فهو كافر ، ومن فقد العمل فهو غير مؤمن وغير كافر ، بل في منزلة بين المنزلتين ، وهو مخلد في النار – في رأيهم – ويسمى فاسقا ، ويفسرون ذلك بأن الإيمان عبارة عن خصال من الخير سمى المرء بسببها مؤمنا ، والفاسق لم يستجمع هذه الخصال فلا يسمى مؤمنا ، وليس بكافر لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه ، لكنه إذا ارتكب كبيرة في الدنيا ومات بدون توبة فهو مخلد في النار ، ولا مانع من إطلاق اسم المسلم عليه تمييزا له عن الذمي [1] .

وقد استدلوا علي ما ذهبوا إليه بما يأتي :

1 – الحكم على العاصي بالخلود في النار ، والمؤمن لا يخلد فيه . لقوله /تعالى/ : ((ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ندخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين [2])).

ويقول /تعالى/ – أيضا – : ((ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما [3])) .

---

(1) دراسات في الحديث النبوي . السيد محمد الحكيم ص119 – 120 .

(2) سورة النساء الآية رقم 14 .

(3) سورة النساء الآية رقم 92 .

وقد رد أهل السنة علي الخوارج في استدلالهم بهذه الآيات الكريمة بقولهم : إن المراد من المعصية الشرك بالله /تعالى/ ، والمراد بالقتل استحلاله ، أو المراد من الخلود المكث الطويل في النار .

2 ـ الدليل الثاني عندهم انتفاء الإيمان لوجود المعصية بدليل قوله /صلى الله عليه وسلم/ : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن [1]) .

فقد فسروا الحديث بظاهره ، وكفروا مرتكب الكبيرة عامدا عالما بالتحريم ، ولما كان هذا الظاهر معارضا بأحاديث أخري صحيحة ، كالذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة) قال أبو ذر وان زني وان سرق ، قال رسول الله وان زني وان سرق ، قلت وإن زني وإن سرق ، قال وإن زني وإن سرق ، ثم قال في الرابعة علي رغم أنف أبي ذر [2] .

قلت لما كان الظاهر معارضا بمثل ما ذكر من الأحاديث الصحيحة ، أول أهل السنة الحديث الذي استدل به الخوارج بعدة

---

(1) *سنن ابن ماجة الفتن : 3*

(2) *صحيح البخاري . الجنائز : 1*

تأويلات ، منها : أن المراد بالإيمان المنفى الإيمان الكامل ، فلفظ وهو مؤمن مراد منه : وهو كامل الإيمان . ومنها : أن المراد بالإيمان الحياء ، فقد ورد : (الحياء شعبة من الإيمان[1]) من إطلاق الكل وإرادة الجزء ، والمعنى لا يزني الزاني حين يزني وهو مستحى إذ لو استحيا من الله تعالى حق الحياء ، واعتقد اعتقادا جازما بأنه حاضر مشاهد لحاله لم يرتكب هذا الفعل القبيح .

ومنها : أنه من باب التغليظ والتشديد والزجر ، يعني أن هذه الخصال ليست من أفعال المؤمنين لأنها منافية لحالهم ، فلا ينبغي أن يتصفوا بها ، بل هي من صفات الكافرين ، كقوله /تعالى/ : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين[2]) أي ومن تشبه بالكفار فلم يحج .

ومنها : أن فاعل ذلك يؤول أمره إلي ذهاب الإيمان ، ويؤيده ما رواه ابن حبان مرفوعا : (إن الخمر لا تجتمع هي والإيمان إلا وأوشك أحدهما أن يخرج صاحبه [3]) . ومنها : أن المراد من فعل ذلك مستحلا له ، أي لا يزني الزاني مستحلا زناه حين

---

(1) صحيح البخاري . الإيمان : 16 .

(2) سورة آل عمران . الآية رقم 97 .

(3) الحديث في شرح الحديث . د . موسى شاهين لاشين جـ4 ص 102 .

يزني وهو مؤمن[1] .

أما الفقهاء والمحدثون فيرون أن هذه الأجزاء ليست في مرتبة واحدة ، فإذا انعدم التصديق انعدم الإيمان المستتبع للنجاة في الآخرة ، وإذا انعدم الإقرار انعدم الإيمان المبنى عليه الأحكام الدنيوية ، وإذا انعدم العمل انعدم كمال الإيمان ، لأن فقد العمل كفقد اليد من إنسان ، فكما أن اليد لا ينعدم الإنسان بانعدامها ، بل يكون ناقصا لبعض أطرافه فكذلك العمل ، يقول الله / تعالى / : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون[2]) .

بالنظر في كل تلك الآراء والتأويلات في مسألة الإيمان وما يتبعه من آثار نرى أن ما ذهب إليه الأشاعرة هو الرأي الأولى والأصوب ، وذلك لأن أدلته قوية ، ومبناه سليم ، وتأويلاته مقبولة ومتمشية مع النقل والعقل .

---

(1) فتح المنعم شرح صحيح مسلم. د . موسى شاهين لاشين جـ1 ص 337 .

(2) سورة المؤمنون. الآيات من رقم 1 ــ 11 .

وقد استند الإمام الأشعرى ــ رحمه الله تعالى ــ في تفسيره للآيات الكريمة التي استدل بها والتي استدل بها غيره ورد عليها ، قد استند في هذا على رأى علماء اللغة والبيان لأنهم هم الذين يستطيعون تفسيرها على وجهها المطلوب ، إذ أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب .

يقول الأشعرى في باب الكلام في الإيمان : (إن قال قائل : ما الإيمان عندكم بالله تعالى ؟ قيل له : هو التصديق ، وعلى ذلك اجتماع اهل اللغة التى نزل بها القرآن ، قال الله /تعالى/ : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم [1]).

وقال /تعالى/ : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين [2]).

فلما كان الإيمان في اللغة التي أنزل الله تعالى بها القرآن هو التصديق قال الله /تعالى/ : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين [3]) أي بمصدق لنا ، وقالوا جميعا : (فلان يؤمن بعذاب القبر والشفاعة يريدون : يصدق بذلك) وجب أن يكون الإيمان هو ما كان عند أهل اللغة إيمانا ، وهو التصديق . فإن قال قائل : فحدثونا عن الفاسق من أهل القبلة

---

(1) سورة ابراهيم جزء من الآية رقم 5 .

(2) سورة الشعراء الآيات من رقم 193 ــ 195 .

(3) سورة يوسف جزء من الآية رقم 17 .

أمؤمن هو ؟ قيل له : نعم مؤمن بإيمانه فاسق بفسقه وكبيرته ؛ وقد أجمع أهل اللغة أن من كان منه ضرب فهو ضارب ، ومن كان منه قتل فهو قاتل ، ومن كان منه كفر فهو كافر ، ومن كان منه فسق فهو فاسق ، ومن كان منه تصديق فهو مصدق ، وكذلك من كان منه الإيمان فهو مؤمن ، ولو كان الفاسق لا مؤمنا ولا كافرا لم يكن منه كفر ولا إيمان ، ولكان لا موحدا ولا ملحدا ، ولا وليا ولا عدوا ، فلما استحال ذلك استحال أن يكون الفاسق لا مؤمنا ولا كافرا ــ كما قالت المعتزلة ــ .. إلي أن يقول : ومنهم أهل استقامة ــ ويقصد بذلك أهل السنة والجماعة ــ يقولون : هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته [1] .

ومن هنا فإن ما ذهب إليه الإمام الأشعرى من تفسير الإيمان بالتصديق يعتبر رأيا صائبا وموفقا إلي حد كبير ، فقد توسط فيه بين آراء متعددة ووجهات نظر مختلفة ، ويرى الأشعرى أن كثيرا من الآراء تتنافى مع العقل والشرع ، فقد فرق الشرع بين من أقر وقصر ، وبين من جحد وكذب ، فوصف الأول بأنه مؤمن مع تقصيره ، وسمى الثاني كافرا مهما جرى من العمل الصالح على يديه .

فليس من شك في أن قتال المؤمن للمؤمن كبيرة في نظر الشرع ، ومع ذلك فقد سمى الشرع من فعلها مؤمنا ، يقول الله تعالى : (وإن

---

(1) الأشعرى : كتاب اللمع . ص 123 ــ 125 .

طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين [1]).

كذلك فإن الشرع الحكيم لم يسو في الحكم بين الكبيرة والإشراك حيث نفى المغفرة عن المشرك وأثبتها لغيره في قوله تعالى ـ جلت حكمته ـ : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا [2]) .

وليس المقصود بها الصغائر ـ قطعا ـ لأنها مغفورة بدليل قوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما [3]).

وعلى ذلك فالمؤمن الذي يعصى ربه بترك فرض ، أو ارتكب كبيرة لا يسمى في نظر الشرع كافرا ـ كما يقول الخوارج ـ ، ولا يسلب عنه اسم الإيمان ـ كما يقول المعتزلة ـ ، ولا يخلد في النار كالكافر ، لأن الله قد فرق بين النوعين حكما .

---

(1) سورة الحجرات الآية رقم 9 .

(2) سورة النساء الآية رقم 115 .

(3) سورة النساء الآية رقم 31 .

أما منافـــاة ذلك للعقل فإن جريمة الذنب ليست كجريمة الكفـــر ـ قطعا ـ فإن من يثق بالله /تعالى/ ويتهاون فيما فرضه عليه ، أو يرتكـــب شيئا حرمه عليه مغلوبا علي أمره بكسله وشهوته ليس مثل الذي كفر بـــالله /تعالى/ وهزأ برسوله / صلى الله عليه وسلم / ، ففي الأول بصيص النـور واحتمال العـــود إلي الخير ، وفي الثاني ظلمة الكفـــر ، والعـــزوف عـــن الهداية ، مع ما فيه من العتو والاستكبار ، وعدم اليقين بوجود مـــن هـــو أقوي منه سلطانا ، وأعظم اقتدارا .

وليس من شك في أن رأى المعتزلة والخوارج معا ما يملأ قلـــوب العباد يأسا وقنوطا ، فإن من قضي حياته طائعا ، ثم هزم عقله ودينه أمـــام شهوته مرة واحدة ، ولم يجد فرصة للتوبة ، بل مات عقب ذلك مباشـــرة ، فهو علي رأيهم في النار أبدا ، وليس ذلك هو الدين الذي يملأ القلب رجـــاء ومغفرة وخوفا وعقابا . يقول الله / تعالى / : (وان ربك لذو مغفرة للنـــاس علي ظلمهم وان ربك لشديد العقاب [1]) .

إن الإمام الاشعرى قد أصاب الحقيقة عندما يقرر أن الإيمان هـــو الاعتقاد الجازم بكل ما ثبت مجيئه بالضرورة من عند الله / تعالى / علـــي لسان رسوله / صلى الله عليه وسلم / مع الرضي بهذه العقيـــدة والتســـليم والارتياح لها .

---

(1) سورة الرعد : جزء من الآية رقم 7 .

أما الإقرار باللسان فليس جزءا من الإيمان ، وإن كان ضروريـــا لإجراء الأحكام الدنيوية .

أما العمل فمن أدى الفرائض ، واجتنب الكبائر وفعل الصغائر فـهو من الناجين ، ومن أدى الفرائض وارتكب الكبائر ثم تاب عنها كـــان مـــن أولئك الذين يتمتعون بعفو الله عنهم . وأما من لـــم يـؤد الفرائـض ، أو ارتكب الكبائر ولم يتب فإنما أمره إلي الله/ تعالى/ إن شـــاء عذبـــه ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يخلد في النار .

وهذا هو ما يناسب رحمة الله ــ جلت حكمته ــ ولطفه بعبـــاده ، ويسر الإسلام وسماحته ، ووسطيته حيث لا تفريط فـــي الواجبـــات ، ولا إفراط في الشدة . وما يناسب – كذلك – كرم الله لعباده ، فمن شأن الكريـم إنجاز الوعد وخلف الوعيد ، والله / تعالى/ هو أكرم الأكرمين .

وقد أورد مؤلـف كتاب (أبـــو الحســـن الأشـــعرى) اعترضـــا مفترضا ، ثم أجاب عنه ، يقول : (ولكن أليس لقائل أن يقول : سلمنا بـــأن الأعمال ليست جزءا من الإيمان لأنه تصديق وإذعان ، ولكننـــا لا نســـلم صدور الأعمال الشريرة من ذلك العبد المؤمن ، فإن الإيمان الحق يســـتلزم أن نعمل صالحا ، وإلا فأي عاقل يقدم علي المعصية في الوقت الذي يوقـن بضررها البالغ حدا كبيرا في الإيلام والشـــقاوة فـــي الدنيـــا والآخـــرة ، فالأعمال ليست جزءا من الإيمان ، ولكنها أثر للإيمان في الخارج ، ودليـل

علـى وجـوده في النفس ، ولعل ذلك يقــرب من قــول : (سـقراط[1] قديمـا (الفضيلة المعرفة) . فإن المعرفة بالفضيلة معرفة يقينية يحمل على إتيانها ، ولا يعرض الإنسان عن عمل ما إلا إذا شك في قيمته أو فائدته ؟! .

وإجابتنا علي هذا الاعتراض ــ الذي لا شــك فــي وجاهتــه ــ نستلهمها من علم النفس الحديث ، فهو يقول بإمكان تزاحم حالين نفســيين علي الخاطر يكون أحدهما قويا متسلطا ، ويكون الآخر ضعيفا مغلوبــا ، وفي ضوء ذلك يمكن تفسير صدور المعصية عن العبد مع وجود الإيمــان فيه فإن الإنسان إذا كان مؤمنا وتعرض لإغراء المعصية فإنه يتزاحم علـي خاطره حالان : الإيمان القديم والرغبة الناشئة عن هذا الإغــراء ، فــإذا غلب الإيمان ارتدت الرغبة الآثمة إلى منطقــة الشــعور غــير الواعــي وانتصرت الفضيلة ، وإذا كان العكس ارتد الإيمان إلي هذا المكــان مــن الإنسان ، وبقيت الشهوة وحدها فتحركه إلي الشر والرذيلة حتى يعــرض للإيمان من القوة ما يدفعه إلي هزيمة الشهوة واحتلال مكانها مــن جديــد فيكف عن هذا الطريق .

(1) سقراط فيلسوف يوناني ولد بأثينا عام 469 ق. م وتوفي عام 399 ق . م وكــان يهتم بالمسائل العملية التي تهم الإنسان ، وقد دعا إلى الاتحاد التام بين العمل والفكــر. انظر : د. عوض الله حجازي . في الفلسفة الإسلامية ص43 . وكذلك : حنا الفاخوري وزميله . تاريخ الفلسفة العربية ص 36/ 37 .

وإذن فلا مانع من أن يوجد الذنب مع الإيمان ، كما يوجـــد الفعـــل الضار من الإنسان مع إيمانه بضره في بعض الأحيان . ولعل هذا يفســـر قول الرســـول عليه الصلاة والسلام : (لا يزني الزاني حين يزني وهـــو مؤمن [1]) الذي تقدم ذكره .

(ج) زيادة الإيمان ونقصه :

للعلماء في هذه المسالة عدة آراء يمكن إجمالها فيما يلي :

ـ ***أولا :*** يرى الأشاعرة أن الإيمان يزيد وينقص ، فزيادة الطاعـــة والمواظبة عليها تزيد الإيمان وتقويه ، ونقصها ينقص الإيمان .

ومعني ذلك أن المؤمن إذا كان تقيا نقيا محافظا علي أوامـــر الله / تعالى / مجتنبا لنواهيه ، فإن إيمانه ـ بدون شك ـ سيزيد ويقوى . وأمـــا من خالف أوامر الله / تعالى / ، وارتكب المعاصي والذنوب فإن إيمانـــه ـ بـــدون شك أيضا ـ سينقص ويضعف .

وقد استدل الأشاعرة علي رأيهم هذا بالعقل والنقل :

" أ " ـ أما العقل فهو لو لم تتفاوت حقيقـــة الإيمـــان بالزيـــادة والنقصان لكان إيمان آحاد الأمة ـ وبخاصـــة منـــهم المرتكبيـــن للفســـق

---

(1) محمد عرابة : أبو الحسن الأشعرى ص 179-180 .

والمعاصي ــ مساويا لإيمــان الأنبياء والأولياء والصالحيــن لكن التــالي ــ وهو المساواة ــ باطل ، فالمقدم ــ وهو عدم التفاوت ــ باطل ، وثبــت المطلوب ، وهو التفاوت في حقيقة الإيمان .

" ب " ــ وأما النقل فقوله /تعالى/: (وإذا تليــت عليــهم آياتــه زادتهم إيمانا [1]) ، وقوله / تعالى/ : (هو الذي أنــزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم [1])

وقوله / تعالى / : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعــوا لكــم فاخشوهم فزادهم أيمانا [2]) وقــول رسول الله / صلى الله عليه وسلم / : (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح [3]) فقــد دلــت الآيــات الكريمة ، والحديث النبوي الشريف علي زيادة الإيمان ، وكــل مــا يقبــل الزيادة يقبل النقص علي كل حال .

---

(1) سورة الأنفال : جزء من الآية رقم 2 .

(1) سورة الفتح : جزء من الآية رقم 4 .

(2) سورة آل عمران: جزء من الآية رقم 173 .

(3) مسند الامام احمد. ج4 ص63 .

وقوله / عليه الصلاة والسلام / لابن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ حين سأله : هل الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه للنار [4])

ـ ***ثانيا :*** يذهب الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ ومن وافقه إلي أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، والدليل على ذلك ـ عنده ـ أن الإيمان اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان ، وهذا لا يتصور فيه زيادة ، لأنه ليست هناك درجة أعلى من درجة الجزم والإذعان ، ولا يتصور فيه نقص ـ كذلك ـ لأن الجزم إذا نقص كان ظنا أو شكا فينتفي الإيمان .

وقد أجاب أصحاب هذا الرأي عما تمسك به الأشاعرة فقالوا إن الزيادة المفهومة من الآيات الكريمة بحسب ما يؤمن به ، لأن الدين الإسلامي الحنيف لم ينزل دفعة واحدة ، بل نزل في فترات متعددة ، وكلما نزل شئ من القرآن الكريم آمنوا به .

إذن فالآيات ـ المستدل بها ـ تحكى حال الصحابة ـ رضى الله عنهم جميعا ـ حين كانوا يتلقون من الرسول / صلى الله عليه وسلم / كل شئ يأتي به الوحي .

---

(4) صحيح البخاري : الايمان : 33 .

وأما الزيادة المفهومة من الحديث الشريف فالمراد من الإيمان فيه هو العمل ، وقد أطلق الله الإيمان على العمل في قوله / تعالى / : ((وما كان الله ليضيع إيمانكم))[1] .

ـ ثالثا : ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن جماعة من العلماء أن الخلاف في هذه المسألة لفظي لا حقيقي ، لأن من يقول بالتفاوت قصد التفاوت في الإيمان بحسب ما به كماله ، وهو الأعمال ؛ ومن قال بعدم التفاوت قصد أصل الإيمان وهو التصديق [2] .

والأجدر بالقبول هو أن الخلاف بين العلماء في هذه المسألة حقيقي وليس لفظي ، وأن الأرجح من تلك الآراء هو الرأي الأول ، أي رأى الأشاعرة الذي يقول بالزيادة والنقص ، سواء أكان الإيمان اسما للتصديق فقط ، أم اسما للتصديق مع العمل ، وأن الزيادة والنقص يقعان في الأعمال وفي التصديق .

أما الأعمال فالأمر فيها واضح ، ولا يحتاج إلى كثرة بيان ، إذ أن الإيمان يزيد بكثرة الطاعات ، وينقص بالمعاصي والآثام ، وأما في التصديق فكما استدل به أصحاب الرأي الأول ، ويمكن تصور الزيادة والنقص في التصديق من جهات ثلاث :

---

(1) سورة البقرة : جزء من الآية رقم 33 .

(2) انظر : الرازي. محصل أفكار المتقدمين ص 175 .

"أ" ـ من جهة وسيلته ، وهي الأدلة التي يستدل بـــها علـــي صحة المعتقد ووجوب التصديق به .

"ب" ـ من جهة متعلقه وموضوعه ، وهو المصـــدق بـــه أو المعتقد فيه .

"ج" ـ من جهة ثمرته ، وهي العمل .

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا – قبل الدخول في شرح هذه الجـــهات الثلاث –هو أن المقصود بقبول الإيمان للنقص ـ في رأي من يقول بـــه ـ أنه لا ينقص عن حد أدني هو القدر الذي لابد منه في تحقق أصل الإيمـــان ، وإنما المقصود هو النقص من الزيادة ، لا النقص من القدر الضـــروري لتحقق إيمان المؤمن .

نعود لشرح تلك الجهات الثلاث ، فنقول : من المعلوم أنه كلما كـــان الدليل أوضح حجية ، وأقرب إلى البديهة ، وأبعد عـــن الشـــبهة ، وكلمـــا كثرت الشواهد وتعددت البراهين كان المعتقد أشد رسوخا فـــي النفـــس ، وأعمق أثرا في القلب ، وأكثر إقناعا للعقل .

وكلما تحقق ذلك كان الإيمان أقوى وأرسخ ، وأقدر علـــي مقاومـــة الهزات النفسية ، والصمود أمام المشاكل المثارة .

ويشهد لذلك قوله / تعالى/ : (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلي ولكن ليطمئن قلبي [1]). واطمئنان القلب معناه سكونه وهدوؤه .

ومحل الشاهد في الآية هو النظر لتقوية الإيمان ، فإبراهيم الخليل / عليه الصلاة والسلام / مؤمن بالله ومصدق بإحياء الله الموتى ، ولكن أراد أن يشاهد ذلك بعينه ، لأن النظر أقوى وأصدق برهانا من السمع ، ومن سمع شيئا ويمكنه أن يراه لاشك أنه يبقى متشوقا لرؤيته فإذا شاهده بعينه اطمأن له قلبه وآمن به ، فلا يطلب بعد ذلك البيان بيانا [2].

هذا فيما يتعلق بجهة الدليل ، أما من جهة الموضوع ، وهى القضايا المصدق بها فقد يقع التصديق بهذه القضايا على وجه إجمالي ، وقد يقع على وجه تفصيلي .

ولاشك أنه إذا وقع على وجه تفصيلي يكون أزيد وأرسخ وأشد يقينا من الإيمان به مجملا .

وتستطيع أن تقارن بين تصديقين :

أحدهما التصديق برسالة سيدنا محمد / عليه الصلاة والسلام / لمجرد العلم بأمانته فيما يبلغ عن ربه ، وقيام المعجزة الدالة على صدقه .

---

(1) سورة البقرة: جزء من الآية رقم 259 .

(2) انظر : ابن باديس. العقائد الإسلامية ص 58 .

وثانيهما التصديق برسالة سيدنا محمد / عليه الصلاة والسلام / لهذه الشواهد ، وللوقوف فوق ذلك علي تفاصيل رسالته ، والعلم بمبادئها ، وبيان ما بها من سمو وتفوق .

بهذه المقارنة – بين الإجمال والتفصيل – يتبين لك أن النوع الثاني من التصديق أكثر يقينا لما فيه من كثرة المعلومات ، وزيادة البيان حتى صار أكثر وضوحا وأبعد عن الشبهة . وبهذا تعلم أن هذا النوع فيه زيادة عن التصديق الأول بكل تأكيد .

أما من جهة ثمرة الإيمان التي هي العمل ، فإن العقيدة التي يقارنها العمل والطاعة والخلق الطيب دائما تكون في ازدياد ومواظبة على فعل الخير ، والعكس صحيح بالنسبة للعقيدة التي تهاون الإنسان بمقتضاها فإنها تكون في نقصان مستمر. فالاعتقاد – إذن – يخبو ويطمس بالمعصية شيئا فشيئا ، ولكنه بالطاعة والمواظبة على العبادة يزكو وينمو[1] .

يقول الإمام الغزالى : (إن المواظبة على الطاعات لها تأثير في تأكيد طمأنينة النفس إلى الاعتقاد التقليدي ورسوخه في النفس ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من سبر " يعني اختبر " أحوال نفسه وراقبها في وقت المواظبة علي الطاعة وفي وقت الفترة ، ولاحظ تفاوت الحال في باطنه فانه يزداد - بسبب المواظبة علي العمل - أنسه لمعتقداته ويتأكد به طمأنينته .. إلي أن يقول : فإن من يعتقد الرحمة في قلبه علي يتيم فإن

---

[1] انظر د. محمد بيسار . العقيدة والأخلاق. ص 91 - 93 .

أقدم علي مسح رأسه وتفقد أمره صادف في قلبه عنـــد ممارســة العمـل بموجب الرحمة زيادة تأكيد في الرحمة ... وكذلك تعبدنا (أي الله تعـالى) بالمواظبة على أفعال هي مقتضى تعظيم القلب من الركوع والسجود ليزداد بسببها تعظيم القلوب [1] .

ثم إن الغزالى يقسم الإيمان إلى ثلاث مراتب ، هي :

1 ــ إيمان العوام ، وهو المبنى على التقليد المحض ، ويســـميه التصديق التقليدي .

2 ــ إيمان المتكلمين ، ويطلق عليه التصديق البرهاني .

3 ــ إيمان العارفين ، وهو المشاهدة بنور اليقين ، ويسميه العمل مع التصديق .

ويمثل الغزالى للنوع الأول بإيمان من يسمع أن فـــي الـــدار رجـــلا فيصدق بوجوده ، وللثاني بمن يسمع صوت الرجل فيصدق به ، وللثـــالث بمن يدخل الدار ويري الرجل بعينيه .

والمرتبة الأولى يمكن فيها خطأ المؤمنين فيمـــا ســـمعوه ، ولـــهذا يضعهم الغزالى في أول مراتب أصحاب اليمين وليسوا مـــن المقربيـــن ،

---

(1) الغزالى : *الاقتصاد في الاعتقاد*. ص 115 .

كذلك المرتبة الثانية . أما المرتبة الثالثة فلا يمكن فيـــها الخطـــأ بحـــال ، وتعتبر معرفة حقيقية ومشاهدة يقينيـــة ، فـــهي تشـــبه معرفـــة المقربيـــن والصديقين .

أما الإيمان الذي يعتبر في أعلي المراتب ـ في نظـــر الغزالـــي ـ فطريقه يختلف عما سبقه من الطرق الأخرى ، إنه طريق التصوف فـــهو طريق اليقين والوثوق لمعرفة الحقائق الإلهية [1] .

---

(1) الغزالى : إحياء علوم الدين . جـ3 ص 14 .

** ثانيا: الإسلام .

(أ) المعني اللغوي للإسلام :

لفظ (إسلام) مصدر للفعل : (أسلم) ومادته : (سلم) .

وأول ما يتبادر إلي الذهن من معني كلمة : (إسلام) أنه الدين الحق الذي جاء به محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ من عند الله / عز وجل / وقد بلغه للناس كافة ، وهو الدين الخاتم لجميع الأديان الذي عرف باسم الإسلام منذ عهده الأول ، فالإسلام علم بالغلبة علي مجموع الدين الذي جاء به سيد المرسلين / صلى الله عليه وسلم / .

ولقب الإسلام أولي بالإطلاق علي هذا الدين الخاتم من لقب الإيمان ، لأن الإسلام هو المظهر البين لمتابعة الرسول فيما جاء به من الحق ، وإطراح كل حائل يحول دون ذلك بخلاف الإيمان فإنه اعتقاد قلبي [1] .

وقد سمي الله / تعالى / هذه الأمة المحمدية المسلمين في كل الكتب السماوية السابقة ، وفي القرآن الكريم في قوله / تعالى / : (هو سماكم

---

(1) انظر : ابن عاشور التحرير والتنوير ج3 ص 189 .

المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونـــوا شـــهداء علي الناس[1]) .

والإسلام يعني السلام، وجاء هذا الأخيـــر في اللغـــة علـــي معـــان كثيرة ، منها أنه اسم من أسماء الله / تعالى / والســـلام تحيـــة الإســـلام ، ومعناه السلامة ، فإذا قال المسلم : السلام عليكـــم فكأنـــه أخـــبر غـــيره بالسلامة من جانبه ، ويؤمنه من شره ومن غائلته .

يقول الله / تعالى / في حق يحي عليه السلام : (وسلام عليه يـــوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا [2]) .

وكان سفيان بن عيينة ــ رحمه الله تعالى ــ يقول : أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ، ويـــوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهـــم ، ويوم يبعث فيرى نفسه فـــي محشـــر عظيم .

فأكرم الله نبيه يحي / عليه السلام / في هـــذه المواضـــع الثلاثـــة ، وخصه بالسلامة من آفاتها ، وسلمه من شرها ، وأمّنه من خوفها [3] .

---

(1) سورة الحج : جزء من الآية رقم 76 .

(2) سورة مريم عليها السلام : الآية رقم 14 .

(3) الرازي : شرح أسماء الله الحسنى. ص187 .

وقد عنى المتكلمون والمفسرون واللغويون وغيرهم من الباحثين برد المعنى الشرعي للفظ : (إسلام) إلي أصله اللغوي ؛ فقد جمع فخر الدين الرازي في تفسيره لقوله / تعالى / : (إن الدين عند الله الإسلام [1]) جملة من الآراء في ذلك فقال : (وأما الإسلام ففي معناه في أصل اللغة ثلاثة أوجه :

الأول أنه عبارة عن الدخول في السلم ، أي في الانقياد والمتابعة ، قال / تعالى / : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا [2]) ، أي لمن صار منقادا لكم ومتابعا لكم .

والثاني من أسلم ، أي دخل في السلم ، كقولهم أسنى وأقحط ، وأصل السلم السلامة .

والثالث : قال ابن الأنباري : المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم سلم الشيء لفلان ، أي خلص له . فالإسلام معناه : إخلاص الدين والعقيدة لله / تعالى /[3] .

---

(1) سورة آل العمران : جزء من الآية رقم 19 .

(2) سورة النساء : جزء من الآية رقم 93 .

(3) الرازي : التفسير الكبير جـ2 ص 417 ، وانظر الزمخشري / الكشاف جـ1 ص 228 .

فالإســـلام يأتي بمعنى الخضوع والاستسلام ، وإخـــلاص العبادة لله / تعالى / والانقياد الشامل : الظاهري والباطني .

و لعل هذا المعنى هو ما يرشد إليه قوله / تعالى/ : (ومن أحســـن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفـــا واتخـــذ الله إبراهيم خليلا [1]) ؛

وذلك لأن دين الإسلام مبنى على أمرين : الاعتقاد والعمل .

أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله : (أسلم وجهه) حيث إن الإســـلام هو الانقياد والخضوع ، والوجه أحسن أعضاء الإنســـان ؛ فالإنســـان إذا عرف بقلبه ربه ، وأقر بربوبيته ، وبعبودية نفسه فقد أسلم وجهه لله .

وأما العمل فإليه الإشارة بقوله : (وهو محسن) ، ويدخل فيه فعـــل الحسنات وترك السيئات [2] .

وفى تفسير قوله / تعالى / : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في الســـلم كافة [2]) يشير القرطبي – رحمه الله تعالى – إلي أن المراد بالسلم فـــي

---

(1) سورة النساء : الآية رقم 124 .

(2) الرازى : التفسير الكبير جـ3 ص 325 .

(2) سورة البقرة : جزء من الآية رقم 206 .

الآية الكريمة هو الإسلام ، إذ يقول : ((أي كونوا علـــى ملـــة واحـــدة ، واجتمعوا على الإسلام واثبتوا عليه ، ومنه قول الشاعر الكندي :

دعوت عشيرتي للسلم لما ... رأيتهم تولوا مد برينا ... [1]

(ب) المعني الشرعي للإسلام وعلاقته بالإيمان :

أما من حيث حقيقة الإسلام الشرعية فإن كثيرا من العلماء يـــرى أن الإسلام هو الامتثال الظاهري لما جاء به النبي / صلى الله عليه وســـلم / ، أي الإذعان للأوامر والنواهي ، سواء أعمل بها أم لم يعمل .

ويتحقـــق هذا الانقياد بالنطـــق بالشهادتيـــن ، أما غيـــره كـــالصلاة ـ مثلا ـ فاعتراف المكلف بوجوبها عند الســـؤال عـــن حكمـــها يحقـــق الامتثال والإسلام .

ويرى فريق آخر من العلماء أن الإسلام هو التصديـــق البـــاطني ، واستدلوا على ذلك بقوله / تعالى / : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فـــهو على نور من ربه [2]) .

وعلى هذا فالنطق دليل عليه ، والأعمال كمال له .

---

(1) القرطبي : جامع أحكام القرآن جـ3 ص 22 .

(2) سورة الزمر : جزء من الآية رقم 21 .

ومن هنا فإن علاقة الإسلام بالإيمان باعتبار حقيقتهما اللغوية بينهما اختـــلاف في المفهوم ، أي بينهما عموم وخصوص مطلق يجتمعان فـــي المصدق بقلبه فهو مسلم لغة ومؤمن لغة ، وينفرد الأعم وهو الإسلام فيمن انقاد ظاهرا .

وباعتبار حقيقتهما الشرعية على الرأي الأول هما متغايران مفـــهوما (أي معنى) وذاتا (أي ما صدقـــا) لأن التصديقـــات الباطنيـــة تغـــاير الامتثالات الظاهرية ؛ ومتلازمان شرعا باعتبار المحل بعد اتحاد الجهـــة المعتبرة ، أي إذا قصد الإيمان المنجى في الدنيا وفي الآخرة ، فلا يوجـــد مسلم ليس بمؤمن ، ولا مؤمن ليس بمسلم .

أما إذا نظرنا إلى مطلق الإيمان ومطلق الإسلام فلا تلازم بينـــهما ، بل بينهما العموم والخصوص الوجهي ــ باعتبار محلها ــ يجتمعان فيمـــن صدق بقلبه وانقاد ظاهرا ، وينفرد الإيمان في المصدق بقلبه فقط ، وينفـرد الإسلام في المنافق[1] .

وأما باعتبار حقيقتهما الشرعية عند أصحاب الـــرأي الآخـــر فـــهما مترادفان في عرف الشرع . وهذا ما سار عليه الإمام الرازى ، واســـتدل عليه بدليلين :

---

(1) انظر : السيد محمد الحكيم. دراسات فى الحديث النبوي ص 116 وما بعدها .
• انظر كذلك : د. موسى شاهين. فتح المنعم شرح صحيح مسلم جـ1 ص 39 .
• انظر كذلك : حسن السيد متولي . مذكرة التوحيد ص 35 ــ 36 .

الأول قوله / تعالى / : (إن الدين عند الله الإسلام [2]) ، فهو يقتضي أن يكون الدين المقبول عند الله ليس إلا الإسلام ، فلو كان الإيمان غير الإسلام وجب أن لا يكون الإيمان دينا مقبولا عند الله تعالى ؛ ولا شك في أنه باطل .

الثاني قوله / تعالى / : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه [1]) . فلو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان دينا مقبولا عند الله تعالى ، وهذا أيضا باطل [2] .

ويرى الإمام الغزالى أن الإسلام يطلق شرعا على ثلاث معان :

الأول إطلاق الإسلام بمعنى الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح مع إطلاق الإيمان على التصديق بالقلب فقط ؛ وعلى هذا فالإسلام والإيمان مختلفان .

الثاني أن يكون الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعا ، ويكون الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب ؛ وعلى هذا فالإسلام أعم من الإيمان .

---

(2) سورة آل عمران : جزء من الآية رقم 19 .

(1) سورة آل عمران : جزء من الآية رقم 84 .

(2) الرازى : التفسير الكبير جـ2 ص 417 .

الثالث أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعـا ، وكذا الإيمان ، وعليه فالإسلام والإيمان مترادفان .

ويظهر أثر هذا التحقيق في مسألة مهمة من مسائل علم التوحيـــد ، وهى حكم من ارتكب كبيرة في الإسلام .

وقد تقدم بيان ذلك في مسألة الإيمان ، وأن جمـــهور أهــل الســنة والجماعة لا يخرجون مرتكب الكبيرة عن دائرة الإسلام والإيمان ، بل هـو مؤمن عاص ، وأمره مفوض إلي ربه إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنـــه ، ولا يخلد في النار ، وهذا فضل ورحمة من الله / تعالى / .

المبحث الثامن

العقائد التي يجب الإيمان بها

المبحث الثامن

العقائد التي يجب الإيمان بها

علم مما سبق أن الإسلام عقيدة وشريعة ، ومن مجموعهما يتحقق الإسلام . وقد جعل الإسلام مفتاح الإيمان النطق بالشهادة التي يدخل الإنسان الناطق بها دين الإسلام الحق . وهذه الشهادة التي تصدر عن الإنسان عن جزم ويقين هي :

(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله) ؛

فهي مكونة من جزئين مكملين لبعضهما لا يمكن انفصالهما ، ولا يغني أحدهما عن الآخر .

إن هذه الشهادة عنوان لتحقق جملة العقائد الإسلامية في قلب المسلم ، وهى تعبير صادق عما في نفسه عن إدراك واضح ودليل قاطع .

فبالجزء الأول من الشهادة يقر ويعترف اعترافا كاملا أنه لا معبود بحق إلا الله الواجب الوجود الواحد المتفرد بالخلق والتدبير ، لا يشاركه في خلقه وسلطانه وعزته أحد ، وأنه / جل شأنه / الفعال لما يريد المتصف بكل صفات الكمال والجلال الذي لا يشبه شيئا من خلقه ، ولا يشبهه شيء من خلقه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [1]) ، (قل

---

(1) سورة الشورى : الآية 11 .

هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد [1]) .

وبالجزء الثاني من الشهادة يؤمن إيمانا كاملا عن إذعـــان ويقيـن بأحقية رسالة سيدنا محمد / صلى الله عليه وسلم / ، وبصدق كل ما جـــاء به من عقائد وأحكام .

فالإقرار بوحدانية الله / تعالى / يقتضي كمال الاعتقاد فيه ــ جلـــت قدرته ــ بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، لا إله غيره ولا معبـــود بحـق سواه .

أما الإيمان بأحقية رسالة محمد / صلى الله عليه وسلم / فإنه يقتضي كمال الاعتقاد في أحقية القرآن الكريم وأنـــه مـــن عنـــد الله / تعـــالى / ، والتصديق بكل ما جاء فيه وأخبر عنه من رســـل الله ــ عليـــهم الصـــلاة والسلام ــ ، وملائكته وكتبه واليوم الآخر .

يقول الله / تعالى / : (آمن الرسول بمـــا أنـــزل إليـــه مـــن ربـــه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير [2]) .

ويقول / جل شأنه / : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبـــل المشـــرق والمغـــرب ولكـــن البـــر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتـــاب

---

(1) سورة الإخلاص : كاملة .

(2) سورة البقرة : الآية 284 .

والنبيئين [1]) .

ويقول / عليه الصلاة والسلام / : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة علي ما كان عليه من عمل [2]) .

وقد روى عن رسول الله / صلى الله عليه وسلم / أنه قال : (بنى الإسلام علي خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت [3]) .

فأول أركان الإسلام وأعظمها شأنا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله / صلى الله عليه وسلم / وهي كلمة خفيفة علي اللسان ثقيلة في الميزان ، ألفاظها قليلة ومعناها سام عظيم ، وهو الاعتراف لله / تعالى / بالوحدانية ، والإقرار لمحمد / صلى الله عليه وسلم / بالنبوة والرسالة ، ويتضمن ذلك التصديق بجميع الأنبياء والإيمان بكافة المرسلين .

---

(1) *سورة البقرة : جزء من الآية رقم 176 .*

(2) *حديث متفق عليه: انظر: التاج الجامع للأصول /محمد ناصف/ ج1 ص 31/30 .*

(3) *حديث متفق عليه رواه البخارى في كتابه الجامع الصحيح أول كتاب الإيمان انظر: السيد محمد الحكيم دراسات في الحديث النبوي ص93 .*

وعليه فإن كل من شهد أن لا إلـــه إلا الله وأن محمـــدا رســـول الله مخلصا بها من قلبه فإنه يكـــون بذلك قد دخـــل في دائـــرة الإيمـــان بـــالله / تعالى / وبرسوله / صلى الله عليه وسلم / ويستحق عفو الله ورضوانـــه بناء علي أن الإيمان هو التصديق القلبي بالله / تعالى/ وبرســـوله / صلـــى الله عليه وسلم / وأن بقيـــة الأعمال الظاهرة ليست شطـــرا من الإيمـــان ــ كما تقدم في مبحث الإيمان ــ .

ولكن كيف نفسر قول الرسول / صلى الله عليه وسلم / في حديـــث أركان الإسلام المتقدم ذكره ؟ والجواب عن ذلك هو أن بعـــض فرائـــض الإسلام وعباداته التي ذكرت في هذا الحديث الصحيح أو في غـــيره قـــد ألحقت بأصل الاعتقاد وأساسه الأول ، أعني الشهادة ، وقرنـــت بـــه فـــي وجوب اعتقادها والعمل بها لا لأنها أمور اعتقاديه داخلة في أصل العقيـــدة وجوهرها ، وإنما ذكرت هذه الأمور بعينها لما فيها من المعاني الجليلة مـــا ليس في غيرها ومن ذلك :

أولا أنها تعد من أعظم مظاهر الإيمان بعقيدة الإسلام ، وأوضـــح عناوينه لما يتمثل فيها من استسلام المؤمن وانقياده الظاهري التام لله /عـــز وجل / في كل ما أمر ونهي .

ثانيا أن هذه الفرائض قد جمعت مع الركـــن الأساســـي – وهـــو الشهادة – ضروب الابتلاء والاختبار في الأبـــدان والأمـــوال والأقـــوال والأفعال والتروك لتكون في مجموعها نموذجا لسائر التكاليف ، وليكـــون

العمل بها دليلا وبرهانا علي امتثال المؤمن لكافة المأمورات واجتناب كافة المنهيات [1].

ومن هنا فإن ما وردفي هذا الحديث أو غيره لا يتنافى مع أن الإيمان هو التصديق القلبي بالله تعالى وبرسوله / صلى الله عليه وسلم / .

وعليه فإن أصول العقيدة الإسلامية التي أوجب الإسلام علي المسلم معرفتها والإيمان بها كي تكتب له السعادة في الدنيا والآخرة ثلاثة أصول هي :

1 - معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، والإيمان بكل ما يتعلق بذلك ؛ وتسمى الأمور المتعلقة بالله وصفاته : (الإلهيات) .

2 - معرفة ما يتعلق بالأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - من حيث الإيمان بهم, وما جاءوا به من تشريعات وأحكام ، والإيمان كذلك بالكتب السماوية ، ويطلق علي جملة الأمور المتعلقة بذلك اسم : (النبوات) .

3 - الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وكذلك الإيمان بعذاب القبر ونعيمه ، وبكل ما يتصل بذلك ؛ ويطلق علي المباحث المتعلقة بمثل ذلك اسم : (السمعيات) أو (الغيبيات) .

---

[1] انظر : د. محمد بيصار . العقيدة والشريعة ص 98 .

وحديثنا ينحصر في هذه المباحث في قسم : (الإلهيات) ؛ أما فيما يتعلق بالقسمين الآخرين فسوف نفرد لهما دراسة خاصة في قسم مستقل إن شاء الله تعالى ، وسهّل ويسّر .

المبحث التاسع

الألوهية في الإسلام

المبحث التاسع
الألوهية في الإسلام

تعتبر قضية الألوهية من المسائل الكبرى في الفكر الإسلامي والإنساني علي وجه العموم ، عالجها الإنسان أولا علي الفطرة ثم أخذ يتعمق فيها ويفلسفها .

ومن المعلوم أن الجزيرة العربية في الجاهلية كانت تموج بديانات مختلفة من مزدكية ومانوية ويهودية ونصرانية ، فظهرت المزدكية في تميم ، واليهودية في يثرب وخيبر ، والنصرانية في غسان ، ولكن الديانة السائدة والأكثر انتشارا في الجزيرة العربية كانت عبادة الأصنام والأوثان من تماثيل ونصب يحجون ويتقربون إليها ، ويقدمون لها الذبائح والقرابين [1] .

غير أن هناك من العرب قبل الإسلام من يعتقد في الله /تعالى/ ، ويؤمن بالحياة بعد الموت ، وبالجزاء في الدار الآخرة ، ومن هؤلاء : زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : (أيها الناس هلموا إلي فإنه لم يبق علي دين إبراهيم غيري) ، ومنهم : قس بن ساعدة الإيادى ، وكان يقول : (هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد ، أعاد

---

(1) انظر : الجانب الإلهى عند ابن سينا للمؤلف ص 21 .

وأبدى وإليه المآب غدا) ، ومنهم : عامر بن الظرب العدوانـــى ، وكـان يقول : (إني ما رأيت شيئا قط خلق نفســـه ، ولا رأيـت موضوعـا إلا مصنوعـا ، ولا جائيا إلا ذاهبا ، ولو كان يميت النـاس الـداء لأحيـاهم الدواء [1]) .

ومع وجود هذا النفر الذين اتبعـوا الحنيفية أي ديـن إبراهيم الخليل ــ عليه الصلاة والسلام ــ فإن الغالبية من العـرب ــ آنـذاك ــ كـانوا يعتقدون في آلهتهم النفع والضر ، وكانت فكرة الألوهيـة عندهـم ماديـة مجسمة ومشخصة حتى جاء الإسلام ، وجهر النبي /صلى الله عليه وسـلم/ بالدعوة ، فقضي علي تلك الوثنية ، وحطم الأصنام والأوثان ، ودعا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد ، فأكمل الله / تعالى / بدعوته للنـاس دينـهم ، وأتم عليهم نعمته .

ونزل القرآن الكريـم على محمد /صلى الله عليـه وسـلم/ بلغـة العرب ، وهم أربـاب الفصاحـة والبيـان ، وأول ما نـزل من القـرآن الكريم ــ بإجماع المفسرين ــ قوله / تعالى / : (اقرأ باسم ربـك الـذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكـرم الذي علـم بـالقلم علـم الإنسان ما لم يعلم [2]) ، ففي هذه الآيات الكريمة دعوة إلى معرفـة الله / تعالى / الذي خلق ، وفيها ذكر للمخلوق ــ كذلك ــ ، فذكر الخالق ومـا

---

(1) *الشهرستاني : الملل والنحل ج 3 ص 295 .*

(2) *سورة العلق . الآيات : 1 - 5 .*

خلق – هنا – هو تحديد للموضوع الذي من أجله كان توجيه النظر إلـــى المخلوقات ، والوقوف على ما في صورها وألوانها وأشكالها من عجـــائب وأسرار، فإذا ما ظهرت لعين الناظر المتأمل تنبه إلى الخالق الذي خلق .

(وقد أضفي القرآن الكريم على حقيقة الذات الأقدس من الصفـــات ، وأضاف إليها من النعوت ما يميزها عن سائر أنواع الموجودات ، ويجعلها في متناول الإدراكات الإنسانية ، وفي دائرة ما يعرف بالعقل والوجـــدان ، بل ويجعلها أجلي ما يعرف ، وأجل ما يعلم لذوى الفطر السليمة والعقـــول المستقيمة والوجدانات الراقية [1]) .

فقد وصف القرآن الكريم الله / تعالى / بما يليق بكماله من صفـــات ، وصفه بأنه واحد ، وأنه موجود ، وأنه قادر ، وأنه مريد إلى غيرها مـــــن الصفات التي تليق بالخالق الذي خلق – باعتباره موجدا ومنشأ .

وبهذا ميز القرآن الكريم المعني الحقيقي للفظ الجلالة : (الله) وحـــده للناظرين .

وهكذا كان القرآن الكريم ــ ولا يزال ــ في كل مناهجه فيما يتصـــل بالعقيدة الإلهية ، فلقد اتخذ أعدل الطرق وأوضحها ، وأكثرها فعالية فـــــي الوصول إلى الغاية التي قصد إليها من الدعوة إلى الله ، وتثبيـــت الإيمـــان بوجوده ــ جل وعلا ــ ولم يشأ القرآن الكريم أن يغرق الناس فـــي لجـــج

---

(1) د. محمد بيصار : *العقيدة والأخلاق ص 102 .*

من الجدل الفلسفي ، وفي تصوزات من المنطق السـقيم الـذي لا يلـد إلا خيالات وأوهاما ، ولا ينتهي إلا إلى ظنون يضرب بعضها وجوه بعض .

لقد سلك الفلاسفة طريق البحث عن الله تعـالى فـأضنوا عقولـهم وأمرضوا قلوبهم ولم يصلوا إلى غاية يستريح إليها عقل أو يطمئـن لـها قلب .

وفي تاريخ الفكر شواهد كثيرة ، ومواقف مثـيرة لـهذا الصـراع الذهني الذي أنفق المفكرون فيه حياتهم باحثين عن الحقيقة في الله ما هـو ؟ وكيف هو ؟ وما الوجود ؟ ومن أين جاء ؟ وإلى أين ينتهي ؟ ومـا صلـة الوجود بالله ؟ ...الخ .

وكانت خاتمة المطاف عجزا وحـيرة وقلقـا وتخبطـا وضـلالا . والسبب في ذلك أنهم حملوا أنفسهم فوق طاقاتها ، وساقوا عقولهم إلى مـا وراء حدودها التي يجب أن تقف عندها .

ولكن شريعة القرآن الكريم غير هذا إنها تجئ للناس كما تعرفـهم ، إنهم بشر لهم حدود لا يتجاوزونها ، ولعقولهم مدى لا تتعداه ....

من أجل هذا لم تفتح شريعة القرآن الكريم بابا للجدل في الله ، ولـم تستمع إلى الذين يدعونها إلى الخصومة في الله ، بـل قطعـت عليـهم

الطريق ، وفوتت عليهم ما يرمون إليه من صرف الدعـــوة عـــن غايتـــها الجادة في كشف الضلالة عن العقول والعماية عن القلوب [1]) .

إن العقيدة الإلهية في الإسلام لا تحتاج إلى ذلك الصـــراع الذهنـــي والجدل العقيم في الله / تعالى / وذلك لأنها واضحة فـــي ذاتـــها ، ولأنـــها تعتبر أكمل عقيدة في الدين وهي أكمل عقيدة فـــي العقـــل ــ كذلـــك ــ ، يوضح هذا ما في القرآن الكريم من آيات كثيرة تدل على وحدانية البـــاري / عز وجل / وعلى اتصافه بصفات السمو والكمال ، يقول / جل شـــأنه / : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـــؤا أحـــد [2]) ويقول / تعالى / : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكـــل شـــئ عليـــم [3]) ويقـــول / تعالى / : (عالم الغيب والشهادة وهـــــو الحكيـــم الخبير [4]) ويقول / تعالى / : (وهو القاهر فوق عباده [5]) .

ومن هنا فإن القرآن الكريم دستور الإسلام والمسلمين في كل وقـــت وحين نزل على الرسول الأمين محمد / صلى الله عليه وسلم / ليؤكد هـــذا

---

(1) عبد الكريم الخطيب الله ذاتا وموضوعا ص 368-369 .

(2) سورة الإخلاص : كاملة .

(3) سورة الحديد : الآية 3 .

(4) سورة الأنعام : جزء من الآية رقم 74 .

(5) سورة الأنعام : جزء من الآية رقم 62 .

المعني ويقرره في النفوس ، يقول الله / تعالى / : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون [1]) ويقول / جل شأنه / : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون هو الذي خلقكم من طين ثم قضي أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون [2]) .

فهذه الآيات الكريمة ــ وغيرها كثير ــ تدل بكل وضوح أن هناك وجودين : وجودا للخالق عز وجل ، ووجودا للمخلوق . وأن وجود الخالق ــ جل وعلا ــ وجود دائم ثابت قديم ، وأن وجود المخلوق وجود حادث متغير فإن : (كل شئ هالك إلا وجهه [3]) ، (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام [4]) .

هذا هو الحق الذي يقرره ويعترف به الدين الإسلامي الحنيف ، وجميع الرسالات السابقة عليه التي لم يدخلها تحريف ولم يطرأ عليها تغيير أو تبديل . أما ماعدا ذلك من آراء وتفسيرات الفلسفات البشرية فقد اختلفت وجهات نظرهم في قضية الوجود .

---

(1) سورة البقرة : الآية 20 .

(2) سورة الأنعام : الآيات : 1-3 .

(3) سورة القصص : الآية : 88 .

(4) سورة الرحمن : الآيتان 24 - 25 .

وقد أغنانا القرآن الكريم ــ والحمد لله ــ عن آرائـــهم وتفســيراتهم فيما يتعلق بالألوهية ومسائلها المتنوعة .

ففي القرآن الكريم مصدر العقيدة الصحيحة في الله / تعـــالي/ وفـــي كافة المسائل العقدية .

والمسلم الذي آمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخـــر يـــدرك إدراكـــا كاملا المعني الحقيقي للفظ الجلالة (الله) ، إنه يدرك أن هذا الاسم العظيـم هو الموجود الأسمى ، المتفرد بكل صفات الكمال ، الحائز لكـــل معـــاني العزة والجلال ، المهيمن على كل من وما سواه ، القاهر للخلـــق جميعـــا بماله من مطلق القدرة ومطلق الأمر والنهى .

والفطرة البشرية السليمة يتضح لها هذا الإدراك ، وينكشف انكشـــافا تاما بحيث لا يدانيه ريب ولا شك ، ويتجلى لها هذا المعني مـــن الوجـــود الأكمل في نفس الإنسان وفي كل ما يحيط به من مخلوقات ، وما يجـــرى في العالم من أحداث وتغيرات .

ومتي حصل لنا هذا الإدراك الواضح لهذا الموجود الأقدس اســـتحق منا قطعا أن نفرده بالعبادة ، وأن نتوجه إليه وحـــده فـــي طلـــب الهدايـــة والتوفيق لأنه أمل كل المؤمنين / جل وعلا / .

•• حرية الإنسان في قضية العقيدة :

من الأمور المؤكدة أن توجه الإسلام إلى الناس بطلب الإيمان بـــهذه العقائد الكبرى لا يعتمد على الإكراه ، إذ : (لا إكـــراه فـــي الديـــن [1]) (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [2]) .

كما أن الإسلام لا يعتمد على استعمال وسائل الجـــبروت والقـــهر ، كالتهديد والوعيد ، وما أشبه ذلك كي يرغم الناس علـــى الدخـــول فيـــه ، والإيمان بعقائده ومبادئه ، كما أنه كذلك لا يعتمد على عنصـــر المفاجـــأة بخوارق العادات في المحسوسات والمشاهدات حتى تتبـــهر بـــها عقولـــهم فيعتقدونها دون أن تتهيأ لهم فرصة للتأمل والنظر والتفكير (إن نشأ نـــنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خـــاضعين [3]) ، وإنمـــا يعتمـــد الإسلام في طلب الإيمان بهذه العقيدة علـــى الحجـــة والإقنـــاع والدليـــل والبرهان ، ويعطى الفرصة للإنسان حتى يؤمن عن اقتناع قلبـــي بعـــد أن ينظر ويفكر ويتأمل .

بناء على ما ذكر فإن التسامح الديني يعتبر مبدأ مهما مـــن مبـــادئ الدين الإسلامي الحنيف ؛ فقد شيده الله /تعالى / على قواعد عالية ثابتـــة لا

---

(1) سورة البقرة : جزء من الآية رقم 254 .

(2) سورة يونس : جزء من الآية رقم 99 .

(3) سورة الشعراء : الآية رقم 3 .

نوع للحقد الديني محلا في نفس المؤمن الذي يعتقد بأن الحكمة الإلهية قضت بأن النوع الإنساني يكون مختلفا في عقائده وغيرها ، يقول الله / جلت قدرته / : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم[1]) .

وأن الإنسان لا يستطيع أن يهدى أحدا إلا إذا شاء الله هدايته ، حتى إن الله / تعالى / قال لنبيه / عليه الصلاة والسلام / : (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء[2]) .

وأنه ليس لأحد ــ أيا كان ــ السيطرة على غيره في عقيدته ودينه . بل غاية ما يملكه المؤمن نحو غيره التذكير والموعظة الحسنة والجدل الأحسن ، يقول / تبارك وتعالى / : (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر [3]) ، ويقول / تعالى / : (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد [4]) .

وقد أقرت شريعة الإسلام حرية الضمير والعبادة ، وكفلتها لأتباع كل دين يحيا في ضلال الإسلام وأمنه وعدله ، ومنعت الإكراه على

---

(1) سورة هود : جزء من الآية رقم 118 .

(2) سورة القصص : جزء من الآية رقم 56 .

(3) سورة الغاشية : الآيتان : 21 - 22 .

(4) سورة (ق) : الآية : 45 .

اعتناقه . [1]

وقد ظهر حرص الرسول الكريم / صلى الله عليه وسلم / على كفالة حرية العقيدة ، فحث على عدم إيذاء غير المسلمين في الدولة الإسلامية .

ولهذا أقر الإسلام مبدأ التسامح في أرحب آفاقـــه ، وقـــرر حريـــة الاعتقاد ، وهو أصل مدني لم يظهر في أوروبا إلا مـــن خـــلال الثـــورة الفرنسية .

إذن فالعقيدة في الإسلام لم تبن على القهر والتسلط والجبروت ، بـــل بنيت على أساس الحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين في كل ما يطلـــب من الآخرين ، واستعملت معهم كل السبل الموصلة إلي اليقين .

ومن هنا جاءت مسالك الاستدلال على طرق العقيدة ، وطلـــب مـــن العلماء العالمين بفنونها القادرين على بيان حججها إقامتها وتبيانـــها لمـــن خفي عليهم شأن من شئونها ، أو عجزت عقولهم على النظر والتـــأمل ، أو قصرت أفهامهم في استخدام طرق الاستدلال والتوضيح .

---

(1) *أنظر : د. توفيق الطويل : قصة الإضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ص165 – 166 .*

المبحث العاشر

وجـــود الله تعالـــى

المبحث العاشر

وجـود الله تعالـى

** تمهيد :

قضية وجود الله / تعالى / تعتبر أهم قضية ، بل أهم مقصـد مـن مقاصد الكريم ، فقد تقرر في هذا الكتاب الخـالد أن الله موجـود واجـب الوجود ، وهو الذي خلق كل شئ بقدرته وإرادتـه وعلمـه ــ سبحانه وتعالى ــ ، وأوضح / جل شأنه / أنه ليس في وجوده شك بمجرد النظـر إلى السموات والأرض ومن وما فيهما : (أفي الله شك فـاطر السـموات والأرض) [1] .

وقـرر ــ كذلك ــ بأنـه ــ جل وعــلا ــ لا يشـبه أحـدا مـن مخلوقاته ، ولا يشبهـه أحد من مخلوقاته : (ليس كمثلـه شـئ وهـو السميـع البصير) [2] ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تثبت بشـكل قاطع ونهائي أن الله وحده هو الخالق لهذا الكون كلـه ، يسـيره بحكمتـه ويرتبه بإرادته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

---

(1) سورة ابراهيم / عليه السلام / : جزء من الآية رقم 13 .

(2) سورة الشورى : الآية 11 .

وعلى الرغم من أن هناك أناسا في الماضي والحاضر لم يؤمنوا هذا الإيمان ، ولم يستقر في قلوبهم هذا الاعتقاد فإن ذلك غير قادح في وجـــود الله / تعالى / بأي حال من الأحوال ــ كما يقول عباس العقاد ــ[1] وذلـــك مثل هذا العالم وما فيه من جمال ونظام فإذا احتجب هذا الجمال عن أنـــاس وأسفر لأناس آخرين فليس ذلك بقادح في وجوده .

إذا أننا لا نعرّف الشئ الموجود تعريفا سائغا ومرضيا إذا قلنا عنـــه إنه الشيء الذي ندركه بالحس أو بالعقل أو بالبصيرة لأننا بـــهذا التعريـــف نعلق الموجود على موجود آخر هو الذي يدركه الإنسان بحسه أو بعقلـه أو ببصيرته ، فلا يكون الشيء موجودا إلا إذا كان له محســـون ومدركـــون وذوو بصيرة .

وعليه فإن ألزم لوازم الوجـــود هو أن يكون غير معدوم ، فيكفـــى أن ينتفي العدم ليتحقق الوجود ، فكـــل ما ليس بمعـــدوم فـــهو لا محالـــة موجود [2] .

وهذا التحليل مهم جدا في إثبات كثير من الأشياء التي لا يمكـــن أن يتناولها الحس ، مثل : الروح ، الجن ، والملائكة وغيرها .

---

(1) في كتابه : ((الله)) ص 210 .

(2) انظر : عباس العقاد المصدر السابق ص 34 .

لذلك نرى الماديين المنكرين لوجـــود الله / تعـــالى / ميـــالين إلـــى الاعتقاد بما يقع تحت حواسهم من الكائنات ، وإلى إنكار ما ليس له صورة ولا حدود محصورة .

إن الهدف من الاستدلال على وجـــود الله / تعـــالى / أولا وأخـــيرا تعريف المنكرين من غير المسلمين ، وتعريف جمهور المسلمين وعامتـــهم بوجهة نظر علماء الإسلام وطريقتهم في الاستدلال على وجود الخـــالق ــ عز وجل ــ بأسلوب بسيط وطريقة سهلة يستطيع كل إنسان فهمها تجمـــع بين القديـــم والحديث كي يعرف الإنسان مناهج هؤلاء وأولئـــك ، وكيـــف ردوا على الملاحدة والمنكرين لوجـــود الله / تعـــالى / بأســـلوب الحجـــة والبرهان ، بانين مناهجهم على أسلوب القرآن مسترشدين بـــالعقل الـــذي وهبه الله للإنسان .

وقد قصدت إلى عرض تلك البراهين العقلية والاصطلاحـــات التـــي سار عليها أولئك الأعلام عرضا سهلا ميسرا دون الانتقاص مـــن معـــاني تلك الأدلة والبراهين .

إن المسالك والطـــرق إلى الله / تعالى / تفوت الحصر وتفوق السبر ــ كما قيل ــ إن للاستدلال على الله / تعالى / طرائـــق بعـــدد أنفـــاس الخلائق : وفي كل شئ له آية تدل على أنه الواحد [1]

---

(1) انظـــر . محمد جمال الدين القاسمي : دلائل التوحيد ص 13 ؛ وقبل هذا البيت : يا عجبا كيف يعصى الإله . . أم كيف يجحده الجاحد ؟ . والبيتان لأبي العتاهية ، انظر ديوانه تحقيق شكري فيصل ص 104 .

1 ـ مسالك القرآن الكريم على وجود الله / تعالى / :

إن مسلك القرآن الكريم في قضية وجود الله / تعالى / يقـــوم علـــى لفت أنظار الناس إلى عجائب الصنع والإبداع في السموات والأرض ومـــا بينهما ، وبخاصة هذا المخلوق (الإنسان) الذي أمده الله بعقل (قيل فيـــه إنه علوم ضرورية)[1] .

فهذا الإنسان الذي خلقه الله / تعالى / وكرمه ، وأمده بهذا العقـــل لا يمكن له أن ينكر ـ مثلا ـ ما يشاهد في هذا الكون الفسيح من أصنـــاف الموجودات وأنواعها .

فنحن نرى الموجودات وقد تفاوتت رتبها ودرجاتها ، بعضها أدنـــي وبعضها أرقي ، وبعضها في مرتبة وسط بين هذا وذاك ، وتتخذ كل منـــها في هذا التفاوت خاصيات ومميزات معينة تتحقق بها مغايرتها لغيرها ذاتـــا وصفة .

فمـــن فصائل الموجـــودات : الأجســـام والنباتـــات والحيوانـــات والإنسان ، والأرض بما فيها من طبقات ومركبات جيولوجيـــة ، والـــهواء بما حوى من عناصر كيماوية ، والسماء بما اشتملت عليه مـــن كواكـــب وأفلاك لا يمكن حصرها .

---

(1) انظر : أحمد العلوى . مشارق أنوار العقول ص15 .

فالأجسام تتحرك بعد أن كانت ساكنة ، ويصغر حجمها بعد أن كانت كبيرة ، والنباتات تنمو وتترعرع بعد جمود وذبول ثم تشتد وتطـــول بعـــد ضعف وقصر وهكذا ، وهذا العالم وما يحويه لا يكفي فيه مجرد مشـــاهدتنا لحوادثه ومظاهره وتفاعلاته المختلفة ، بل لابد مع ذلك من الإدراك البـــالغ والفكر والتأمل العميق .

لذلك كله جاء الإسلام موجها أنظارنا إلى ما أودع الله /تعالى / فـــي هذا العالم من مواد وقضايا ضرورية لاستدلال العقل على وجوده .

أجل لقد جاء القرآن الكريم حاثا لعقولنا على النظـــر فـــي الكـــون ، موجها لها إلى محاولة استكشاف أسراره وبدائعه ،

ولهذا زودت الفطرة البشرية بالتطلع إلي المعرفـــة والطمـــوح إلـــى التكثير في خلق السموات والأرض ، ولهذا ـــ أيضا ـــ جعل القرآن الكريم العقل مناط التكليف وموضوع المسئولية في الإنسان .

وماذا يشوق الإنسان ويوقظ عقله ووجدانه أكثر من الرحلة العقليـــة الممتعة في عالم الوجود لا يبذل لها المرء مالا ، ولا يتكلـــف لـــها ســـعيا وانتقالا ؟! وقد صدق القائل :

فانظر إلى نفسك ثم انتقل للعالم العلـــوي ثم السفـــل

إنها نظرة واعية متأملة يملأ بها عينيه من صامت الوجود وناطقه .

اقرأ وتأمل قوله / تعالى / : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلي الأرض الجرز فنخـــرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهـــم أفلا يبصرون)[1] .

ثم استمع بعقلك وقلبك قول الباري / جل وعلا / : (الله الذي رفـــع السموات بغير عمد ترونها ثم استوي على العرش وسخر الشمس والقمـــر كل يجري لأجل مسمي يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنـــون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعـــل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفـــي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغـــير صنوان تسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلـــك لآيات لقوم يعقلون)[2] .

ثم اقرأ وتدبر قوله / تعالى/ : (فلينظر الإنسان إلـــى طعامـــه إنـــا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيـــها حبـــا وعنبـــا وقضبـــا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولإنعامكم)[3] .

ثم انظر كيف وجه القرآن الكريم الناس إلى التفكـــير والتدبـــر فـــي نفوسهـــم التي هي أقرب الأشياء إليهم ، إذ يقول / عز وجل / : ((وفـــي

---

(1) سورة السجدة : الآية 27 .

(2) سورة الرعد : الآيات : 2 ــ 4 .

(3) سورة عبس : الآيات : 24 ــ 31 .

أنفسكم أفلا تبصرون))[1] .

وذلك لأن من تأمل في نفسه بالفكر ، وقصد إلي وجدانه بالتصفية ، وإلى قلبه بالرياضة الروحية كان جديرا بأن تتفتح له أعين أخرى لا يقل إدراكها وضوحها عن إدراك عينيه في العالم الحسي ، وتلك هي عين البصيرة .

ومن تدبير القرآن الكريم في سياق وجود الله / تعالى / استعراض مظاهر قدرة الله / تعالى / وعظمته وحكمته فيما يبدو عليه هذا النظام الكوني من روعة ودقة وإحكام ، يقول الله / تبارك وتعالى / : ((ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى انه على كل شئ قدير))[2] .

ومن الأساليب التي نهجها القرآن الكريم في الإلفات إلى عظمة الله وقدرته أسلوب الاستفهام التقريري الذي يتحدث عن خلق من خلق الله ، أو عن آية من آياته ونعمه ، وفى هذا الأسلوب السامي يجد السامع نفسه أمام سؤال ليس له إلا جواب واحد هو الإقرار والإيمان بوجود الله / تعالى / ، يقول الله / تعالى / : ((أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها

---

(1) سورة الذاريات : الآية 21 .

(2) سورة فصلت : الآية 38 .

أ إله مع الله بل هم قوم يعدلون أمن جعل الأرض قرارا وجعـــل خلالـها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أ إلـــه مـــع الله بـل أكثرهم لا يعلمون))[1] . ويقول / تعالى / : ((أمن هذا الذي يرزقكـم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور))[2] .

ومن الأساليب الراقية المعجزة التي نهجها القرآن الكريـــم أسـلوب موقف المدعي فيدلي بالحجج والبينات ويقيم البراهين بين دعواه فلا يجـــد الخصم منفذا ومهربا [3] . انظر إلى قوله تعالى : (إذ قال إبراهيم ربـــي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يـــأتي بالشـمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر)[4] .

وهذا أسلوب قد جاء فيه القرآن الكريم بألوان من ضروب الإعجـاز الذي خرســت له الألسنة ، وتضاءلت أمامه العقول ، وتصـــاغرت بيـن يديه الأفهـام .

ثم إن القرآن الكريـم لم يغفل أن يحدد منهج الدعوة إلـــي أصـول الإســلام ، وهي عقيـدة التوحيـد بعناصرها الثلاثـة : ما يتعلـق بـالله

---

(1) سورة النمل : الآيتان 62 ــ 63 .

(2) سورة الملك : الآية 21 .

(3) انظر : عبد الكريم الخطيب. الله ذاتا وموضوعا ص394 وما بعدها .

(4) سورة البقرة : جزء من الآية 257 .

/ تعالى / وبرسله ، وباليوم الآخر . وقد كانت دعـــوة الرســل / عليــهم الصلاة والسلام/ إلي الناس بتعليمهم إياها وتحويلـــها مــن النظــر إلـــي التصديق واليقين .

وقد أجمل الله / تعالى / العناصر مرتبة في آيات كريمة من ســـورة البقرة في قوله / تعالى / : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذيــن من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بنـــاء وأنـــزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتــم تعلمون وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بســـورة مـــن مثلـــه وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)[1] .

فانظر كيف دعا الله / تعالى / الناس على لسان نبيه محمد / صلـــى الله عليه وسلم / بهذه العناصر ، وعلى هذا الترتيب الدقيق المعجز . فبـــدأ بالاستـــدلال على التوحيد بأنفسهم في قوله / تعالى / : (الذي خلقكم) ثـــم بأحوال آبائهم وأجدادهم بقوله : (والذين من قبلكم) ثـــم بـــأحوال أهـــل الأرض بقولـــه : (الذي جعل لكم الأرض فراشا) ثـــم بـــأحوال الســـماء بقوله : (والسماء بناء) ثم بالحوادث التي تحدث بيـــن الســـماء والأرض بقوله : (وأنزل من السماء ماء ..الآية) .

ثم رتـــب المطلوب من هذه المراتـــب فقـــال : (فـــلا تجعلـــوا لله أندادا) ، ثم استدل على صحة نبوة خاتم الرسل / صلى الله عليه وســـلم /

---

(1) سورة البقرة : الآيات 20 ــ 23 .

فقال : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة مـــن مثلـه ..الخ الآية) . ثم خلص إلي بعض مما في اليوم الآخر من الجنة والنـــار في آخر الآيات [1] . وفي هذه الآيات المذكورة نهج القرآن الكريم منـــهج الابتداء من الأعرف فالأعرف نازلا إلي الأخفي فالأخفى .

على أن القرآن الكريم قد نهج منهجا آخر هو الابتـــداء بالأشـرف فالأشرف نازلا إلي الأدنى فالأدنى كما في قولـــه / تعـالى / : (يـنزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إلـه إلا أنا فاتقون) .. إلي آخر الآيات [2] .

فقد استدل أولا بالسموات والأرض ، ثم خلق الإنسان ، ثم أحـــوال الحيوان ، ثم أحـوال النبات ، ثم أحوال العناصر الأخـــرى ، ثـم ذكـر الأرض ، وأنهي الآيات الكريمة بقوله / تعالى / : (وإن تعدوا نعمـــة الله لا تحصوها) [3].

أما من حيث توجيه العقل وحث الناس على استعمال الفكر والنظـــر فإن في القرآن الكريم كثيرا من الآيات تدل دلالة صريحة علـــى أن لـــهذا الوجـود موجدا أوجده وخالقـا أنشأه ، ومن هذه الآيات قوله / تعـالى / :

---

(1) أنظر:عبد القادر أحمد عطا. مقدمة كتاب قصص الأنبياء لابن كثير ص15 ــ 16

(2) سورة النحل : الآيات : من 2 ــ 18 .

(3) أنظر : الرازي : التفسير الكبير . مجلد 5 ص. 289 .

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) [1] .

وقوله / تعالى / (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)[2] وقوله / تعالى / : (أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت [3]) ، وقوله / تعالى / : (فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب)[4] .

وقوله / تعالى / وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)[5] .

---

(1) سورة البقرة : الآية 163 .

(2) سورة آل عمران : الآية 190 .

(3) سورة الغاشية : الآية 17 -- 20 .

(4) سورة الغاشية : الآيات 17 ــ 20 .

(5) سورة يس : الآيات 36 ــ 39 .

إلي غير ذلك من الآيات الناطقـــة بوجـــوده وعظمتـــه وكبريائـــه وقدرته ، فآياته ــ جل وعلا ــ واضحة لمن يريدها ويستقيم إلي مغزاهـــا ولكنها وحدها لا تقنع من لا يريد ولا يستقيم : (ولو فتحنا عليهم بابا مـــن السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنـــا بـــل نحـــن قـــوم مسحورون) [1] .

يقول الإمام الغزالى : (فليس يخفي على من معه أدني مسكة مـــن عقل إذا تأمل بأدنى فكره مضمون هذه الآيات ، وأدار نظره على عجـــائب خلق الله في الأرض والسماء وبدائع فطرة الحيوان والنبات ، إن هذا الأمر العجيب والترتيـــب المحكم لا يستغني عن صانع يدبـــره وفـــاعل يحكمـــه ويقدره ، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونـــها مقـــهورة تحـــت تســـخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره)) .

ولذلك قال الله / تعالى / : ((أفـــي الله شـــك فـــاطر الســـموات والأرض))[2] ؛ ولهذا بعث الأنبياء / صلوات الله عليهم / لدعوة الخلـــق إلي التوحيد ليقولوا : ((لا إله إلا الله ...))[3] إن هذا العالم خلـــق مـــن تأمله ، ونظام من تفكر في أمره آمن بأن له خالقا ، وجزم اعتقاده بأن لـــه ربا يدبر أمره .

---

(1) سورة الحجر : الآيتان 14 ــ 15 .

(2) سورة ابراهيم : جزء من الآية 13 .

(3) الغزالى : قواعد العقائد تحقيق سعيد زايد ص 60 ــ 61 .

فجدير بمن تفكر في هذا الكون ونظامه في سمائه وأرضه ، وما في السماء من نجوم وكواكب وشمس تجرى لمستقر لها ، وقمر قدره الله منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، وما ذلل الله به الأرض للمشي في مناكبها والاستقرار عليها ، وما أمسكها به من الجبال الراسيات ، وما نوع به الماء من عذب فرات وملح أجاج ، وإلى الإنسان وكيف خلقه وتدرج به في عملية خلقه من التراب إلي النطفة إلي العلقة إلي المضغة ، ثم إلي مراحل عمر الإنسان من الطفولة حتى الشيخوخة ، وما يسير به كل شئ في نظام دقيق وترتيب زمني لا يتقدم فيه ولا يتأخر .

ولو اضطرب الترابط المشاهد بين الكائنات لتداخل بعض العالم في بعض ، ولسقطت السماء على الأرض ، ولفسد نظام الكون ، ولكنه من صنع قادر حكيم وعالم مريد ((فتبارك الله أحسن الخالقين))[1] .

أقول جدير بمن شاهد كل ذلك ووقف عليه وتفكر فيه أن يؤمن بخالقه ومنشئه ــ جل وعلا ــ ((ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار))[2] .

إن الإسلام دين يدعو إلي النظر والتأمل في ملكوت السموات والأرض ، ويطلب من العقول المستنيرة والقلوب الواعية والنفوس الزكية

---

(1) سورة المؤمنون جزء من الآية رقم 14 .

(2) سورة آل عمران : جزء من الآية رقم 191 .

التفكير في حقائق الأشياء وأسرار الكون وخفايا الوجـــود . وقـــد وصـــف القرآن الكريم المتأملين في هذا الكون بأنهم أولوا الألباب ، ورمى الذيـــن لا يتدبرون ولا يتفكرون بأنهم لا يعقلون .

وقد أراد الله / تعالى / بهذا الحض الحازم أن يصل المؤمنون إلـــي معرفة الله / تعالى / ووحدانيته وكماله المطلق ، وإلى الإيمـــان بـــه عـــن طريق العقل والوجدان مسترشدين بالقرآن لا عن طريق التقليد الذي غالبـــا ما يكون محفوفا بالشكوك والمخاطر . لهذا كله دعا القرآن الكريم النـــاس جميعا إلي استعمال عقولهم في الفكر والنظر والبصر والتدبـــر والاعتبـــار والتأمل والذكر والعلم .

والعقل الذي يخاطبه القرآن الكريم هو العقل الذي يقـــوم بـــه الفـــهم والوعي ، فكل خطاب إلي ذوى الألباب في القرآن الكريم هو خطاب إلـــي اللب ، هذا العقل المدرك الفاهم الواعي لأنه معدن الإدراك والفهم في ذهـن الإنسان كما يدل عليه اسمه في لغتنا العربية التي نزل بها كتاب الله عـــز وجل [1] .

يقول / جل شأنه / : ((والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل مـن عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب [2])) .

---

(1) انظر : عباس العقاد. الفلسفة القرانية ص13

(2) سورة ال عمران : جزء من الآية رقم 7

ويقول تعالي: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتـــي خيرا كثيرا وما يذكر آلا أولوا الألباب[1]) .

وأصحاب التفكير الصحيح الصادق هم أولوا الألباب ، فـــهم الذيـــن يصلون إلي علم صحيح وحكمـــة عالية وتفكيـــر مستنير يصلهم بخالقـــهم ـ جل وعلا شأنه ـ (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون[2]) .

فهم الذين يتصفون بالأخلاق الفاضلة والسمو الروحي والأدب الرفيع مع الله / تعالى / ومع أنفسهم ومع من حولـــهم لأنـــهم دائمـــا يتذكـــرون ويتفكـــرون ويتدبرون ويستجيبون ويحسنون الاستماع ويحسنون الإتبـــاع : ((الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هـــم أولو الألباب [3])) .

فالقرآن الكريم كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، ويحث على الفكـــر ، ويجعل التفكير السليم والنظر الصحيح إلي آيات خلق الله تعـــالى وجميـــل صنعه وسيلة من وسائل الإيمان بالله /تعالى/ .

لقد بين علماء المسلمين كثيرا من الأدلة على وجود الله /تعـــالى/ مستنبطين ذلك من القرآن الكريم .

---

(1) سورة البقرة : الآية 268 .

(2) سورة الزمر : جزء من الآية رقم 10

(3) سورة الزمر : جزء من الآية رقم 16

يقول ابن القيم في كتابه : ((مفتاح دار السعادة)) مستدلا على وجود الله / تعالى / بالنحل وأحوالها وعجيب أمرها ، وما فيها من العبر والآيات الدالة على وجود خالق الخلق جميعا ، يقول : ((تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات ، فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل ، وبنائها البيوت الهندسية المسدسة التي هي أتم الأشكال وأحسنها استدارة واحكمها صنعا ، فإذا انظم بعضها إلي بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل ، كل ذلك بغير مقياس ولا آلة ، وهذه من آثار صنع الله وإلهامه إياها ، وإيحائه إليها ، كما في قوله / تعالى / : ((وأوحى ربك إلي النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون [1]))

فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمراها لربها حيث اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال وفى الشجر وفى بيوت الناس حيث يعرشون.

ومن عجيب أمرها أن لها رئيسا يسمى " اليعسوب " لا يتم لها رواح ولا إياب إلا به ، فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة إياه يدبرها كما يدبر الملك مملكته حتى إذا آوت إلي بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تقدم عليها في العبور ، بل تعبر بيوتها واحدة بعد

---

(1) سورة النحل : الآيتان 68 - 69

أخرى بدون تزاحم ولا تصادم ولا تراكم .. وتلك إحدى الآيات والعجائب التي قل من يتفطن لها ، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي أفادها وأكسبها هذا التدبير والسعي والمعاش والبناء والنتاج .

فسل المعطل من الذي أوحى إليها أمرها ، وجعل ما جعل في طباعها ؟ ، ومن الذي سهل لها سبلها ذللا لا تستعصى عليها ولا تستوعرها ، ولا تضل عنها على بعدها ؟ ، ومن الذي أنزل لها ما أنزل ما إذا جنته صار عسلا شهيا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس ؟ ، لا شك أنه الله العليم الحكيم ، كما دلت على ذلك الآيتان الكريمتان [1])) .

إن براهين القرآن الكريم على وجود الله / تعالى / وعظمته كثيرة متنوعة ، وهى الحق والصواب ولها ميزات وفوائد لا تحصى ، وقد لخص الإمام الرازى بعض ميزات منهج القرآن فيما يلي :

1 ــ أدلة القرآن الكريم أدلة محسوسة لا تحتاج إلي تجريدات عقلية .

2 ــ وهى كثيرة متعاضدة ، والكثرة والتوالي يفيدان القوة .

3 ــ إن الإنسان لا ينفك في شئ من أحواله عن مشاهدة شئ منها ، سواء أكان ذلك في نفسه ، أم في ما حوله ، أم في أنحاء السموات والأرض ، وكثرة الممارسة تفيد الملكة الراسخة .

---

(1) ابن قيم الجوزية : مفتاح دار السعادة ص267 وما بعدها .

4 ـ إن هذه الدلائل ـ إذا كانت آيات وبراهين على وجـــود الله من جهة ـ فهي من جهة أخرى وفى نفس الوقت نعم ومنافع . والإنســـان مجبول على حب من نفعه ، والإنعامات المتوالية الكثـــيرة تفضـــي إلـــي الانقياد للمنعم وشكره ، فلكونها دلائل أفادت العقيدة الراســـخة ، ولكونـــها نعما كانت سببا من أسباب العبادة والتوجه إلي الله / تعالى /[1] .

وأخيـــرا فإن في الآيـــات القرآنية الكريمـــة الدالـــة على وجود الله / تعالى / وصفاته مجمل العقيدة الإلهية في القرآن الكريم ، وهـــي أكمـــل عقيـــدة في العقل ، وهي أكمل عقيدة في الدين . فقد تقـــرر في كتـــاب الله / عز وجل / خالـــق واحد لا أول له ولا آخر ، قدير على كل شئ ، عليـم بكل شئ ، محيط بكل شئ ، وليس كمثله شئ . وعالم مخلوق خلقـــه الله ، ويرجع إلي الله ، ويفني كما يوجد بمشيئة الله [2] .

ومنهج القرآن الكريم في قضية وجود الله / تعـــالى / هـــو جمـــاع مناهج جميع الحكماء والفلاسفة . فهو المنهج الذي يقيـــم الحجـــة بوجـــود المخلوقات على وجود الله ، وبنظام الكون ودقته على وجود المدبر المريـــد ـ جل وعلا ـ .

---

(1) الرازي : المطالب العالية ج1 ص 82 ، والتفسير الكبير جـــ2 ص113 – 114 وانظر كذلك : محمد صالح الزركان : فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية ص199 ـ 200

(2) انظر : عباس العقاد. الفلسفة القرآنية. ص 92 .

2 ـ مسلك الفلاسفة الإسلاميين :

والمقصود بالفلاسفة الإسلاميين : الفارابي ، وابن سينا ، ومن سار على طريقتيهما .

وإنما قدمت هذا المسلك على مسلك المتكلمين وغيره ، لأنه :

(أ) ـ يمكن اختصاره إلي حد كبير .

(ب) ـ إن الحديث فيه ليس مقصود لذاته ، وإنما لكي نفرق بينه وبين مسلك المتكلمين الذي هو المقصود بالذات .

ومن المعلوم أن الفلاسفة المسلمين يعبرون عن لفظ الجلالة (الله) في الغالب بواجب الوجود بذاته المبدأ الأول ؛ أي هو واجب الوجود بذاته لأن وجوده نفس ذاته ، وهو مبدأ لأنه يصدر عنه كل شئ ، وأول لأنه سابق أزلا على كل موجود .

والطريق الذي اختاره الفلاسفة الإسلاميون يعتمد أساسا على التفرقة بين الواجب والممكن ، إذ أنهم يقسمون الوجود إلي ممكن وواجب وأن ممكن الوجود هو الذي متي فرض غير موجود ، او موجودا لم يعرض منه محال ، أما واجب الوجود فهو الذى متى فرض غير موجود عرض منه محال لأن وجوده لا يتخلف .

ويتلخص مسلك الفلاسفة الذي يسمي الدليل الوجـــودى فـــي أن الله /تعالى/ ــ وإن كان يمكن الاستدلال عليه عن طريق العالم المشـــاهد ، أو الصعـــود من المحدثات إليه ــ لكن الطريـــق الأوثـــق إلي معرفة وجوده / تعالى / هو أن نبدأ بالوجود نفسه ، فإذا وجدنا من هـــذا الوجـــود العـــام وجودا واجبا بذاته فقد وصلنا إلي المطلوب ، وإلا نظرنا إلـــي الوجـــودات الممكنة ، وبما أن كل ممكن له علة هي سبب وجوده فإننـــا نرتقـــي فـــي سلسلة المعلولات والعلل ، ولكن لابد أن تنتهي هذه السلسلة إلي علة هـــي واجب الوجود بذاته ، وذلك بعد إبطال الدور والتسلسل .

ويرى ابن سينا أن هذا الدليل قد استنتج من نفس الوجـــود ، وهـــو الأولي والأوثق والأشرف عنده ، وذلك لأنه لا يحتاج إلي اعتبـــار شـــئ مشاهد أو محسوس ، وهو قبل هذا وذاك استشهادا بالحق على كل شـــئ ، وليس استشهاد بكل شئ على الحق / تبارك وتعالى / .

يقول ابن سينا : (تأمل كيف لم يحتج بياننا لثبوت الأول ووحدانيتـــه وبراءته من السمات إلي تأمل لغير نفس الوجود ، ولم يحتج إلـــي اعتبـــار من خلقه وفعله ــ وإن كان ذلك دليلا عليه ــ لكـــن هـــذا البـــاب أوثـــق وأشرف ، أي إذا اعتبرنا حال الوجود فشهد به الوجود من حيث هو وجود ، وهو يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده في الوجود ، وإلى مثل هذا أشـــير في الكتاب الإلهي : (سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لـــهم

أنه الحق[1]) ، أقول إن هذا حكم لقوم ، ثم يقول : (أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد [2]) أقول إن هذا حكم الصديقين الذين يستشهدون به لا عليه) [3] .

ويقصد ابن سينا بقوله : (إن هذا حكم لقوم) المتكلمين والحكماء الطبيعيين ، أما الصديقون ، فيقصد بهم الفلاسفة ، وقد وسمهم بالصديقين وهم الملازمون للصدق دائما ويستشهدون بالواجب لا عليه .

وبهذا فإن ابن سينا / الذي يمثل الفلاسفة المسلمين / يرجح طريقة الحكماء الإلهيين لأنها ــ في نظره ــ أولي البراهين بإعطاء اليقين ، وهي الاستدلال بالعلة على المعلول لا الاستدلال بالمعلول على العلة [4] . كما هو رأى المتكلمين ــ كما سيأتي ــ .

---

(1) سورة فصلت : الآية 52

(2) سورة فصلت : الآية 52 .

(3) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات . تحقيق د.سليمان دنيا ج 3 ص 70 - 80 .

(4) د. سعاد سرشار : الجانب الإلهي عند ابن سينا ص77 .

3 ـ مسلك المتكلمين :

إن علماء التوحيد - بصورة عامة - عنوا عناية كبيرة بالاستدلال على وجود الله / تعالى / وحاولوا ـ بكل جهد ـ أن يردوا على من أنكر وجود الله / تعالى/ بالأدلة النقلية ، أي بأدلة القرآن الكريم والسنة النبوية ، وبالأدلة العقلية ، أي بالبراهين المنطقية المبنية على المقدمات المسلمة .

وغرضهم من ذلك ـ كما سبق ـ هو الرد على المبطلين والملاحدة الذين اتخذوا المنطق سلاحا لهم .

وعليه فإن علماء التوحيد استدلوا على وجود الله / تعالى / بأدلة عقلية بالإضافة إلي الأدلة النقلية الواردة في كتاب الله / تعالى / .

وفي هذه الدراسة سنسير معهم في بيان هذه الأدلة وتفصيلها :

** الدليل الأول : دليل الحدوث .

يبنى المتكلمون طريقهم على حدوث الجواهر والأعراض ، ويستدلون على حدوث كل منهما ، وبعد ذلك يثبتون وجود الله / تعالى / .

ونظم الدليل ـ عندهم ـ هكذا :

العالم ـ وهو جواهر وأعرض (إذ لم يقم برهان على غيرهما) ـ حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، وهذا المحدث الذي أحدث العالم هو الله / تعالى / .

أو يقال : الله يجب افتقار العالم وكل جزء من أجزائه إليـــه ، وكـــل من وجـــب افتقار العالم إليه واجب الوجود ، فالله واجب الوجود .

وهذان الدليلان ــ كما هو معروف ــ مؤلفان من مقدمتين صغـــري وكبري ، ولابد لهذين المقدمتين من دليل .

دليل الصغرى العالم حادث وكل حادث يجب افتقاره إلـــي محـــدث فالعالم يجب افتقاره إلي محدث .

ودليل الكبرى أنه لو لم يكن المفتقر إليه العالم واجب الوجود لكـــان جائز الوجود فيكون حادثا ويحتاج إلي محدث ، ومحدثه إلي محدث فـــإن رجع إلي الأول مباشرة أو بالواسطة فدور ، وإن تتابع المحدثون إلي مـــالا نهاية فتسلسل ، وكل من الدور والتسلسل باطل فبطل ما أدى إليه ــ وهـــو أنه غير واجب الوجود ــ وثبت أنه واجب الوجود وهو المطلوب .

بالنظر في هذا الدليل بجملته ترى فيه ألفاظا تحتـــاج إلـــي البيـــان والتوضيح ، مثل : العالم ــ الجوهر ــ العرض ــ الدور ــ التسلســـل ــ محدث .

وإليك بيانها : العالم ــ بفتح اللام ــ لغة مأخوذ من العلـــم بمعنـــي العلامة . واصطلاحا : هو ما سوى الله تعالى من الموجودات .

وكلمة (العالم) كلي يشبه الجنس ، ويقال على القدر المشترك بين سائر الكليات المندرجة تحته ، فيقال : الإنسان والحيوان والنبات والجماد .. الخ عالم ، وتقول : الإنسان عالم ، والنبات عالم .. الخ .

وأما كلمة محدث ــ بفتح الدال ــ فمعناها : موجود بعد العدم ؛ فالأرض وماعليها ، والسماء بما فيها قد وجدت من العدم المحض ، وقد كان الله ولا شئ معه ، ثم أوجد هذا العالم بقدرته وإرادته .

ومعنى الجوهر : هو ما قام بذاته ، أي أنه يتحيز بنفسه فلا يكون في تحيزه تابعا لتحيز غيره ، وينقسم قسمين : إما مركب وهو الجسم ، أو غير مركب كالجوهر الفرد ، وهو الجزء الذي لا يتجزأ ، وهو ما يعبر عنه في العصر الحديث بالذرة .

والعرض مالا يقوم بذاته ، أي أنه لا يتحيز بنفسه ، بل يتبع غيره في التحيز .

ومعنى الدور أن شيئا ما توقف وجوده على شئ آخر ، وهذا الآخر قد توقف وجوده على ذلك الشي الأول ، إما مباشرة أو بواسطة أو أكثر ، وهذا يعنى أن الشي الأول متقدم من حيث هو متوقف عليه ، ومتأخر من حيث هو متوقف على غيره ، فيلزم ــ إذن ــ توقف وجود الشي على وجود نفسه ، وهو بدهى البطلان .

ومعنى التسلسل : (فرض أن المخلوقات كلها متوالدة عن بعضـــها إلي مالا نهاية بحيث يكون كل واحد منها معلولا لما قلبه وعلة لمـــا بعـــده دون أن تتبع هذه السلسة أخيرا من علة واجبة الوجود هي التـــي تضفـــي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات[1]) . فهذا التسلسل استحالته بدهيـــة لا يخالف فيها أحد من العقلاء .

** الدليل الثاني : دليل الاختراع .

وأساس هذا الدليل أن هـــذه الموجـــودات مخترعـــة (أي مخلوقـــة مصنوعة) وأن كل مخترع لابد له من مخترع .

وقد اقتصر الإمام الأشعرى ــ في كتابه : (اللمع) ــ علـــى هـــذا الدليل وهو دليل مستنبط من القرآن الكريم .

يقول الأشعرى : (إن سأل سائل فقال : ما الدليل علـــى أن للخلـــق صانعا صنعه ومدبرا دبره ؟ قيل له : الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية التمام والكمال ، كان نطفة ثم علقة ثم لحما ودما وعظمـــا ، وقـــد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلي حال لأنا نراه في حـــال كمـــال قوتـــه وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعا ولا بصرا ، ولا أن يخلق لنفســـه جارحة ، يدل ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجـــز ، لأن ما قدر عليه في حال النقصان فهو في الكمال عليه أقدر ، وما عجـــز

---

(1) محمد سعيد البوطي : *كبرى اليقينيات الكونية*. ص84 .

عنه في حال الكمال فهو في حال النقصان عنه أعجز ، ورأيناه طفلا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلي حال الكبر والهرم ، لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلي حال الشباب لم يمكنه ذلك ، فدل ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال ، وأن له فاعلا نقله من حال إلي حال ، ودبره على ما هو عليه ، لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلي حال بغير ناقل ولا مدبر .... إلي أن يقول .. وقد قال الله / تعالى / : (أ فرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون [1]) . فما استطاعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمنون مع تمنيهم الولد فلا يكون ، ومع كراهيتهم له فيكون . وقد قال الله / تعالى / منبها لخلقه على وحدانيته : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون [2]) ، بين لهم عجزهم وفقرهم إلي صانع صنعهم ، ومدبر دبرهم [3] .

وهكذا صاغ الأشعرى – رحمه الله تعالى – هذا الدليل صياغة محكمة تدل على عبقريته ومقدرته في استنباط البراهين العقلية من القرآن الكريم .

---

(1) سورة الواقعة : الآيتان 61-62

(2) سورة الذاريات الآية رقم 21

(3) الأشعرى : اللمع . تعليق وتقديم د. حمودة غرابة ص 17 - 19 .

عنه في حال الكمال فهو في حال النقصان عنه أعجز ، ورأيناه طفلا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلي حال الكبر والهرم ، لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلي حال الشباب لم يمكنه ذلك ، فدل ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال ، وأن له فاعلا نقله من حال إلي حال ، ودبره على ما هو عليه ، لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلي حال بغير ناقل ولا مدبر .... إلي أن يقول .. وقد قال الله / تعالى / : (أ فرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون [1]) . فما استطاعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمنون مع تمنيهم الولد فلا يكون ، ومع كراهيتهم له فيكون . وقد قال الله / تعالى / منبها لخلقه على وحدانيته : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون [2]) ، بين لهم عجزهم وفقرهم إلي صانع صنعهم ، ومدبر دبرهم [3] .

وهكذا صاغ الأشعرى – رحمه الله تعالى – هذا الدليل صياغة محكمة تدل على عبقريته ومقدرته في استنباط البراهين العقلية من القرآن الكريم .

---

(1) سورة الواقعة : الآيتان 61- 62

(2) سورة الذاريات الآية رقم 21

(3) الأشعرى : اللمع . تعليق وتقديم د. حمودة غرابة ص 17 - 19 .

وقد انتقد أبو الوليد محمد بن رشد (ت 595 هـ) طريقة المتكلمين في الاستدلال على وجود الله / تعالى / وأشار إلي أن الأولي هو الاستدلال على وجوده / تعالى / بالقرآن الكريم والوحي الإلهي ، من مثل : دليل العناية ، ودليل الاختراع أو السببية .

فالدليل الأول ـ وهو دليل العناية ـ معناه أن جميع الموجودات المشاهدة موافقة لوجود الإنسان ، فمن موافقة الليل والنهار ، والشمس والقمر لوجود الإنسان إلي موافقة الأزمنة والأمكنة والحيوان والنبات ، ...الخ .

وأما دليل الأختراع فيدخل فيه وجود الحيوان كله ، ووجود النبات ، وغير ذلك ، وكل هذه الموجودات مخترعة ، ولابد لها من موجد ومخترع [1] . وهذا الدليل الأخير هو بعينه ما استدل به الأشعرى ـ كما عرفت ـ .

والقرآن الكريم ملئ بالآيات التي تتضمن دليلي العناية والاختراع . فقد اهتم ابن رشد بهذين الدليلين ، واعتبرهما من أهم الأدلة على وجود الله / تعالى / ، ويرى أنهما صالحان لعامة الناس وخاصتهم ، وأنهما يفوقان أدلة الأشاعرة والمعتزلة [2] .

---

(1) انظر : ابن رشد: *الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص 45 - 46 .*

(2) ابن رشد : *الكشف عن مناهج الأدلة. ص 48 - 49 .*

ومن هنا فإن ابن رشد حاول أن يتهم الأشاعرة بأنهم قالوا إن دلالة الموجودات على الله ــ تبارك وتعالى ــ ليس من أجل حكمة فيها تقتضي العناية ولكن من قبيل الجواز ، أي من قبل ما يظهر في جميع الموجودات أنه جائز في العقل أن يكون بهذه الصفة وبضدها .

وهذا الاتهام غير صحيح بالمرة ــ من وجهة نظري ــ ، ذلك لأن الأشاعرة لم ينكروا الحكمة في صنع الكون من جانب الله / تعالى / ، وهم ــ وإن جوزوا وجود عالم غير هذا العالم الموجود ــ فما كان إلا لتوضيح القدرة الإلهية اللامتناهية في خلق ما لا يتناهى من العوالم المختلفة فليس عندهم حتمية في العالم ، وليس هناك نظام لا يستطيع الله أن يخرج عليه أو يكون مفروضا عليه ، وهذا ما يتمشى مع فكرتهم الصائبة في مبدأ السببية القائم على عدم الرابطة الضرورية بين السبب والمسبب ، فليس في العالم فاعل في الحقيقة إلا الله / تعالى / وحده الذي هو السبب في إيجاد كل شئ الفعال لما يريد .

أما ما يقوله ابن رشد من وجود الترتيب والنظام والقول بالرابطة الضرورية بين السبب والمسبب فهو لا يتمشى ــ حسب تقديري ــ مع القدرة الإلهية اللامتناهية (1) .

---

(1) انظر : الجانب الإلهي عند ابن سينا للمؤلف ص88-90

3 ـ مسلك الفطرة والبداهة :

من الأدلـــة التي اعتمـــد عليها العلماء في الاستدلال على وجود الله / تعالى / دليل الفطرة الإنسانية . والفطرة بمعناها الشامل تعنـــى الصفـــة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته ، فـــهي مغروســـة فـــي الإنسان غرسا خلقيا ، قارنته وسارت معه منذ أن وجد .

فما من نفس إلا وهى مطبوعة على معرفة طابعها ، مفطورة علـــى حب فاطرها ، مؤمنة بوجود خالقها وبارئها . فالفطرة هي سجية طويـــت عليها النفوس ، وطبعت عليها القلوب [2].

وأدنى التفات من العاقل غير المتعصب إلي نفسه أو إلي مـــا حولـــه يسرقه إلي الاعتراف بوجود الله / تعالى / وقدرته وعظمته .

وقد استدل بعض العلماء على أن الفطرة تحكم بوجود الخالق بدليـــل قوله / تعالى / : ((ولئن سألتهم من خلـــق الســـموات والأرض ليقولـــن

---

(2) انظر : ابراهيم عبد الباقي : البيان في تصحيح الايمان ص10

خلقهن العزيز العليم [1]) ، وقوله / تعالى / : ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون [2])

فالمشركون يعرفون أن هذا الخلق العظيم من السموات والأرض وما بينهما لابد أن يكون هناك خالق خلقه ، ومدبر دبره ، لأن فطرتهم التي فطرهم الله عليها تقر بذلك ، إلا أن اتباعهم لآبائهم وأسلافهم وتعنتهم واستكبارهم كل ذلك منعهم من إتباع فطرتهم والاعتراف بالخالق ــ جل وعلا ــ .

ويشير عباس العقاد إلي أن مسألة وجود الله / تعالى / هي مسألة وعى قبل كل شئ فالإنسان له وعى يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من وعى يقيني بالوجود الأعظم .

والوعي والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ، ومن ظاهره وباطنه وما يعيه ومالا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجملا محتاجا إلي التفصيل والتفسير .. فإذا قالت البداهة العقلية : (نعم هناك إله) فهذا القول له قيمته في النظر

---

(1) سورة الزخرف : الآية 8

(2) سورة الزخرف : الآية 87

إنساني لا تقل أهمية عن قيمة المنطق والقياس [1] . فالإيمان بالله تعالى غرزى في الإنسان مودع في أصل خلقته وثنايا جبلته .

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله / صلى الله عليه وسلم / : { ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ، ثم يقول أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ : اقرأوا إن شأتم : ((فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم [2])) [3] }

فني هذا الحديث الشريف يعلن الرسول الكريم / عليه الصلاة والسلام / انه ما من مولود يوجد على حال من الأحوال إلا يوجد على حال الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهى قبول الحق وتمكينهم من إدراكه لو خلى بينهم وبينه دون معارضة أو ترغيب أو تضليل وتغطية وجه الحق وإظهار الباطل في ثوب الحسن الجميل كما يصنع الأبوان اليهوديان أو النصرانيان أو المجوسيان حين يولد لهما مولود فإنهما يصرفانه عن الفطرة التي ولد عليها ، ويعلمانه ما هما عليه ويرغبانه

---

(1) عباس العقاد : (الله) صفحة رقم 209 ــ 210 .

(2) سورة الروم : جزء من الآية رقم 29 .

(3) مسند الإمام أحمد . ج2 ص346 .

فيه ، بل يدفعانه إلي ذلك ليصير على ملتهما ، فهما يفسدان طبعه الأصلي بتغطية الحق عنه والتمويه عليه .

وقد ضرب الرسول الكريم / صلى الله عليه وسلم / مثلا واضحا للعيان ، فشبه التغيير الذي يحدثه الوالدان في المولود بعد أن خلق على الفطرة بالتغيير الذي يحدث للبهيمة بجدعها بعد أن ولدت سليمة البدن والأعضاء [1] .

ومعني الفطرة يحتمل أن يكون هو قبول الحق وتمكينهم من إدراكه ، أو هي ملة الإسلام ، فإنهم لو تركوا وما خلقوا عليه لأداهم ذلك إلي الإسلام ، لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية ، ومنها التقليد والتنصير والتهويد والتمجيس وغيرها .

وعليه فإن إيمان الفطرة مركوز في النفس كامن فيها غير أنه يحتاج إلي ما يستثيره ويخرجه من مكمنه ، وذلك بالدعوة إلي الدين الحق والحث على اتباع مبادئه ومناهجه .

والإيمان بالله / تعالى / من الأمور التي تصل إليها العقول السليمة بكل يسر وسهولة إذا ما ابتعدت عن الهوى والتعصب .

---

(1) انظر: د. موسى لاشين : *المنهل الحديث في شرح الحديث* ج2 ص77 .

فإن الإنسان إذا دهاه أمر وضاقت به المسالك لابد أن يستند إلي الإله ، يتضرع نحوه ويلجأ إليه في كشف بلواه ، ويسمو قلبه صعودا إلي السماء ، ويشخص ناظره إليها من حيث كونها قبلة لدعاء الخلق أجمعين ، فيستغيث بخالقه وبارئه طبعا وجبلة لا تكلفا وحيلة .

والخلق إنما أشركوا بعد الاعتراف بالموجود / تعالى / لما اعتقدوه من الشركاء لله / تعالى / أو لنفي واجب من صفاته ، أو لإثبات مستحيل منها ، أو لإنكارهم النبوات [1] .

إن الإيمان بالله / تعالى / كامن في نفس الإنسان ومغروس في طبعه وجبلته لا يختلف فيه إنسان عن إنسان آخر إلا بمقدار ما يختلفان في عوامل البيئة والتربية والوراثة ، وفي درجة المؤثر العائق الذي يحول بينهم وبين فطرهم السليمة .

ولتلك العوائق والمؤثرات التي تحول بين الناس وفطرهم يمكن تفسير انصراف كثير منهم عن الإيمان الصحيح والاعتقاد الحق بوجود الله / تعالى / الواحد الأحد ، والإيمان الكامل برسول الله محمد / صلى الله عليه وسلم / إن كثيرا منهم اتجهوا إلى العقائد الزائفة الباطلة ، ونسوا العقائد الحقة الصحيحة ، إنهم اندفعوا بكل قوة إلي التعامل مع الماديات المحسوسة الملموسة ، وأسرفوا في ذلك ، وأغفلوا عقولهم وفطرهم عن كل ما عداها من قيم روحية ومثل إنسانية ومبادئ سلوكية ، وأنكروا كل

---

(1) *انظر : القاسمي. دلائل التوحيد ص 16 .*

ما عدا المحسوس من موجودات ، وبذلك غالطوا أنفسهم ، وخالفوا طبائعهم وفطرهم ؛ وحكموا حكما لا يرتضيه العقل السليم ، ولا البصيرة النافذة بأنه لا موجود إلا المحسوس ، وأن كل مالا يناله الحسن بجوهره ففرض وجوده محال ، وهذا – كما ترى – من أوهام الغلط ، وتصوير الإنسان غير السوي ، وتقدير العقل غير المكلف ، وإلا فإن في مقولتهم – هذه – إنكارا لذواتهم ولكيانهم ذاته ، بل لكثير من الأشياء التي نؤمن بها ولا نستطيع رؤيتها أو إحساسها .

ومن هنا فإن نزعة الإلحاد وإنكار الألوهية في الأمم والجماعات إنما يرجع إلي نوع من الانحراف الفكري والعقدي سببته عوامل البيئة والوراثة والمؤثرات الأخرى ، وهذا الانحراف يفسد الفطرة ، ويميل بها عن سواء السبيل وصراط الله المستقيم الذي ينبغي أن يكون هو المتبع دائما : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله[1]) .

ولكن هل يعني القول بأن وجود الله / تعالى / أمر فطرى في النفوس القول بأنه تعالى بدهي ولا يحتاج إلي فكر واستدلال ؟ والجواب على ذلك : أن علماء التوحيد يقولون إن وجود الله / تعالى / يثبت عن طريق الاستدلال ، وطريق الوصول إلي معرفة الله / تعالى / هي النظر في آثاره يرشدنا إلي ذلك القرآن الكريم .

---

(1) سورة الأنعام : جزء من الآية رقم 154 .

فالمقصود بالاستدلال استدلال الإنسان بُما نبه عليـــه القــرآن مــن البراهين الدالة على وجوده التي تنتهي إلي أن الضرورة قاضية بأن هـــذه السموات الأرض والمخلوقات التي لا تحصي لابد لها من خـــالق ، إذ أن وجود الشي عن فاعل ، أو فكرة السببية أمر بدهى في فطرة الإنسان [1].

ويرى علماء السلف أن معرفة الله / تعالى / ضرورية ولا تحتـــاج إلي نظر واستدلال ولعل فيما سلف يفهم منـــه التوفيـــق بيـــن الاســـتدلال والضرورة .

ولا أدرى كيف يهاجم بعض المؤلفين المحدثين مناهج علماء التوحيد في الاستدلال على وجود الله / تعالى / ويصرون على أن نداء الفطـــرة ، وأدلة القرآن الكريم على وجود الله / تعالى / كافية في الاستدلال .!!

والســـؤال هو : هل استدلالات علماء التوحيد خارجـــة عـــن هـــذا النطاق ؟

إن ما استدل به علماء التوحيد على وجود الله / تعـــالى / وإثبـــات صفاته العلية لا يخرج في جوهره ومضمونه عن أدلة القـــرآن الكريـــم ، والناظر في مؤلفات علماء التوحيـــد يجـــد أن كـــل أقوالـــهم وتقريراتـــهم واستنتاجاتهم لا تخرج في مضمونها عن هذا الإطار .

---

(1) انظر : صالح الزركان . فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية ص 197 .

فمثلا عندما يستدلون بدليل الحدوث ــ كما سبق ــ فإنما يبنون هــذا الدليل على أساس أن هناك خالقا ومخلوقا ، أو ســـــمه إن شــئت صانعــا ومصنوعا أو قديما وحادثا .

والناظر في القرآن الكريم يجد فيه آيات كثيرة في هـــذا المغنـــي ، انظر إلي قول الله / تعالى / : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الـــذي خلقكــم والذين من قبلكم لعلكم تتقون [1]) .

ففي هذه الآية الكريمة ــ ونحوها ــ يوجه المولي / عـــز وجــل / نداءه إلي الناس بأن يعبدوه وحده لأنه هو الذي خلقهم وخلق من قبلـــــهم . فإذن هناك خالق ومخلوق ورب ومربوب .

وعلماء التوحيد نظموا دليلا لوجود الخالق رب العالمين على أســاس أن لكل مخلوق خالقا ، ولكل حادث محدثا وهو الله / جل شأنه / .
غاية ما فيه أن هؤلاء العلماء ساروا على منهج الاستدلال العقلـــي ، وزادوا من الأقيسة المنطقية مما جعل كثيرا من الناظرين فيـــها يعتقــدون أنها خارجة عن أدلة القرآن الكريم ، وهذا فهم بعيد عن الصواب ــ مـــن وجهة نظري ــ .

ثم إن المنتقدين لعلماء التوحيد ومناهجهم في موضوعات هذا العلـــم يفيدون منهم من حيث لا يشعرون ، ويسيرون على مناهجهم من حيـــث لا يدرون .

---

(1) سورة البقرة: الآية 20 .

وإلا فكيف يذكرون في مؤلفاتهم الإستدلال على أن مخلوقات الله / تعالى / ومصنوعاته تدل على وجود صانعها وخالقها ، ويسترسلون في ذلك مستشهدين بأقوال العلماء المحدثين من أطباء ومهندسين وجيولوجيين وعلماء رياضة وفلك الذين أثبتوا من خلال دراساتهم أن لهذا الكون خالقا عظيما ومدبرا حكيما ؛ وهو نفس ما توصل إليه ــ منذ مئات السنين ــ علماء التوحيد ، مثل أبي الحسن الأشعرى ، وأبي حامد الغزالى ، وفخر الدين الرازى ، والجويني ، والباقلاني وغيرهم من العلماء الأجلاء - رحمهم الله تعالى ــ .

نعم إن وجود الله / تعالى / في حكم البدهيات الأولية والمسلمات العقلية ، وما كان كذلك لا يطالب بإقامة الدليل عليه إلا المكابر ، كالأعمى الذي يطلب إقامة الدليل على وجود الشمس أثناء النهار في فصل الصيف .

فهل علماء التوحيد الذين استدلوا على وجود الله / تعالى / عمي لا يبصرون ؟

إن الباحث المنصف لا يمكن له إلا أن يسلم بأن علماء التوحيد ليسوا عميا لا يبصرون ، بل هم ذوو بصيرة نافذة ورأى مستنير ، ويعلمون علما يقينيا بأن وجوده / تعالى / ظاهر للعيان ، ولا يحتاج إلي دليل وبرهان ، وإنما ساقوا ما ساقوا من الأدلة والبراهين ما يهدى إلي الحق ، ويكشف عن وجه الصواب ، مسترشدين بالقرآن الكريم . وسنة خير المرسلين محمد / صلى الله عليه وسلم / موجهين تلك الأدلة والبراهين

نحو المعاندين والملحدين والزنادقة الذين لا يؤمنـــون بـــالنص والوحـــي المنزل ، مفرقين في نفس الوقت بين العقيدة التـــي هـــي واضحـــة كـــل الوضوح والتي ينبغي أن تؤخذ من القرآن الكريم ومـــن الســـنة النبويـــة ، وبين الردود العلمية والمصطلحات المنهجية التي هي موجهة ضد الزنادقـــة والملحدين في كل عصر ومكان .

وأخيرا فإن علماء التوحيد قد أثروا الفكر الإسلامي ، ودافعوا عـــن العقيدة الإسلامية بكل قوة ، وتغلبوا على الخصوم ، وهذا أمر لا ينكـــره إلا مكابر أو جاحد .

وإذا كانت الشبه والأبحاث التي وجدت في الماضي لا مكـــان لـــها اليوم ، فإن المنهج لا يختلف وإن اختلفت أنواع الشبه والخداع .

المبحث الحادي عشر

صفات الله تعالـــى

المبحث الحادي عشر
صفات الله تعالـــى

مما يجب الإيمان به إيمانا جازما إن الله / تعـــالى / متصـــف بكـــل صفات الكمال ، ومنزه عن جميع صفات النقصان ، فالله / تعالى / يجـــب أن يتصف بكل كمال ، وينزه عن كل نقص ، إذ أن صفات الكمـــال مـــن مقتضيات كمال ربو بيته وعظمة ألوهيته ،

وقد وصف المولي / تبارك وتعالي / نفسه في كتابه الكريم بصفـــات كثيرة متنوعة ، إلا أن معاني هذه الصفات الكثيرة تدخـــل تحـــت معنـــي عشرين صفة رئيسة ثبتت بدلالة القرآن الكريم ، وبالبراهين العقلية .

وبهذا فإن متأخري علماء التوحيد يقولون إن من الصفات ما يجـــب معرفته تفصيلا ، وهو ما قام الدليل التفصيلي عليه ، وهي عشرون صفـــة ، ومنها ما يجـــب معرفتـــه إجمالا ، وهو كـــل كمال يليـــق بذات البـــاري عز وجل .

وقد جرت عادة المتكلمين ــ المشار إليهم ــ أن يقسموا الصفات إلي نفسية وسلبية ومعان ومعنوية ، وجعل المعنوية قسما منها بناء على القـــول بالأحوال (أي الواسطة بين الموجود والمعدوم) .

وفي حديثنا عن صفات الله / تعالى / لا نتعرض للخلاف الـــذي دار بين علماء الكلام فيما يتعلق بزيادة الصفات على الذات لأنها ليســـت مـــن

الأصول التي كلفنا باعتقادها ، ولهذا فإن الوقف فيها أنسب وأسلم للإنسان المسلم ، ذلك لأن العقل البشري قاصر عن إدراك ذلك كله ، فهو لا يستطيع أن يصل إلي كنه ذات الباري – عز وجل – ، كما لا يستطيع اكتناه الصفات ، ويكفينا اعتقاد أن نعلم أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك فهو مما استأثر الله به .

** أولا – الصفة النفسية.

المراد بالصفة النفسية هي صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معني زائد عليها ، وهي صفة واحدة هي الوجود ، أي هو الموجود الحق لذاته .

ومعني الوجود بدهي يدركه الإنسان والحيوان ، فإن الحيوان إذا سمع صوتا يدرك أن صاحبه موجود ، فمن عرف الوجود بأنه هو الثبوت – ونحوه – فإنما أراد التمثيل له بذكر شئ من خواصه .

وقد تقدم لنا فيما يتعلق بوجود الله / تعالى / وأدلة وجوده ، وهي نفس الأدلة والبراهين لمسألة الوجود ، حيث إن صفة الوجود ليس شيئا آخر غير ذاته – جل شأنه – .

فوجود المولي / سبحانه وتعالي / وجود كامل دائم ذاتي بمعني أنه موجود لذاته لا لعلة مؤثرة فيه ، ومن خصائص الوجود الذاتي أنه لا يقبل العدم .

** ثانيا ــ الصفات السلبية.

والمراد بالصفات السلبية كل صفة مدلولها عدم أمر لا يليــق بـــالله ــ عز وجل ــ وإنما نسبت هذه الصفات للسلب لأن حقيقة كل واحدة منــها سلب نقص لا يليق به / سبحانه وتعالي / وهي ليست صفات موجودة فـــي نفسها كالعلم والقدرة ونحوهما من سائر صفات المعاني ــ الآتي ذكرهــا ــ والمقصود بالسلب النفي بمعني الانتفاء [1] .

وهذه الصفات ليست منحصرة ، لأن جزئياتها كثيرة ، غير أن هنــاك خمس صفات هي أمهات الصفات السلبية كلها ، فيكتفي بها عما سواها مــن الجزئيات لأنها راجعة إليها .

1 ــ القدم ، فهي صفة سلبية معناها عدم افتتـــاح الوجـــود ، أو عدم أولية الوجود وكلها بمعني واحد ، أي أنـــه / تعـــالى / قديـــم لا أول لوجوده ، وأن وجوده غير مسبوق بعدم ، فالقدم هو سلب أولية الوجود .

فالله / تعالى / هو الموجود الذي سبق وجوده كـــل وجـــود ، فكـــان ــ تعالى ــ وحده ولا شئ معه ، ثم خلق ما شاء من مخلوقاته بكلمة منه .

والدليل من القرآن الكريم على أن الله ــ تعالى ــ قديـــم لا أول لـــه قوله ــ جل شأنه ــ : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ

---

(1) انظر : عبد العزيز جاب الله . الدليل الصادق. ج1 ص86 - 87 .

عليم [1]) .

ومعني ذلك أن الله ــ سبحانه وتعالي ــ لا أول لوجـــوده ولا آخـــر لوجوده ، فهو ــ سبحانه ــ أزلي وأبدي لا يسبقه عدم ، ولا يلحقه فنـــاء ، الظاهر بآثاره الدالة على وجوده ، الباطن الذي لا تدركـــه الحـــواس ، ولا تحيط بذاته العقول .

ولعل سائلا يسأل ــ هنا ــ كيف وصف علماء التوحيد الله /تعـــالى/ بصفة القدم مع أنها لم ترد في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية ؟ .

والجواب على ذلك أن المسلمين قد أجمعوا على صحة إطلاق نحـــو القديم ، والواجب ، والموجود على الله / تعالى / والإجمـــاع يعتـــبر مـــن الأدلة الشرعية ، بالإضافة إلي أن في قولـــه / تعـــالىَ / : (ومـــا نحـــن بمسبوقين [2]) . إشارة إلي وصفـــه تعالي بالقدم ، بمعنـــي أن وجـــود الله / تعالى / غير مسبوق بعدم ، والقدم ــ كما تقدم ــ معنـــاه ســـلب العـــدم السابق على الوجود [2]) .

---

(1) *سورة الحديد. الآية رقم 3 .*

(2) *سورة الواقعة. جزء من الآية رقم 63 .*

(2) *انظر : توضيح العقائد. عبد الرحمن الجزيري ص75 .*

2 ـ ***البقاء*** ، الصفة الثانية من الصفات السلبية البقاء ، ومعنـــاه امتناع لحوق العدم بذاته -جل جلاله - أو بمعني آخـــر أن وجـود الله / تعالى / ليس له آخر ، كما أنه ليس له أول ، فمعني كـون الله / تعـالى / باقيا أنه لا آخر لوجوده .

وقد ورد وصفه ــ تعالى ــ بالبقاء في القرآن الكريم فـــي قولــه / تعالى / : (كل من عليها فان ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكـــرام [1]) ، وفي قول/ تعالى / : (كل شئ هالك إلا وجهه [2]) .

فهذه الآيات الكريمة ــ وغيرها ــ تدل بأجلى بيان علـــى وجــوب وجوده ولوازم هذا الوجود من القدم والبقاء ، فإن للواجب أحكاما لا تنفــك عنه من حيث هو واجب ، ومنها البقاء ، فإن ما يقبـــل الفنــاء لا يكــون وجوده لازما من لوازم ذاته لذاته . إذن فواجب الوجود متصـــف بصفــة البقاء .

3 ـ ***مخالفته تعالى للحوادث .***

ومعناها عدم المماثلة والموافقة لشي من الحوادث في الذات ، وفـــي الصفات ، وفي الأفعال .

---

(1) سورة الرحمن . الآيتان 27 - 28 .

(2) سورة القصص الآية 88 .

فمخالفته ــ تعالى ــ للحوادث ثابتة بالنقل والعقل ، فأما النقــل فقــد قال الله ــ تعالى ــ : (ليس كمثله شئ وهو الســـميع البصــير[1]) ، أي ليس كذاته شئ ، فالآية الكريمة نفت أن يكون له شبيه علـــى أبلــغ وجــه بطريق الكناية فإن معناها ــ والله أعلم بمراده ــ ليس كهو شئ ، أي نفــي المثلية عنه / تعالى / ، وإدخال كاف التشبيه على لفظ المثل مبالغـــة فـــي نفي الشبيه والمثل لله ــ جل جلاله ــ .

ويقول الله / تعالى / : (ولم يكن له كفؤا أحد[2]) ومعني (كفــؤا) في الآية الكريمة المماثل ، فهذه الآية ــ كذلك ــ تنفـــي المثليـــة عـــن الله / تعالى / في أوضح عبارة وأبلغ بيان .

وأما الدليل العقلي فلأنه لو أشبه شيئا من خلقه لكان حادثا لا يصلــح أن يكون مصدرا لإيجاد الممكنات ، وقد ثبت قدمه / تعالى / بالدليل ، فــلله / تعالى / ــ إذا ــ منزه عن الشبيه والنظير ومتعال عن صفات الحـــوادث علوا كبيرا .

ثم إن المماثلة قد يراد بها الاتحاد في الحقيقة فيقال هذا مثـــل ذاك ، بمعنـــي أن حقيقتهـــما واحدة ، وبدهى أن هذا المعني يستحيـــل علـــى الله / تعالى / لأن حقيقة الإله الواحد يستحيـــــل أن تكـــون مماثلـــة لحقيقـــة

---

(1) سورة الشورى. جزء من الآية رقم 9 .

(2) سورة الإخلاص . الآية رقم 4 .

الحوادث ، وقد يراد بها أن أحد المثلين يحل محل الآخر في وصف من الأوصاف وإن لم تكن حقيقتهما واحدة ، وهذا أيضا محال لأن صفات الله لا يمكن أن تماثلها صفات أحد من خلقه في شئ فإن العلم الحادث ـ مثلا ـ له حد ينتهي إليه ويقف عنده ، أما علم الله / تعالى / فإنه محيط بالكائنات جملة وتفصيلا وقس على ذلك بقية صفات الباري ـ تبارك وتعالى ـ .

4 ـ صفة القياس بالنفس .

الصفة الرابعة من الصفات السلبية قيامه / تعالى / بنفسه ، ومعناها استغناؤه / تعالى / عن المحل والمخصص ، فالله / جل شأنه / لا يفتقر إلي محل أي ذات يقوم بها ، ولا يحتاج إلي مخصص أي موجد يوجده ، فقد كان الله / تعالى / قبل وجود أي شئ ، وقبل وجود الزمان والمكان فالله / جلت قدرته / لا يحتاج إلي مكان يحل فيه ، ولا يحتاج إلي فاعل يخصصه ببعض ما يجوز عليه كتخصيص الممكنات فهو الغني عن كل من وما سواه ، يقول المولي / تبارك وتعالى / : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلي الله والله هو الغني الحميد [1]) .

---

(1) سورة فاطر . الآية 15 .

والدليل على ثبوت هذه الصفة لله /تعالى/ قوله /عز وجـــل/ : (الله الصمد [2])

فالصمد هو الذي لا يحتاج إلي شئ ويحتاج إليه كـــل شـــئ (فـــهو المقصود وهو المصمود إليه في كل الأمور أي أنه المقصود في الرغـــائب المستعان به عند المصائب [1]) .

فالله / جل شأنه / هو الذي يتوجه إليه الخلق ويطلبون منـــه العـــون والتوفيق والسداد ، لأن الإنسان – باعتباره مخلوقا – دائما في حاجة ماسة إلي الله / تعالى / الخالق الغني الحميد تقدست أسماؤه .

5ـــ الوحدانية .

وهي الصفة الخامسة والأخيرة من الصفات السلبية ، ومعناها ســـلب تصور الكمية في ذاته وصفاته / تعالى / وبعبـــارة أخـــرى فـــإن معنـــي الوحدانية عدم التعدد ، وهي أنواع : وحدة الـــذات ، ووحـــدة الصفـــات ، ووحدة الأفعال .

أما وحدة الذات فمعناها عدم تركب الذات من أجزاء ، وكذلك عـــدم وجود ذات تماثل وجود ذاته تعالي .

---

(2) سورة الاخلاص. الآية 2 .

(1) انظر : فخر الدين الرازى . التفسير الكبير مجلد 8 ص 534 - 535 .

وأما وحدة الصفات فمعناها عدم وجود صفتين فأكثر من جنس واحد له تعالي كقدرتين ، وقدرات ، وإرادتين وإرادات ، وكذلك عـــدم وجـــود صفة لغير الله / تعالي / تماثل صفته ــ عز وجل ــ .

وأما وحـــدة الأفعال فمعناها عدم وجود فعل لغير الله يماثـــل فعلـــه / سبحانه وتعالي [1] / .

بناء على ما تقدم فإن المقصود بوحدانية الله / تعالي / الجزم واليقين بأنه جلت قدرته ليس كلا مركبا من أجزاء ، ولا كليا مكونا من جزئيـــات . والدليل على ذلك قوله / تعالي / : (قل هو الله أحد [2]) . فالله / تعـــالي / أحد أي أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله فقد نفت هذه الآيـــة الكريمـــة ــ بإسناد صفة الوحدانية إليه تعالي ــ كلا من صفة الكل والكلية عنه ، فقولـــه / تعالي / : (أحد) دال على أنه واحد وحدة مطلقة وهي صفة من صفـــات الله / تعالي / استأثر بها فلا يشاركه فيها شئ [3] .

فقـــد بين الله / عز وجل / أولا ألوهيته المســـتتبعة لكافـــة نعـــوت الكمال ، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجـــه مـــن الوجوه ، وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها ، ثم صمديته المقتضيـــة

---

(1) *انظر : مذكرة التوحيد. حسن السيد متولي ص53 – 54 .*

(2) *سورة الإخلاص آية 1 .*

(3) *انظر : الرازي التفسير الكبير مجلد8 ص 533 .*

لاستغنائه الذاتي عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه في وجودها وبقائها وسائر أحوالها تحقيقا للحق [4] .

والدليل على أن الله واحد لا شريك له قوله / تعالي / : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [1]) .

ففي هذه الآية الكريمة بين المولي / عز وجل / أنه لو كان في السماوات و الأرض آلهة تدبر أمرهما وتتصرف فيهما غير الله / تعالي / الخالق لهما والمدبر لأمرهما لاختل نظامهما ولم توجدا بالمرة وذلك لتنازع المدبرين لهما ، إذ أنه لا يمكن الاتفاق بين الآلهة بدليل قوله / تعالي / : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون [2]) .

فقوله / تعالي / : (ما اتخذ الله من ولد) هو كالتنبيه على أن ذلك من قول هؤلاء الكفار فإن جمعا منهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله تعالي الله عن قولهم علوا كبيرا ، وقوله / تعالي / : (وما كان معه من إله) وهو قولهم باتخاذ الأصنام آلهة ، ثم ذكر الحجة الظاهرة البينة بقوله : (إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) فالله / تعالي لا

---

(4) انظر: تفسير أبي السعود على هامش الرازى مجلد 8 ص 541 .

(1) سورة الأنبياء . آية 22 .

(2) سورة المؤمنون. الآية 92 .

ينبغي أن يكون معه إله لأنه لو كان معه إله يشاركه في الألوهية ، ويخلق معه لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، والمعني لغالب بعضهم بعضا ليوسع ملكه ، ولو حصل هذا لفسد نظام العالم ، وأيضا لو كان معه آلهة كما يزعم المشركون الذين اتخذوا الأصنام آلهة من دون الله / تعالي / لطلبوا مغالبة الله / تعالي / ومزاحمته جل شأنه ، يقول الله / تعالي / : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلي ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالي عما يقولون علوا كبيرا [1]).

فقوله تعالى : ((لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)) هو حجة قطعية لأن المراد بفساد السموات والأرض في الآية عدم تكونهما ، ويكون الدليل على هذا أنه لو فرض صانعان لأمكن بينهما تمانع في الأفعال فلم يكن أحدهما صانعا فلم يوجد مصنوع ، لأن التعدد يستلزم إمكان التمانع ، وإمكان التمانع يستلزم أن لا يكون أحدهما صانعا فلم يوجد مصنوع .

ومن هنا فإن هذه الآية حجة قطعية على وحدانية الباري ، وإن قال بعض علماء التوحيد أنها جرت مجرى الأدلة الخطابية لتوجيه القول فيها إلي الخاصة والعامة ، فقد أشار هؤلاء إلي أن الاختلاف بين الإلهين الاثنين أو بين الآلهة الكثيرة غير لازم عقلا لجواز الاتفاق وهو زعم

---

(1) سورة الاسراء. اية 43 .

ظاهر البطلان كما يقول العقاد[1] . لأن الكمال المطلق لا يكـــون كمـــالين مطلقين ، والآلهة المتعددة فهي إن أطاعت الله ولم تخـــرج عـــن قضائـــه وقدرتـــه فحكمها حكم المخلوقات ، وإن كانت لا تطيعـــه فـــهي تنازعـــه وتبتغى ، (إلي ذي العرش سبيلا)) فلا يستقيم على ذلك أمر الوجود .

مما تقدم يتضح لنا أن الله تعالى واحد في ذاته وفى صفاتـــه وفـــى أفعاله ، وأن أساس عبادة الله توحيده / عز وجل / والشهادة لـــه بأنـــه لا معبود بحق إلا هو الواجب الوجود الواحد المتفرد بالعبودية المتصف بكـــل صفات الكمال والجلال لا يشبه شيئا من خلقـــه ولا يشبهه شئ من خلقـــه ((ليس كمثله شئ وهو السميع البصير[2])) ، ((شهد الله أنـــه لا إلـــه إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم [3]) .

فالله الواحد هو المعبود بحق وما سواه باطل ، بهذا جاء القرآن فـــي العديد من آياته الكريمة ، منها قوله / تعالى / : (واعبدوا الله ولا تشـــركوا

---

(1) في كتابه الفلسفة القرآنية ص 101 - 102 .

(2) سورة الشورى. الآية 11 .

(3) آل عمران . الآية 18 .

به شيئا [1]) ، ومنها قوله / تعالى / : ((ولقد أرسلنا نوحا إلي قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون [2]) .

إن توكيد القرآن الكريم لوحدانية الله / تعالى / كتوكيده لوجود الله ، بل هو أشد وألزم في عقيدة الإسلام لأن الإيمان بالله الأحد ألزم من الإيمان بالعقيدة الإلهية على إطلاقها ، فالإيمان بأكثر من إله واحد مفسد لفهم الكون ، ومفسد لفهم الضمير ، ومفسد لفهم الواجبات الأدبية والفرائض الدينية ، ومفسد لعلم الإنسان بحقيقة الإنسان [3] .

إن وحدانية الله / تعالى / والدعوة إلي عبادته وحده / سبحانه وتعالى / هو أمر انعقد عليه إجماع الأنبياء والمرسلين / عليهم الصلاة والسلام / إذ أنهم دعوا المكلفين إلي التوحيد ، ونهوهم عن الإشراك في العبادة ، ورسالات السماء كلها جاءت للتعريف بالله الواحد الأحد وكشف معالم الطريق إليه ، فكل الأنبياء والمرسلين / عليهم الصلاة والسلام / منهجهم منهج واحد وطريق واحد لأنه أعدل منهج وأقوم طريق إنه الدعوة إلي عبادة الله الواحد الأحد .

---

(1) *سورة النساء. الآية 36 .*

(2) *سورة المؤمنون. الآية 23 .*

(3) *انظر : العقاد. الفلسفة القرآنية ص 101 .*

• ثالثا ـ صفات المعاني.

المراد بصفات المعاني كل صفة قائمة بذاته عـز وجـل ، تستلزم حكما معينا له ، كصفة القدرة مثلا ، فهي تستلزم أن يكون المتصف بـها قادرا .

وصفات الكمال لله / جل جلاله / كثيرة ، وقد بين علمـاء التوحيد الذين أثبتوا صفات المعاني لله / تعالى / أن صفـات الكمـال لـه / جل وعلا / تجتمع في سبع صفات رئيسة معينة ، قام عليها الدليل التفصيلي من الكتاب ، وهذه الصفات السبع هـي : العلـم ، والإرادة ، والقـدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والحياة .

ويرى الإمام الأشعري ـ بحق ـ : ((أن الأفعال المحكمـة التـي صدرت عن الخالق / جل وعلا / حين دلت على أنه عالم أو قـادر دلـت على علمه وقدرته ، إذ ليس معنى العالم سوى من له علم موجود ، وليـس معنى القادر سوى من له قدرة حاصلة ، ومن لم يعلم لإنسان ما علمـا أو قدرة موجودة لا يستطيع وصفه بأنه عالم أو قادر ، وإذا فعلم الله وقدرتـه وغيرهمـا من الصفـات الذاتية أمور وجودية أزلية قائمـة بـالله / عـز وجل [1] / .

---

(1) أبو الحسن الأشعري اللمع في الردعلى أهل الزيغ والبدع. تقديم د. حمودة غرابة ص 26 - 27 .

1 ـ القدرة .

تعريفها : القدرة لغة القوة والإستطاعة .

واصطلاحا : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة .

شرح التعريف : ((صفة أزلية)) والمراد بذلك أنها صفة قديمة ، وهذا كالجنس في التعريف تشمل جميع الصفات لأنها كلها قديمة . ((قائمة بذاته تعالى)) يخرج بهذا القيد ماعدا صفات المعاني لأن غير الموجود لا يقوم بالذات .

((يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه)) يخرج بهذا القيد ماعداها من صفات المعاني .

والمراد بأن القدرة يتأتى بها إيجاد كل ممكن أن صلاحيتها أزلا للإيجاد والإعدام فيما لا يزال ، والمعنى أن الله تعالى له القدرة المطلقة على إيجاد الممكنات وإعدامها ، فالتأثير كل التأثير حقيقة لله جل شأنه .

والقدرة تتعلق بجميع الممكنات ، ولا تتعلق بالواجب لما يلزم عليه من تحصيل الحاصل إن تعلقت بإيجاده ، أو قلب الحقائق إن تعلقت بإعدامه ، ولا تعلق لها بالمستحيل لما يلزم على تعلقها به لإيجاده من قلب حقيقته ، أو تحصيل الحاصل إن تعلقت بإعدامه .

ومعنى على وفق الإرادة في التعريف المذكـــور لبيـــان أن تعلـق الإرادة يترتب عليه تعلق القدرة فما تخصصـــه وترجحـــه الإرادة تـــبرزه القدرة .

والدليل العقلي على وجوب القدرة لله / تعـــالى / : أن العـــالم فعـــل محكم ، وكل فعل محكم فهو صادر عن فاعل قادر ، فالعالم صـــادر عـــن فاعل قادر[1] .

وهذا الدليل واضح المعنى من خلال مقدمتيه الصغرى والكبرى ، إذ أن صنع الله متقن ومحكم ، ويدل عليه الإحساس الظاهر والإدراك البـــاطن والمقصود بإتقان صنع الله وإحكامه ما فيه من حسن الترتيب وكمال النظام وتناسب الأجزاء ، فكل من ينظر في نفسه ويتأمل في أعضائـــه الظـــاهرة وقواه الباطنة ، وكذلك كل من يتصفح الكون من حوله ، فإنه يدرك / فـــي وضوح / ما في العالم من الإحكام والنظام ، وكل ذلك يدل على أن لـــهذا العالم المحكم المنظم إلها قادرا له قدرة زائدة على ذاته بها يتـــهيأ الفعـــل للفاعل وبها يتحقق في الواقع[2].

إن إيجاد الأشياء من عدم محض ، وحفظ وجودها وتوجيهـــها إلـــي أداء وظائفها يدل على أن مبدعها قادر على ذلك كله بقدرة عامة شـــاملة إذ

---

(1) *انظر : الاقتصاد في الاعتقاد / الغزالي / تحقيق :عثمان عيش ص 149 - 150 .*

(2) *نفس المصدر السابق ص 152 .*

لو كان عاجزا ــ تعالى الله وتقدس ــ لما وجد شيء من ذلك أبدا وبـــهذا ثبتت له / سبحانه / صفة القدرة الشاملة العامة .

والآيات الكريمة تبين / بكل وضوح / أن الله تعالى متصف بـــالقدرة على إيجاد كل الممكنات غير المتناهية ، يقول الله تعالى ((تبـــارك الـــذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير [1]) ويقول / تعالى / (وربك الـــذي يخلق ما يشاء ويختار[2]) ويقول الله / تعالى / ((الله الـــذي خلـــق ســـبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله علـــى كـــل شيء قدير [3]) .

فالله / تعالى / لما كان مالك الملك وجب أن يكون قادرا على جميـــع الأشياء ، والقدير مبالغة في القادر وهو من ألفاظ المجانسة للقادر ، فلمـــا كان قديرا على كل الأشياء وجب أن لا يمنعه / البتة / مانع مـــن إيجـــاد شيء من مقدوراته .

ومن دلائـــل القـــدرة قوله /تعالى / ((الذي خلـــق ســـبع ســـموات طباقا [4]) فخلق السموات بهذه الصفة التي نراها من حيث هي معلقة فـــي

---

(1) سورة الملك آية 1 .

(2) سورة القصص : جزء من الآية رقم 68 .

(3) سورة الطلاق : جزء من الآية رقم 12 .

(4) سورة الملك. آية 3 .

الهواء بلاعمد ، ومن حيث إن كل واحد منها اختص بمقدار معين مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص ، ومن حيث كذلك أنه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء إلى جهة معينة ، وغير ذلك من الأمور المتعقلة بخلق السموات كل ذلك يدل / دلالة واضحة / على اتصاف الله / تعالى / بالقدرة التامة التي لا يعجزها أي شي [1] .

إن كتاب الله الخالد قد وضح لنا كثيرا من المظاهر على كمال قدرته ، ومن ذلك قوله / تعالى / ((أو لم يروا إلي الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن [2]) .

فالله / جلت قدرته / قد خلق الطير وسخرها للطيران في الهواء بكيفية خاصة بواسطة أجنحتهن في الجو عند طيرانها ويقبضن ويضمنها إذا ضربن بها جنوبهن ، وما يمسكهن إلا الرحمن وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه .

ومن ذلك قوله / تعالى / : ((قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون [3]) وهذه الآية / كسابقتها / دليل

---

(1) انظر : الامام الرازي. التفسير الكبير مجلد 8 ص 170 .

(2) سورة الملك. آية 19 .

(3) سورة الملك آية 23 .

كامـــل وبرهان صادق على كمـــال قدرته ، ومتى ثبـــت ذلك ثبـــت كونه / تعالى / قادرا على إيصال جميع أنواع العذاب إلي المكذبيـــن بآيـــات الله / تعالى / .

لقد بين في هذه الآية الكريمة / أحوال الناس وكيف أمدهم بالســـــمع والأبصار والأفئدة ، وهى كلها عجائب تدل على القدرة التامة ، وكـــأن الله / تعالى / يقول : أعطيتكم هذه الاعطاءات الثلاثة مع ما فيها مـــن القـــوى الشريفة لكنكم ضيعتموها فلم تقبلـــوا مـــا ســـمعتموه ، ولا اعتـــبرتم بمـــا أبصرتموه ، ولا تأملتم في عاقبة ما عقلتموه وكأنكم ضيعتم هـــذه النعـــم ، وأفسدتم هذه المواهب ، فلهذا قال : (قليلا ما تشكرون) ، وذلك لأن شكر نعمة الله /تعالي/ هو أن نصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه ، وأنتـــم لمـــا صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلي طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمتـــه البتة[1].

وبهذا تعلم أن التأمل اليسير في مصنوعات الله وعجائب مخلوقاتـــه من خلق السماوات والأرض والليل والنهار والحياة والموت وما يجرى في الكون في كل لحظة كل ذلك وغيره يدل على قدرة الله الباهرة .

---

(1) انظر التفسير الكبير مجلد 8 ص 170 - 171 .

2 ـ الإرادة .

تعريفها : لغة القصد .

واصطلاحا : صفة أزلية قائمة بذاته / تعالي / من شأنها تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليها .

ومعني أن الإرادة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليها أن ما تتعلق به الإرادة إنما هو الممكن ، وجهة تعلقها تخصيصة وترجيحه ببعض ما يجوز عليها من الأمور المتقابلة المتنافية من وجود وعدم وتكيف بقطع النظر عن أى مؤثر خارجي ، فمثلا تخصص الإرادة وترجح " خالدا " بالوجود بدل العدم وبصفة البياض بدل السواد ، وبيوم الخميس دون غيره ، وبوجوده في مدينة الخمس دون بقية الأمكنة ، وبجهة المغرب دون المشرق ، وبكونه صغيرا دون كونه كبيرا ، وبكونه متعلما دون كونه جاهلا .

فإرادة الله نافذة في جميع مراداته على حسب علمه بها ، فما علم كونه (أراد كونه) في الوقت الذي علم أنه يكون فيه ، وما علم أنه لا يكون أراد أن لا يكون ، وأنه لا يحدث في العالم شئ إلا بإرادته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فصانع العالم مريد على الحقيقة عند أهل

الحق [1] .

وبهذا فإن الله يعلم في الأزل كل ما سيفعله وسيخلقه في الحين والوقت الملائمين لإرادته ومشيئته ، وهذا يعني بالضرورة أن إرادة الله التنجيزية مصاحبة لعلمه القديم ، فهو / سبحانه وتعالي / يتصرف في الكون حسب إرادته ومشيئته وحكمته ، إذا فتعلق الإرادة الواقعي بمراد من المرادات هو ما يسمي بالإرادة التنجيزية .

والإرادة عامة التعلق بجميع الممكنات خيرها وشرها ، والخير ينسب إلي الله / تعالي/ والشر لا يجوز نسبته إليه تأدبا مع المولي / تبارك وتعالي / إلا في مقام التعليم .

وعليه فالإرادة لا تتعلق بالمستحيل والواجب لما عرفت في صفة القدرة . والدليل العقلي على وجوب صفة الإرادة لله / تعالي / هو أن الله صانع العالم بالاختيار وكل من كان كذلك تجب له الإرادة ، فالله تجب له الإرادة .

أو تقول إن صفة الإرادة لو لم تكن موجودة وأزلية قائمة به تعالي للزم عليه نقيضها وهو الإكراه ، وهو يستلزم مكرها ، وذلك ينافي واجب الوجود ومعني الألوهية [2] .

---

(1) *انظر في ذلك الفرق بين الفرق للبغدادي ص 366 ، وكذلك لمع الأدلة لامام الحرمين . تحقيق : د. فوقية حسين ص 83 .*

(2) *انظر : البوطي. كبرى اليقينيات الكونية ص 127 .*

وقد دلت آيات كثيرة على أن الله مريد ، ومن ذلك قوله / تعـالي / : (إنما قولنا بشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون [1]). وقوله / تعـالي / : (ذو العرش المجيد فعال لما يريد[2]) . وقوله / تعــالي / : (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال [3]) .

3 ـ العلم .

تعريفه : صفة أزلية قائمة بذاته / تعالي / تتكشف بـها المعلومـات انكشافا تاما لم يسبقه خفاء . فهذه الصفة القائمة بذات الله / تعالي / يتـأتى بها كشف الأمور والإحاطة بها على ما هى عليه في الواقع ، أو على مـا ستكون عليه في المستقبل ، شاملة لكل المعلومات من الواجبات والجـائزات والمستحيلات ، فعلم الله / تعالي/ يتعلق بها كلها .

وهذه الصفة ليس من شأنها تخصيص الممكنات أو التـأثير عليـها بوجه من الوجوه ، ولكن شأنها مجرد الكشف والإطلاع ، سـواء تعلـق بواقع ظهر إلي الوجود ، أو بمغيب لا يزال في جوف العدم [4] .

---

(1) سورة النمل. آية 40 .

(2) سورة البروج. الآيتان 15 - 16 .

(3) سورة الرعد. الآية 11 .

(4) انظر : كبرى اليقينيات الكونية. محمد البوطي ص 125 .

وعلمه / سبحانه وتعالي / بالمعلومات على ما هي عليه ، وكونـــها وجدت في الماضي ، أو موجودة في الحال ، أو توجد في المستقبل أطـوار في المعلومات لا توجب تغيرا في العلم فالمتغيـر صفة المعلوم لا تعلـــق العلم ، فالله / تعالي / عالم بكل شئ وقد أحاط بكل شئ علما ، وعلمه لـــم يسبق بجهل ، ولا يعتريه نسيان ولا يتغير بزمان ولا مكان ، وعلمه كذلـك متعلق بالأشياء كلياتها و جزئياتها المتناهي منها وغير المتناهي .

والدليل على أن الله /تعالي/ عالم بجميع المعلومات ؛ أنه فاعل فعـلا متقنا محكما بالقصـد والاختيـار وكل من كان كذلـك فهو عالـم ، فـالله / تعالي / عالم .

فدليل الإحكام والإتقان من أظهر البراهين على علم الله / تعـالي/ ، ذلك لأنه هو الذي جاء به القرآن الكريم ، وشهدت بـــه الفطـرة السـليمة وأيدته الحجج القوية ((فهذه المصنوعات والأفعال صنعها متقـن وفعلـها محكم ، وكل صنع متقن وفعل محكم يدلان على علم صانعهما ، فإن مـــن رأى خطوطا منظومة تصدر على الإتساق من كاتب ، ثم اســـتراب فـي كونه عالما بصنعة الكتابة كان سفيها في استرابته ، فإذا قد ثبت أنه عـــالم بذاته وبغيره [1])) .

فهذا التكوين البديع الظاهر في الخلق دليل قاطع وبرهان ساطع على أن خالقـه /سبحانه وتعالي/ عالم بكل كبيرة وصغيـرة في هذا الكـون ،

---

(1) *الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد. تحقيق عثمان عيش ص 182 .*

وعلمه شامل للكليات والجزئيات .

يقول الإمام الغزالي : (الأصل الثاني العلم بأنه تعالي عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء صادق في قوله وهو بكل شئ عليم ، ومرشد إلي صدقه بقوله / تعالي/ : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير [1]) أرشدك إلي الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب في دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو في الشيء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله / سبحانه وتعالي / هو المنتهي في الهداية والتعريف [2]) .

والآيات القرآنية التي تدل على أن الله / تعالي / متصف بالعلم الشامل الكامل كثيرة ، منها قوله / تعالي / : (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة [3]) وقوله / تعالي / : (وأن الله قد أحاط بكل شئ علما [4]) .

---

(1) سورة الملك. الآية رقم 14 .

(2) الغزالي : إحياء علوم الدين ج1 ص 114 .

(3) سورة الحشر. جزء من الآية رقم 22 .

(4) سورة الطلاق. جزء من الآية رقم 12 .

وقوله / تعالي / : (ربنا وسعت كل شـــئ رحمـــة وعلمـــا [1]) .

وقوله / تعالي / : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في الـبر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فـــي ظلمـــات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين [2]) .

وقوله / تعالي / : (ألم تر أن الله يعلم ما في الســموات ومـــا فـــي الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدني من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم [3]) .

ويقول الله / تعالي / : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبـير [4]).

يقول الإمام الرازي / في تفسيره لهذه الآية الكريمة / إن معنـــي الآيـــة أن من خلق شيئا لابد أن يكون عالما بمخلوقاته ، وهذه المقدمـــة كمـــا أنـــها مقررة بهذا النص فهي أيضا مقررة بالدلائل العقلية ، وذلـــك لأن الخلـــق عبارة عن الإيجاد والتكوين على سبيل القصد ، والقاصد إلي الشي لابـد أن يكون عالما بحقيقة ذلك الشي ، فإن الغافل عن الشي يســـتحيل أن يكـــون

---

(1) سورة غافر. جزء من الآية رقم 6 .

(2) سورة الأنعام . الآية رقم 60 .

(3) سورة المجادلة. الآية رقم 7 .

(4) سورة الملك. الآية رقم 14 .

قاصدا إليه ، وكما ثبت أن الخالق لابد أن يكون عالما بماهية المخلوق لابد أن يكون عالما بكميته ، لأن وقوعه على ذلك المقدار دون ما هو أزيد منه أو أنقص ، لابد أن يكون بقصد الفاعل واختياره والقصد مسبوق بالعلم ، فلابد أن يكون قد علم ذلك المقدار ، وأراد إيجاد ذلك المقدار حتى يكون وقوع ذلك المقدار أولي من وقوع ما هو أزيد منه أو أنقص منه ، وإلا يلزم أن يكون اختصاص ذلك المقدار بالوقوع دون الأزيد أو الأنقص ترجيحا لأحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال ، فثبت أن من خلق شيئا فإنه لابد أن يكون عالما بحقيقة ذلك المخلوق وبكميته وكيفيته [1] .

4 ـ الحياة .

تعريفها : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها ثبوت الصفات السابقة من العلم والإرادة والقدرة وغيرها . فالله / جلت قدرته / هو الحي حياة كاملة ليس ثم أكمل منها ، لا يلحقها العدم ولا يقضى عليها بالانقضاء والفناء .

وقد أجمع أهل الحق على أن الحياة شرط في العلم والقدرة والإرادة ، وأن من ليس بحي لا يصح أن يكون عالما قادرا مريدا ، فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ، ولو تصور قادر وعالم

---

(1) الرازي : التفسير الكبير ج8 ص 177 .

فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك في حيـــاة الحيوانـــات عنـــد ترددها في الحركات والسكنات ، بل في حياة أرباب الخرف والصناعـات ، وذلك انغماس في غرة الجهالات والضلالات[1] .

فالعالـــم لا يمكن أن يصدر إلا من قادر مختـــار متصـــف بالحيـــاة الكاملة . وقد ذكـــر القرآن الكريم / في كثير من آياتـــه البينـــات / أن الله حي ، ومن ذلك قوله / تعالي / : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تـــأخذه سنة ولا نوم [2]) . وقولـــه / تعالي / : (ألم الله لا إلـــه إلا هـــو الحـــي القيـــوم [3]) . وقولـــه / تعالي / : (وتوكـــل علـــى الحـــي الـــذي لا يموت [4]) . وقوله / تعالي / : (وعنت الوجوه للحي القيوم [5]) .

5 > 6 ــ السمع والبصر .

المراد بهما: أما السمع فهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلـــق بالمسموعات أو بالموجودات ، فتدرك إدراكـــا تامـــا يغـــاير إدراك العلـــم

---

(1) *الغزالى : احياء علوم الدين ج1 ص114 .*

(2) *سورة البقرة. جزء من الآية رقم 253 .*

(3) *سورة آل عمران. الآية رقم 1 .*

(4) *سورة الفرقان جزء من الآية رقم 58 .*

(5) *سورة طه جزء من الآية رقم 108 .*

والبصر ، ويخالف طريق الإدراك في الحوادث ، فليس سمعه تعالى عن طريق التخيل والتوهم ، فالله / تعالى / منزه عن الحوادث فهو لا يشبهها في صفة السمع ولا في غيرها من الصفات ، والله / تعالى / سميع ولكن ليس على طريق تأثير حاسة ، ووصول هواء كما هو عند المخلوقات . وأما البصر فهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالمبصرات أو بالموجودات فتدرك إدراكا تاما لا على طريق التخيل والتوهم ، ولا عن طريق تأثير حاسة ، ووصول شعاع .

والذي يجب الإيمان به / بالنسبة لثبوت هاتين الصفتين لله / عز وجل / كما يقول الإمام الغزالي / بحق أن الله / تعالى / سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وكيف لا يكون سميعا بصيرا ، والسمع والبصر كمال لا محالة ، وليس بنقص ، فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ ، وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص في جهته ، والكمال في خلقه وصنعته ؟ ، أو كيف تستقيم حجة إبراهيم / صلى الله عليه وسلم / على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا فقال له : ((لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا [1])) ولو انقلب ذلك عليه في معبوده لأضحت حجته داحضة ، ودلالته ساقطة ، ولم

---

(1) سورة مريم جزء من الآية رقم 41 .

يصدق قوله تعالى : ((وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه [1]) وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة ، وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة وسميعا بلا أذن إذ لا فرق بينهما [2] .

وعليه فإن الله ــ جلت قدرته ــ متصف بصفة السمع التي تتعلق بكل المسموعات ، أو الموجودات ، مخالف سمعه لكل سمع المخلوقات ، ومتصف كذلك بصفة البصر التي تتعلق بالمبصرات ، أو الموجودات ، مخالف لكل بصر المخلوقات ، وبهذا جاء القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، يقول الله تعالى : ((ليس كمثله شئ وهو السميع البصير [3]) ،

ويقول تعالى : ((والله يقضى بالحق والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير [4]) .

وقد سمع الله تعالى قول التي شكت زوجها إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذت تجادله في قضيتها ، فأنزل الله / جل جلاله / قرآنا يتلى إلي يوم الدين ، يقول تعالى : ((قد سمع الله قول التي تجادلك في

---

(1) سورة الأنعام . جزء من الآية رقم 84 .

(2) الغزالى : احياء علوم الدين ج1 ص 114 .

(3) سورة الشورى. جزء من الآية رقم 9 .

(4) سورة غافر. الآية رقم 20 .

زوجها وتشتكى إلي الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير[1]) .

ولحديث أبى موسى الأشعري ــ رضى الله عنه ــ قال : كنا مع النبي / صلى الله عليه وسلم / في سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا ، فقال : ((اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، تدعون سميعا بصيرا[2]) .

وفى هذا الحديث أن الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ كانوا وهم في سفر مع الرسول الكريم / صلى الله عليه وسلم / إذا ارتفعوا وهم في الطريق على ربوة أو غيرها كبروا الله / تعالى / ، لأن ذكر الله مطلوب في كل حال ، وبخاصة في السفر ليكون سفرا مباركا آمنا بذكر الله / تعالى / فيه ، فيرشدهم الرسول / صلى الله عليه وسلم / بأن لا يرفعوا أصواتهم بهذا الدعاء والذكر تخفيفا وتيسيرا عليهم ، فالإسلام دين اليسر والسهولة . ويقول لهم : خففوا على أنفسكم ، وكبروا الله / تعالى / حتى في سركم لأنكم تدعون سميعا بصيرا قريبا من الداعي ، يجيب دعوته بأي حال من حالات الدعاء سرا أم جهرا .

مما تقدم يتضح لنا أن الله / تعالى / متصف بصفتي السمع والبصر ، وأن هاتين الصفتين الثابتتين لله / تعالى / لا تماثل مطلقا

---

(1) سورة المجادلة. الآية رقم 1 .

(2) مسند الامام أحمد ج4 ص 402 .

الصفتين اللتين تثبتان للبشـــر ، لأن صفـــات الله / تعـــالى / ـ بعامـــة ـ مخالفة لصفات المخلوقات ، يقول إمام الحرمين (الجويني) : ((ويجـــب وصف الله تعالى بكونه سميعا بصيرا ، والدليل عليه أن الواحـــد منـــا إذا أبصر فإنما يجرى منه تحديق في جهة المرئي ، واتصال أشعة بـــه علـــى مجرى العادة ، وإذا سمع فقد يقرع الهواء صماخيه ، ثم الإدراك الحقيقـــي يقع وراء الاتصالات التي ذكرناها ، وذلك الإدراك له مزيد علـــى العلـــم بالمغيب الذي لم يدرك . فالرب تعالى يدرك المبصـــر والمســـموع علـــى الحقيقة التي ندركها عليها ، ويتعالى عما تتصف بـــه الحـــواس والحـــدق والأصمخة [1])) .

ويستدل ابن رشد بدليل يعود إلي ما ذكره الأشعرية من أن البصـــر والسمع يدركان مالا يدركه العقل ، فإذن هما زائدان على الـــذات ، يقـــول صاحب مناهج الأدلة : ((إن الصانع يجـــب أن يـــدرك كـــل مـــا فـــي المصنوع ، ولا يكتفي في معرفة المصنوع / معرفة تامة / بـــالعلم ، بـــل لابد من السمع والبصر [2])) .

وغرض علماء التوحيد / في معالجة مثل هـــذه القضيـــة / تنزيـــه الباري / عز وجل / ، وإثبات الكمال كله لـــه ، وإبعـــاده عـــن مشـــابهة المخلوقات بأي وجه كان .

---

(1) إمام الحرمين : العقيدة النظامية ص 22 .

(2) ابن رشد: مناهج الأدلة ص 164 - 165 .

وإلا فمن حيث العقيدة حسبنا في معرفة هاتين الصفتين ، ومدى شمولهما أن نقف عند حدود النص القطعي والنقل اليقيني ، لأن العقل الإنساني / في مثل هذه المسائل / عاجز ، ولا يستطيع النفاذ ما وراء إدراكه .

7 ـ الكلام .

تعريفه : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، منزهة عن التقدم والتأخر ، هو بها آمر وناه ومخبر إلي غير ذلك ، يدل عليها نظم ما أوحاه الله إلى رسله الكرام كالقرآن والتوراة و الإنجيل والزبور والصحف .

وهذه الصفة عامة التعلق بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات.

ودليل ثبوت هذه الصفة لله / تعالى / النصوص القطعية الثابتة ، وتواتر النقل عن الأنبياء والرسل / عليهم الصلاة والسلام / ، ومن ذلك قوله /تعالى/ : (وكلم الله موسى تكليما [1]) ، وقوله /تعالى/ : ((وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه [2]) . وقد تواتر القول بذلك عن الأنبياء والرسل /عليهم الصلاة والسلام/ ، وقد ثبت صدقهم بدلالة المعجزة [3].

---

(1) *سورة النساء. جزء من الآية رقم 163 .*

(2) *سورة التوبة. جزء من الآية رقم 6 .*

(3) *انظر : الكردستاني. تقريب المرام في تهذيب الكلام ج2 ص140 .*

ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد اشتهر بين علماء اللغة العربية إطلاق القول والكلام على المعنى القائم بالنفس ، وفى هذا المعنى يقـــول الشـــاعر العربي :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا [1] .

وعلى هذا فإن الكلام / في اللغة العربية / يطلق على معنيين :

أحدهما : الألفاظ المعبرة عن المعنى القائم بالنفس ، فتقـــول : هـــذا كلام فصيح ، وكلام واضح ، وحديثك جيد ومرتب .

ثانيهما : المعنى القائم بالنفس الذي من شأنه أن يعبر عنـــه بألفـــاظ كما ورد في بيت الشعر العربي الذي سبق ذكره ، وكما تقول لصـــاحبك : إن في نفسي كلاما كثيرا أريد أن أقوله لك .

---

(1) *قائل هذا البيت هو الأخطل ، وهو غياث بن غوث بن الصلت أحد بني جسم بن بكر ثم أحد بني تغلب وكنيته أبو مالك ولد حوالي عام 641 م ، وهو شاعر كبير من شعراء الدولة الأموية وكان نصرانيا وقبل هذا البيت :*

لا يعجبك من خطيب خطبة حتى يكـــون مع الكلام أصيلا

إن الكلام لفي الفؤاد وانمـــا جعل اللسان على الفؤاد دليلا

انظر في هذا : شرح شذور الذهب لابن هشام تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد الطبعة الخامسة 1951 م .

ومن الشواهد على ذلك من كتاب الله / عز وجل / في الإخبار عن المنافقين ، قوله تعالى : ((إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون[1])) ومن المعلوم أن الله / تعالى / لم يكذبهم في إقرارهم ، وإنما يكذبهم فيما تجنه سرائرهم وتكنه ضمائرهم .

وإذا ثبت أن الله / تعالى / متكلم بالنصوص القطعية التي تقدم ذكر بعض منها ، ولا معنى له / في اللغة العربية / إلا من قام به صفة الكلام ، والكلام حسي ومعنوي ويمتنع قيام الحسي بذاته تعالى ، فيتعين أن القائم بذاته هو الكلام النفسي ، ولا يكون إلا قديما .

يقول صاحب كتاب (لمع الأدلة) : ((إذا ثبت أن القائم بالنفس كلام ، وليس هو حروفا منتظمة ، ولا أصواتا مقطعة من مخارج الحروف فليستيقن العاقل أن الكلام القديم ليس بحروف ولا أصوات ولا ألحان ولا نغمات [2]))

وعلى ضوء ذلك فإن أهل السنة والجماعة يقررون أن صفة الكلام أزلية قائمة بذاته تعالى ، وهى غير حقيقة العلم وغير الإرادة ، وهى صفة واحدة لا تتعدد ، لكن لها أقساما اعتبارية باعتبار متعلقها ، فمن حيث

---

(1) سورة المنافقون. الآية 1 .

(2) إمام الحرمين : لمع الأدلة ص91 - 92 .

تعلقها بطلب إقامة الصلاة ــ مثلا ــ أمر ، وبطلب ترك عقوق الوالديـــن نهى ، وبأن فلانا فعل كذا في الماضي خبر ، وبأن العاصي عليـــه عقـــاب وعيد ، و بأن الطائع له ثواب وعد . فتعلق صفة الكلام إذن تعلق دلالـــة . ولعل هذا القدر / في بحث هذه الصفة / كاف ، ولا داعي لذكر المســـائل الخلافية التي وقعت بين علماء الكلام وغيرهم في القضية المشهورة وهـــى هل القرآن الكريم قديم أم حادث ؟ فهي مسالة متشعبة يطول البحث فيـــها ولا جدوى من إثارتها بعد أن علمنا أن الله / تعالى / متصف بصفة الكـــلام كما جاء في القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسول الله محمد / صلـــى الله عليه وسلم / بلفظ عربي مبين وبوساطة الوحي المعصوم والمنقول إلينا بالتواتر المعجز المتحدى به المتعبد بتلاوته .

** رابعا ــ الصفات المعنوية.

المراد بالصفات المعنوية هي الصفات الملازمة للسبع المعاني التـــي تقدم ذكرها ، وهى كونه تعالى عالما وكونه حيا ، وكونه قادرا ، وكونـــــه مريدا ... الخ صفات المعاني .

والصفات المعنوية السبع هذه أثبتها بعـــض علمـــاء التوحيـــد مـــن الماتريدية والمعتزلة لأنهم يثبتون الحال التي هي واسطة بيـــن الموجـــود والمعدوم ، فقالوا : لله تعالى صفات ثابتة ليست موجودة ولا معدومة معللة بقيام صفات المعاني بالذات عند الماتريدية ، ومعللة بالذات المؤثـــرة عنـــد المعتزلة .

وعليه فقد رأي هؤلاء أن الصفات المعنوية السبع صفات زائدة على صفات المعاني ، وأنها أمور ثابتة في نفسها بقطع النظر عن الاعتبار والذهن وأنها واسطة بين الموجود والمعدوم .

والدليل على ثبوتها لله / تعالى / ــ عندهم ــ :

1 ــ ما ورد من الأدلة القرآنية في ثبوت صفات المعاني ، كقوله تعالى : ((الله لإله إلا هو الحي القيوم [1]) ، وكقوله تعالى : ((وهو السميع البصير [2]) إلي غير ذلك من الآيات الواردة في إثبات صفات المعاني لله / تعالى / .

2 ــ ولأن جميعها ــ أي الصفات المعنوية ــ صفات كمال يصح أن يتصف بها كل حي ، وكل ما كان كذلك يجب ثبوته لله / تعالى / حتى ينتفي عنه ضده ، فهي إذن واجبة له تعالى .

ويرى جمهور الأشاعرة أنه لا وجود للصفات المعنوية لأنهم لا يعترفون بالحال أي الواسطة بين الموجود والمعدوم . وقد ذهب الإمام الأشعرى إلي أن الصفات المعنوية ليست بصفات زائدة على صفات المعاني ، وأنه لاوجود لها لا في خارج الأعيان ، ولا في خارج الأذهان ،

---

(1) سورة البقرة. جزء من الآية رقم 253 .

(2) سورة الشورى. جزء من الآية رقم 9 .

بل هي أمور اعتبارية لا وجود لها إلا في الذهن .

ومعنى كون الله قادرا عبارة عن قيام القدرة بالذات ، ومعنى كونه عالما عبارة عن قيام العلم بالذات ، فليس هناك إلا الذات والقدرة والعلم وهكذا إلي آخر صفات المعاني [1] .

وهذا بناء على ما ذهب إليه من أن الأمور قسمان : موجود في الخارج ، ومعدوم ، ولا واسطة بين الموجود والمعدوم وهو ما يعبر عنه بالحال فثبوت الحال من المحال كما يقول علماء الأشاعرة .

يتضح لنا / مما تقدم / أن الواجب لله / تعالى / تفصيلا / عند الأشاعرة / ثلاث عشرة صفة فقط ، وهى صفة واحدة وجودية ، وخمس صفات سلبية ، وسبع صفات معان . أما عند الماتريدية فعشرون صفة أي بزيادة الصفات المعنوية .

ومن الجدير بالذكر أن إنكار جمهور الأشاعرة للصفات المعنوية ليس إنكارا للقادرية أو قيام القدرة بالذات ــ مثلا ــ وإنما هو إنكار لكونها زائدة على صفات المعاني ، فلا معنى ــ عندهم ــ لكونه قادرا مريدا إلا قيام القدرة والإرادة بالذات .

---

(1) *انظر الامام الدردير شرح الخريدة تعليق حسين مكي ص 34 .*

المبحث الثاني عشر

بيان متعلق كل صفة من صفات المعاني

المبحث الثاني عشر

بيان متعلق كل صفة من صفات المعاني

تنقسم صفات المعاني ــ من حيث التعلق وعدمه ــ قسمين :

القسم الأول ما يتعلق ، ومعنى تعلق الصفات أنه يقتضي أمرا زائدا على قيام الصفة بموصوفها ، مثل : ((القدرة)) فإنـــها تقــوم بــالذات ، وتستلزم أمرا آخر هو التأثير في الممكن ، وهذا القسم يشمل ما يلي :

1 ــ ما يتعلق بجميع الواجبات والممكنات والمســتحيلات ، وهــو كل من صفتي العلم والكلام ، فصفة العلم ــ كما تقدم ــ هي صفة تكشــف عن حقائق الأشياء على ما هي عليه دون أي تأثير فيها ، وعليـــه فتعلــق العلم تعلــق انكشــاف ، وهــو عــام التعلــق بالواجبــات والجائـــزات والمستحيلات ، لقوله /تعالى/ : (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلمــا [1]) ، ولقوله / تعالى / : ((الله الذي خلق سبع سماوات ومـــن الأرض مثلــهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكــل شئ علما[2]) . وعلى ذلك يجب اعتقاد أن علمه تعالى غــير متنــاه مــن حيث تعلقه ، فإنه يحيط بما هو غير متناه كنعيم الجنة ، ومن بـــاب أولـــى

---

(1) سورة غافر. جزء من الآية رقم 6 .

(2) سورة الطلاق. الآية رقم 12 .

يحيط بما هو متناه ، فعلمه تعالى محيط بكل شئ كلـــى أو جزئـــي متنـــاه وغير متناه .

وصفة الكلام تتعلق بالأشياء كلها تعلق دلالة وبيان ، أو أمر ونهى ، أي أن كلام الله / تعالى / القديم عام التعلق بجميع الواجبـــات والجـــائزات والمستحيلات لصلوحه لها .

وقد احتوى بيانه ــ جل وعلا ــ وأمره ونهيه الكلام عن الواجـــب ، وعن الجائز ، وعن المستحيل ، كما تشهد بذلك آيات الكتاب العزيز .

2 ــ ما يتعلق بالممكنات فقط ، ويشمل صفتين ، همـــا : القـــدرة والإرادة ، لكن جهة التعلق في القدرة التـــأثير ، وفـــى الإرادة تخصيـــص الممكن ببعض ما يجوز عليه .

إذن فالقدرة والارادة تتعلقان بالممكن فقط ، أما الواجب والمســـتحيل فلا شأن لهاتين الصفتين بهما ، والسبب في ذلك ــ كما علمت مما سبق ــ أن الواجب لا يمكن إعدامه ، والمستحيل لا يمكن إيجاده ، و إلا لـــم يكـــن الواجب واجبا ، ولا المستحيل مستحيلا ، ولو أمكن انعدام الواجـــب مـــع بقائه واجبا ، أو إيجاد المستحيل مع كونه مستحيلا لأمكن اجتماع النقيضين في وقت واحد ومكان واحد ، وهذا ظاهر الاستحالة .

وتعلق القدرة والإرادة بالممكنات فقط لا يعنى هـــذا أبـــدا عجـــز أو نقصان القدرة أو الإرادة ، وإنما يعنى أن طبيعة الإرادة أو القدرة الكاملـــة

التامة ليس من وظيفتها أن تتجه إلـــي الواجـــب مـــادام كذلـــك ، أو إلـــي المستحيل مادام مستحيلا .

إذا علمت هذا فإن الشبهات التي تطرأ على أذهان غير الموحديـن أو الذين يلقون بالأسئلة الفارغة من المضمون إنما هي ناتجة عن عـــدم فـــهم متعلق القدرة والإرادة .

وفي هذا المقام يشير صاحب الكتاب ((كبرى اليقينيات الكونيـــة)) إلي ما يطرحه كثير من المشككين من التصورات الخاطئة ، والأسئلة التـــي ليس لها أية معنى ، وغرضهم من ذلك زعزعة الإيمان بالله /تعالى / فـــي قلوب طائفة من المؤمنين ، ومن تلك الأسئلة الواهية البعيدة عن موازيـــن المنطق والعقل قولهم : ((هل يستطيع الله أن يخلق إلها مثله ؟)) تصـــورا منهم بأن المسئولين إن أجابوا بالإمكان اعترفوا بذلك أنـــه ليـــس لـــهم أن يكفروا من أشرك مع الله غيره ، وإن أجابوا بعدم الإمكان فقد أسندوا إلـــي الله / تعالى / العجز ، وذلك دليل على أنه ليس بإله ــ تعالي الله عن ذلـــك علوا كبيرا ــ .

إن هذا السؤال لا معني له ، لأن موضوعه ومضمونه هذيان وبعيـــد عن القواعد المنطقية الصحيحة ، فهو مثل الذي يقول لك : كن جالسا واقفـا أمامي في هذه اللحظة في هذا المكان .

وإذا أردت أن تجاريه في تصوراته المتخيلة ، وتعامله معاملة الطفل الصغير الذي لم يكتمل تفكيره بعد فإنك تستطيع أن تضع أمامـــه صـــورة

للإجابة يستطيع بها أن يتعرف على المعاني الضرورية للبحث العلمـــي ، فنقول له : الله قادر على أن يخلق كل شئ ، ولكن شـــريك الله / تعـالي / ليس شيئا ، لأنه محال ، والمحال لا يسمي شيئا ، ولأن المستحيل لا يمكـن إيجاده [1] .

وهذه الصورة للجواب هي / في الحقيقة / تعليم لجـــاهل لا يعـرف معني المستحيل والواجب والممكن .

3 ــ ما يتعلق بالموجودات ، وهذا يشمل كلا من صفتـــي الســمع والبصر ، فهما لا يتعلقان بالمعدومات ، وإنما يتعلقـــان بـــالموجودات أي المعلومات له تعالي ، سواء أكانت قديمة كذاته / تعـــالي / وصفاتـــه ، أم حادثة كذوات المخلوقين وصفاتهم ، ولا يلزم من اتحـــاد المتعلـق اتحـــاد الصفة ، بل لكل صفة انكشاف يغاير انكشاف الصفة الأخرى .

هذا ما قرره علماء التوحيد ، ولكن في مثل هذه المســـائل الدقيقـة ينبغي تفويض الحقيقة فيها إلي عالم الغيب / ســـبحانه وتعـالي / ونثبـت ونعتقد أن سمعه وبصره تعالي يخالفان سمع وبصر الموجـــودات كلـها ، وأنه / جلت قدرته / قد قال وقوله الحق : (ليس كمثله شئ وهو الســميع البصير [2]) .

---

(1) كبرى اليقينيات الكونية: محمد سعيد البوطي ص137 -- 140 .

(2) سورة الشورى. جزء من الآية رقم 9 .

القسم الثاني : غير متعلق ، ومعناه أنه لا يقتضي أمرا زائدا على قيام الصفة بموصوفها ، وهذا القسم يشمل صفة الحياة فقط ، فالحياة باعتبارها صفة تصحح لمن قامت به الإدراك من غير أن تطلب أمرا زائدا على قيامها بمحلها لا تعلق لها بشيء سوي ذاته المقدسة فليس لها علاقة بالأشياء ، لا على وجه الكشف كالعلم والسمع والبصر، ولا على وجه التأثير والتخصيص كالقدرة والإرادة ، وإنما هي معني قائم بذاته تعالي ، شأنه أن يصحح قيام تلك الصفات السابقة به .

المبحث الثالث عشر

المستحيل في حق

الله تعالى

المبحث الثالث عشر

المستحيل في حق الله تعالى

عرفت مما سبق الصفات الواجب ثبوتها لله / عز وجل / كالقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام ، فينبغي الإيمان بهذه الصفات ، ومعرفة اتصاف المولي / تبارك وتعالي / بكل واحدة منها .

والإيمان بها يقتضي / بالضرورة / سلب أضداد كل واحد منها عن الله / تعالي / ، فإنه – جل شأنه – بموجب ثبوت تلك الصفات له ليس له شريك ولا مثيل ولا ظهير ، ولا يتحيز في مكان ، ولا ينحصر في زمان ، ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم ، ولا يصح عليه شئ من لوازمها ، كأن يشار إليه بهنا أو هناك ، أو تنسب إليه الحركة والانتقال من مكان إلي آخر ، ولا يصح عليه الجهل ، ولا الكذب ولا النوم أو النسيان أو القسر والإكراه .. إلي غير ذلك من أضداد صفات الكمال الثابتة له / جل جلاله / .

والدليل على استحالة هذه الصفات أنها صفات نقص والله /تعالي/ منزه عن النقائص. ويشير الإمام الرازي إلي أن سورة الإخلاص قد وضحت أنه تعالي منزه عن الجسمية والحيز والجهة . وذلك لأن قوله

تعالي : (قل هو الله أحد [1]) يـدل على نفي الجســـمية ونفـــي الحـــيز والجهة ، أما دلالته على أن الله تعالي ليس بجسم فذلك لأن الجسم أقلـــه أن يكون مركبا من جوهرين ، وذلك ينافي الوحدة ، وقوله تعالي : (أحـــد) مبالغة في الواحدية فكان قوله : (أحد) منافيا للجسمية .

وأما دلالته على أنه ليس بجوهر ، فذلك أن كـــل متحـــيز لابـــد أن يتحيز أحد جانبيه عن الثاني ، وكل ما تحيز فيـــه شئ عن شـــــئ ، فـــهو منقسم ، وكل منقسم ليس بأحد ، فلما كان الله / تعالي / موصوفا بأنه أحـــد وجب أن لا يكون متحيزا أصلا ، وذلك ينفي كونه جوهرا .

وإذا ثبت أنه / تعالي/ ليس بجسم ولا جوهر وجب أن لا يكون فـــي شئ من الأحياز والجهات ، فثبت أن قوله / تعالي / : (أحد) يدل / دلالـة قطعية / على أنه / تعالي / ليس بجسم ولا بجوهر ، ولا في حيز ولا جهة أصلا[2] .

(فالله تعالي يجب اتصافه بصفات الكمال ، وينبغـــي تنزيهـــه عـــن مماثلـــة أو مشابهة شئ من مخلوقاته ، فكل ما يدل على الحوادث ، وعلى

---

(1) سورة الاخلاص الاية رقم 1 .

(2) الرازي: أساس التقديس في علم الكلام ص16 – 18 ، وانظر كذلك : الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي. تحقيق عثمان عيش ص 73 وما بعدها ، وكذلك توضيح العقائد لعبد الرحمن الجزيري ص 79 .

سمة النقص فالرب يتعالى ويتقدس عنه [1]) .

وعلى الجملة فإنه يجب تنزيه ذات الله / تعالي / عن مشابهة سائر الذوات ، وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات ، وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الأفعال أي الغرض والداعي واستحقاق المدح والذم ، وعليه فالأوهام لا تتصوره ، والأفكار لا تقدره ، والعقول لا تمثله ، والأزمنة لا تدركه ، والجهات لا تحويه ولا تحده ، صمدي الذات سرمدي الصفات[2] .

النصوص الموهمة للتشبيه

ورد في كتاب الله / تعالي / وفي سنة رسوله / صلى الله عليه وسلم / نصوص كثيرة تفيد بحسب ظاهرها ثبوت بعض النقائص التي يستحيل على الله / تعالي / أن يتصف بها كالجهة والجسمية والجوارح والأعضاء والتحيز في مكان وما يشبه ذلك ــ كما عرفت فيما سبق ــ ، ومن أمثلة ذلك ، قوله / تعالى / : (يد الله فوق أيديهم [3]) ، وقوله

---

(1) *امام الحرمين : لمع الأدلة تحقيق : د. فوقية حسين ص 94 - 95 .*

(2) *انظر : الرازي. التفسير الكبير مجلد 6 ص 179 - 180 .*

(3) *سورة الفتح. جزء من الآية رقم 10 .*

/ تعالـــى / : (وجاء ربك والملك صفا صفا [1]) ، وقولـــه / تعـــالي / : (الرحمن على العرش استوي [2]) ، وقوله / تعالي / : (هل ينظـــرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام [3]) ، وقوله / تعالي / : (بل يـــداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء [4]) ، وقوله / صلى الله عليه وســلم / : (إن الله خلق آدم على صورته [5]) ، وقوله / صلـــى الله عليـــه وســلم / : (قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء[6]) .

هذه الآيات والأحاديث ، / وما يماثلها / تشـــعر بحســـب ظاهرهـــا بثبوت بعض صفات النقص المنفية عن المولي / تبارك وتعالي / . وعليـــه فكيف يمكن التوفيق بين تنزيه الله / تعالي / عن مشابهته تعالى للحـــوادث ، وبين ظاهر هذه النصوص ؟ .

والجواب أن هذه النصوص هي مـــن نوع المتشـــابه فـــي القـــرآن الكريـــم ، والمقصود بالتشابه (كل نقص تجاذبته الاحتمالات حول المعنى

---

(1) سورة الفجر. الآية رقم 24 .

(2) سورة طه. جزء من الآية رقم 4 .

(3) سورة البقرة. جزء من الآية رقم 208 .

(4) سورة المائدة. جزء من الآية رقم 66 .

(5) مسند الامام أحمد. ج4 ص 244.

(6) المصدر السابق. ج 4 ص 182 .

المراد منه ، وأوهم بظاهره ما قامت الأدلة على نفيه [1]) .

ومن المعلوم أن في القرآن الكريم آيات متشابهات ، وفيه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأغلب آيات القرآن الكريم هي من النوع الثاني أي الآيات المحكمات ، والمراد بالمحكمات أي قاطعة في دلالتها لا تحتمل إلا معناها الواضح الصريح .

وما جاء في هذه الآيات المحكمات / بخصوص صفات الله تعالي ، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقات / من هذا النوع ، وذلك مثل قوله / تعالي/ : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير[2]) .

ولقوله / تعالي / : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد[3]) .

وقد بين الله / تعالي / / بيانا شافيا / أن المؤمن يجب عليه أن يتبع النصوص المحكمة في كتاب الله / عز وجل / وفي كل ما أمر به ونهي عنه ، وأن يضع النصوص المتشابهة من ورائها حيث يجب التسليم والوقوف على المعنى المراد منها .

---

(1) *محمد البوطى: كبري اليقينيات الكونية ص 143 .*

(2) *سورة الشوري . جزء من الآية رقم 9 .*

(3) *سورة الاخلاص كاملة .*

يقول جل شأنه : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمـــات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشـابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلـم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب [1]) .

وبناء على ذلك أجمع أهل الحق على أن الله / تعالي / مـــنزه عـن الحلول وعن الجهة وعن الاتصال والانفصال ، فلا يقال إنه متصل بالعـالم ولا منفصل عنه لأن هذه الأمـور من صفـــات الحـوادث ، والله ليـس بحادث ، والعالم وإن عظم في نفسه فهو في جانب قدرة الله / تعالي / كأنه ليس بشي [2] .

وعليه فكل نص أوهم التشبيه يجب تأويله ، والتأويل معناه إخـــراج الشي عن ظاهره المتبادر منه ، وهذا القدر هو الذي يجب الإيمـــان بـــه ، وهو ما اتفق عليه المسلمون كلهم .

أما تعيين المراد من النص فقـــد اختلـف حولـه علمـاء السـلف والخلف[3] ، فعلماء السلف يذهبون إلي الكف عن بيان المعنـــي الحقيقـي

---

(1) سورة آل عمران. الآية رقم 7 .

(2) انظر شرح الخريده في علم التوحيد للشيخ الدردير تعليق حسين مكي ص 28 .

(3) ومن أسباب الاختلاف بين علماء السلف والخلف في هذه القضية أن علماء السـلف يقفون على قوله / تعالي / : (وما يعلم تأويله إلا الله) ويجعلون (والراسـخون فـي العلم ..) كلاما مبتدأ في الآية التي أوردناها سابقا . ومن أجل هذا فوضوا .(يتبع ـ)

اللائق بالله / تعالي / من هذه النصوص ؛ ويكتفون بتنزيه الله / تعـــالي / عن كل نقص ومشابهة الحوادث ، وسبيلهم / في ذلك / التأويل الإجمـــالي لهذه النصوص ، وتحويل العلم التفصيلي / بالمقصود منها / إلي علـم الله / عز وجل / ورعا وتهيبا لذلك المقام المتعالي الأقدس ، ولا سيما إن كـــان اللفظ الشريف يحتمل / بمقتضى اللغة / معنيين أو أكثر كل منها لائق بـذي الجلال والإكرام ، وكفا لمن لا يعرف شروط التأويل عن الخوض فيمـــا لا يحسنه [1] .

أما ترك هذه النصوص على ظاهرها دون تأويل لها ، سواء أكـــان تأويلا إجماليا أم تفصيليا فهو لم يقل به أحد حسب وجهة نظري .

إذن فعلماء السلف لا يؤولون تـــأويلا تفصيليـــا ، وإنمـــا يتجـــهون بتأويلاتهم إلي الإجمال ، فمثلا قوله / تعالي / : (الرحمن علـــى العـــرش استوى[2]) ، فإنه دل الدليل على أن الإله يمتنع أن يكـــون فـــي المكـــان فعرفنا أنه ليس مراد الله / تعالي / من هذه الآية ما أشعر به ظاهرهـــا ، إلا أن في مجازات لفظ (استوى) كثيرة لا يتعين أحدها إلا بدليل لغـــوي

وأما علماء الخلف فقد عطفوا قوله / تعالي / : (والراسخون في العلم) على لفظ الجلالة (الله) ومن أجل هذا قالوا بتعيين المعني المراد أي أن الله يعلمه والراسخين أيضا ، ايطالا منهم لمذهب الضالين وإرشادا للقاصرين .

(1) *انظر : فرقان القرآن. سلامه القضاعي ص 134 .*

(2) *سورة طه. الآية رقم 4 .*

ظني ، والقول بالظن في ذات الله / تعالي / وصفاته غير جائز ، ومن هنا منع علماء السلف تعيين المراد من اللفظ ، ولهذا قال مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالي ـ : (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة [1])

وهذا الفهم لعقيدة السلف في قضية آيات الصفات وأحاديثها هو الذي ذهب إليه كثير من العلماء المتقدمين منهم والمتأخرين ومن هؤلاء ابن خلدون في مقدمته ، والرازي في كتابه " أساس التقديس " ، والصابوني في " عقيدة السلف " ، وسلامة القضاعى الشافعي في كتابه " فرقان القرآن " ، ومحمد سعيد رمضان البوطي في كتابه " كبري اليقينيات الكونية " وغيرهم كثير .

ولعل هذا الرأي هو الأولي بالقبول ، إذ أن السلف لم يكونوا متجهين إلي فهم معاني الآيات المتشابهة ، وإنما فوضوا معناها إلي الله / تعالي / سواء أسمينا ذلك تأويلا إجماليا أم لم نسمه فالمؤدى واحد ، وهو أنهم فوضوا معناها إلي الله / تعالي / ولم يطلقوها عليه بالمعني المتبادر منها ، بل بالمعني الذي في علمه تعالي[2] .

---

(1) انظر : رسالة شمس الحقيقة والهداية. احمد على بدر. ص73 .

(2) أنظر : ابن القيم وموقفه من التفكير الاسلامى .عوض الله حجازى ص 102 - 103 . وأيضا : فرقان القرآن . سلامه القضاعي ص 134 .

ويذهب ابن القيم و المقريزي وغيرهما إلي أن السلف يفهمون آيات الصفات وأحاديثها ويطلقونها على الله / تعالى / بمعناها الحقيقي من غير تفويض ، وهذا الرأي / كما يرى كثير من علماء التوحيد / بعيد عن الصواب ، وذلك لأن الصرف عن الظاهر أمر ضروري ، إذ لولاه لحصل كثر من التناقض في شأن الصفات ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصي ، منها قوله / تعالى / : (ولتصنع على عيني [1]) ، وقوله / تعالى / : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا [2]) ، فإن الناظر / في هاتين الآيتين الكريمتين / يجد أن الله / تعالى / قد أسند إلي نفسه العين بالإفراد ، كما في الآية الأولي وبالجمع كما في الآية الثانية ، فهنا لابد من التأويل ولو إجماليا ، حتى لا يحصل التناقض الذي يتنزه القرآن الكريم عنه . وقس على ذلك بقية النصوص المتشابهة .

ومن هنا وجب / في هذه الحالة بل وفي كل الحالات / أن ننزه الله / تعالى / حيال جميع هذه الآيات والأحاديث عن مشابهة المخلوقات في أن يتحيز في مكان ، وتكون له أبعاد وأعضاء وصورة وشكل ، ثم نكل تفصيل المقصود بكل هذه النصوص إلي الله جل شأنه العالم بمعناها ومرادها ، وبذلك يسلم الإنسان من التناقض في الفهم ، ويسلم كتاب الله / تعالى / من توهم أي تناقض فيه .

---

(1) *سورة طه. الآية 39 .*

(2) *سورة الطور. جزء من الآية رقم 48 .*

إذن فالمحققون من السلف ــ كما فهمهم أكثر علماء التوحيد ــ يسلكون هذا المنهج حيث لا يكون عن التأويل معدل ، ولا لبقاء اللفظ على ظاهره محمل ، لذلك نرى ابن جرير الطبري / في تفسيره لقوله تعالى : (ثم استوي إلي السماء فسواهن سبع سماوات [1]) / يذكر المعاني الكثيرة لكلمة (الاستيلاء) في اللغة العربية ، ومنها : الإقبال على الشي بالفعل ، والاستواء ، والعلو والارتفاع ، وأن هذا المعني الأخير هو الذي يفسر به الآية المذكورة .

وأما علماء الخلف فإنهم اتجهوا إلي تأويل النصوص تأويلا مجازيا بينا شائعا بما يكون متفقا مع النصوص المحكمة الأخرى التي تقطع بعدم مشابهة الله / تعالى / لخلقه ، وتنزهه عن الجهة والمكان والجارحة وما يشبه ذلك ، وعليه فقد فسروا (الاستواء) في قوله / تعالى/ : (الرحمن على العرش استوى [2]) بتسلط القوة والسلطان ، وهو معني ثابت في اللغة معروف ، فإن العرب الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم لا يفهمون سوى أن العرش سرير الملك الذي يجلس عليه للحكم ، والاستواء عليه هو العلو عليه ، هذا هو أصل الوضع ، ثم كنوا به عن علو الملك والسلطان حتى صار يستعمل في هذا المعني ، وعلو الملك والسلطان يعني تسلط القوة والسلطان .

---

(1) سورة البقرة. جزء من الآية رقم 28 .

(2) سورة طه. الآية رقم 4 .

ومن تتبع القرآن الكريم يجد أن الاستواء على العرش مذكور في سبع آيات مقترنا بذكر فعل من أفعاله / تعالى / دال على وجوب وجوده ، وغناه الغني المطلق ، وهو رفع السموات بغير عمد ، أو خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام .

فقد أقام القرآن الكريم القرينة اللفظية في كل موضع ذكر فيه الاستواء على أنه لم يرد ظاهره ، وإنما معناه أنه / سبحانه / لما انفرد بإيجاد الأشياء كلها توحد في التصرف فيها ، فكما أنه لا شريك له في الخلق لا شريك له في الملك ، ولذلك ختم بعض هذه الآيات بقوله تعالي : (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين [1]) .

وفي هذه الآية الكريمة تقديم الخبر ، وهو شبه الجملة (الجار والمجرور) على المبتدأ ، وهو يدل على الحصر ، فالخلق ناظر إلي انفراده بخلق السموات والأرض ، والأمر عائد إلي توحده بعلو الملك .

يقول صاحب كتاب : (فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان) : " ومن زعم أن القرآن يقول بالعلو الحسي في حق الله / تعللي / فما عرف الله ، ولا فهم كتابه ... ثم يستشهد بقول الطبري في تفسيره لخاتمة آية الكرسي في قوله تعالي : (وهو العلي العظيم [2]) بعدما مر

---

(1) *سورة الأعراف. جزء من الآية رقم 53 .*

(2) *سورة البقرة. جزء من الآية رقم 253 .*

من وصفه تعالي بالوحدانية والحياة والقيومية ، وأن كل شئ فهو له ملكا ، وأنه أحاط بكل شئ علما ، وأن السموات والأرض لا يثقل عليه حفظهما ، ولا يشق عليه ، ثم عقب / بعد هذا كله / بقصر العلو عليه سبحانه .

فبربك هل يفهم منه ذو علم إلا علو الاقتدار وسمو الكمال الذي لا يحد له مقدار ؟ .. إلي أن يقول : والعلو المعنوي منتشر في القرآن مستفيض في لغة العرب في وصف الخالق والمخلوق على ما يليق بكل ...

وأين علو المكان من علو السلطان ، وهل العلو في المكان إلا كمال جسماني عرضي نازل كل النزول عن الكمال الذاتي الأصلي ؟! تعالي الله عما يخطر للواهمين ، وقيل في تفسير قوله تعالي : (كل شئ هالك إلا وجهه [1]) أي إلا هو ، فانظر كيف حمل الوجه على الذات .

وقال الله / تعالي / : (والله واسع عليم [2]) ، فالسعة المتعارفة عظم امتداد الجسم ، فهل قال ذلك أحد من السلف ؟! [3] " .إذن فعلماء التوحيد / وبخاصة المتأخرون منهم / يؤولون كل نص يوهم بظاهره مشابهة الله تعالي للحوادث ، ويفسرون اليد في الآيات الكريمة بالقوة أو

---

(1) سورة القصص جزء من الآية رقم 88 .

(2) سورة البقرة جزء من الآية رقم 267 .

(3) مناهل القرآن . سلامة القضاعي ص 144 وما بعدها بتصرف .

بالكرم ، والعين بالعناية والرعاية ، والوجه بالذات ، والمجـــيء بمجـــيء أمره ، والإتيان بإتيان رسول رحمته أو عذابه ، والنزول بنزول ملك مـــن الملائكة ليقول عن الله / تعالى/[1] .

ويفسرون الحديث المتقدم : (إن الله خلق آدم على صورته[2]) بـأن الضمير راجع إلي آدم / عليه السلام / لا إلـــي ذات الله / تعـــالى / أي أن الله / تعالى / خلق آدم منذ اللحظة التي أوجده فيها على صورته وهيئتـــه التي كان يتمتع بها فيما بعد ، فلم يتطور من شكل إلي آخر .

ويحتمل أن يعود الضمير فيه على الأخ المذكور في صدر الحديث ، كما جاء في صحيح مسلم : (فإذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فـإن الله خلق آدم على صورته) أي فليكـــرم الوجـــه الذي هـــو مظهر لخليقة آدم / عليه السلام / . أو أن الضمير عائد إلي ذات الله / تعالى / وذلـــك كمـــا تدل عليه الرواية الثانية الثابتة الأخرى : (إن الله خلق آدم علـــى صـــورة الرحمن) ، ولكن الصورة هنا بمعني الصفة ، أي جهزه الله بصفات العلـــم والإدراك التي هي من صفات الله عز وجل [3] .

---

(1) *انظر : الرازي. أساس التقديس ص 101 وما بعدها ، لمع الأدلة للجويني ص95.*

(2) *تقدم تخريجه .*

(3) *انظر: البوطي. كبري اليقينيات الكونية. ص 146 - 147 وكذلك الرازي أساس التقديس ص93 وما بعدها .*

ويقسم صاحب كتاب : (استحالة المعية بالذات وما يضاهيها من تشابه الصفات) الآراء حول مسألة التأويل أو التفويض في متشابه الصفات إلي ثلاثة آراء .

** ***الأول :*** رأى علماء السلف ، وهو إمرارها على ما جاءت ، مفوضين معناها إلي الله / تعالى / مع تنزيههم عما يدل عليه ظاهر اللفظ مما لا يليق بجلال الله / تعالى / من صفات الحوادث ــ كما سبق ــ .

** ***الثاني:*** وهو رأى إمام الحرمين والغزالي والرازي وعلماء كثيرين من متأخري علماء الكلام ، وهو جواز تعيين التأويل للمشكل ، ويترجح على غيره مما لا يصح بدلالة سياق ، أو كثرة استعمال اللفظ المشكل فيه .

** ***الثالث:*** وهو رأى أبى حنيفة ، وأبى الحسن الأشعرى ، ومن سار معهما ، فهم يرون أنها صفات تليق بجلاله وكماله ثابتة وراء العقل ما كلفنا إلا اعتقاد ثبوتها ، مع اعتقاد عدم التجسيم والتشبيه لئلا يضاد النقل العقل ، وتسمي صفات سمعية [1] .

وهذا الرأي الأخير هو ما ذكره أبو الحسن الاشعري في كتابه : ((الإبانة عن أصول الديانة)) في فصل عقده لإبانة قول أهل الحق والسنة ، إذ يقول فيه : ((وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه

(1) *محمد الخضر. استحالة المعية بالذات. ص 70 - 71 .*

الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده استواء منزها عن المماسة و الاستقرار والتمكن والحلول و الانتقال ، لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، و هو فوق العرش ، وفوق كل شئ إلي تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قربا إلي العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات على العرش ، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلي العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شئ شهيد [1])

ويشرح الشيخ عبد الوهاب الشعراني معنى الاستواء على العرش بقوله ، (يجب اعتقاد أن الله تعالى ما استوى على عرشه إلا بصفته الرحمانية كما يليق بجلاله ، كما قال تعالى : ((الرحمن على العرش استوى [2])) .

ولا يجوز إن يطلق على الذات العلي أنه استوى على العوش ، وإن كانت الصفة لا تفارق الموصوف في جانب الحق / تعالى / ، لأن ذلك لم يرد لنا التصريح به في كتاب ولا سنة ، فلا يجوز أن نقول على الله ما لا نعلم ... إلي أن يقول : واعلم أن غاية العقل / في تنزيه الباري عن كيفية الاستواء / أن يجعل ذلك استواء تدبير ، كما استوى الملك من البشر على مملكته ... ويقول : ما الحكمة في إعلامه تعالى بأنه استوى على العرش

---

(1) *الأشعري : الابانة. تحقيق فوقية حسين ص 21 .*

(2) *سورة طه. الآية رقم 4 .*

بناء على أن المراد بالعرش مكان مخصوص في جهـــة العلـــو لا جميـــع الأكوان ؟

فالجواب أن الحكمة / في ذلك / تقريب الطريق على عباده ، وذلـــك أنه تعالى لما كان هو الملك العظيم ، ولا بد للملك من مكان يقصـــده فيـــه عباده لحوائجهم ، وإن كانت ذاته تعالى لا تقبل المكان / قطعا / اقتضـــت المرتبة له أن يخلق عرشا ، وأن يذكر لعباده أنه استوى عليـــه ليقصـــدوه بالدعاء وطلب الحوائج ، فكان ذلك من جملـــة رحمتـــه لعبـــاده والتـــنزل لعقولهم ، ولولا ذلك لبقى صاحب العقل حائرا لا يدرى أين يتوجه بقلبـــه ، فإن الله / تعالى / خلق العبد ذا جهة من أصله ، فلا يقبل إلا ما كان فـــي جهة مادام عقله حاكما عليه ، فإذا مـــن الله / تعـــالى / عليـــه بالكمـــال ، واندرج نور عقله في نور إيمانه تكافأت عنـــده الجهـــات في جانب الحـــق / تعالى / ، وعلم وتحقق أن الحق / تعالى / لا يقبل الجهة ولا التحـــيز ، وأن العلويات كالسفليات في القرب منه / تعالى / ، قـــال الله / تعـــالى / : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد [1]) ؛ وقال / صلى الله عليه وسلم / : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد [2]) . فعلم أن الشرع ما تبـــع العرف إلا في حق ضعفاء العقول رحمة بهم [3])

---

(1) سورة ق. جزء من الاية رقم 16 .

(2) رواه مسلم وأبو داود والنسائى. انظر: كشف الخفاء للعجلونى ج1 ص 160 .

(3) عبد الوهاب الشعرانى: اليوا قيت والجواهر. ج1 ص 100 .

بعد عرض آراء العلماء / سلفهم وخلفهم / في هذه المسألة الدقيقة ، وهى النصوص الموهمة للتشبيه نرى أن كلا منها تتجه نحو هدف واحد ، لأن المقصود الأول و الأخير هو تنزيه الله / تعالى / عن جميع صفات النقص ، وعدم تشبيهه بمخلوقاته / جل وعلا / .

يقول العلامة اللقاني :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

ويعني بذلك أن كل نص من الكتاب والسنة أوقع في الوهم صحة القول به / بحسب الظاهر / فالمطلوب منك حمله على خلاف ظاهره مع بيان المراد منه ، فالتأويل / هنا / تفصيلي ــ كما يرى علماء الخلف ــ . أو فوض بعد التأويل الإجمالي الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره أي بعد ذلك فوض علمه ومعناه إلي الله / تعالي / وهذا ما يقول به علماء السلف .

ورم تنزيها أي اقصد تنزيهه تعالي عما لا يليق به مع تفويض علم المراد لله / تعالى /[1] .

ورأى السلف / في عصرهم / كان هو الأفضل والأسلم والأوفق للإيمان الفطري المرتكز في كل من العقل والقلب الذي كان سمة ذلك العصر .

---

(1) انظر : شرح الخريده للدردير. تعليق حسين مكي ص 29 .

ورأى الخلف / في عصرهم / بل في عصرنا أصبح هـو المصـير الذي لا يمكن التحول عنه بسبـب الماديـات المسـيطرة علـى العقـول والقلوب ، وبسبب كثرة الآراء الفكرية والمناقشات التي / غالبا / ما تميـل إلي الإلحاد والعناد .

هذه هي آراء العلماء في مسالة النصوص الموهمة للتشبيه ذكرتـها لك من خلال مؤلفاتهم وأقوالهم ، وقد رأيت معي كيف بذل أولئك العلمـاء الأكفاء جهودهم وأفكارهم في سبيل الوصول إلي رأي يعتقـدون صحتـه وصوابه .

ولعل الرأي الذي تميل إليه النفس ويمكن الاعتماد عليه نظرا لقـوة الأدلة هو ما سار عليه علماء التوحيد المتأخرون .

المبحث الرابع عشر

الجائز في حقّه تعالـــى

المبحث الرابع عشر

الجائز في حقه تعالى

يجوز في حق المولي / تبارك وتعالي / أن يتصرف في الممكنات بأسرها كما يشاء ويريد ، ومن هذه الممكنات خلق الإنسان وخلق أفعاله .

فالله ــ جلت قدرته ــ يوجد ويخلق الممكنات سواء أوجدت بالفعل أم لم توجد ، ويعدمها متي يشاء ، ويرزق ويمنع ويعز ويذل ، ويشقي ويسعد ، ويوفق من يشاء ويضل من يشاء ، يرسل الرسل ، ويدبر الكون لأنه مالك له ، والمالك يتصرف في ملكه كما يريد ويشاء ، يقول الله / تعالى / : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير[1]) .

فالجائز في حق الله / تعالى / على وجه العموم / فعل كل ممكن أو تركه ، والدليل على ذلك ــ عقلا ــ واضح كل الوضوح ، إذ أن من ثبتت له القدرة الكاملة ، والإرادة النافذة ، والعلم الشامل فإنه / لا محالة / يجوز له التصرف في ملكه كما يشاء لقوله /تعالي/ : (وربك يخلق ما يشاء ويختار[2]) .

---

(1) سورة آل عمران. الآية رقم 26 .

(2) سورة القصص. جزء من الآية رقم 68 .

ويمكن أن تقول / في الدليل العقلي / : إنه لو وجب عليه فعل ممكن أو استحال عليه لما كان قادرا مختارا مريدا واحدا لكن قد ثبتت له القدرة والإرادة والوحدة فانتفي وجوب ممكن أو استحالته عليه ، وثبت له جواز الفعل والترك .

ومن الجائز ــ في حقه ــ /تعالى/ الهداية والإضلال لقوله / تعالي / : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء [1]) .

ومعني الهداية خلق قدرة الطاعة في العبد والميل النفسي للعمل الصالح . والمراد بالإضلال خلق قدرة المعصية في العبد والميل النفسي للعمل السيئ .

ومن الجائز ــ عقلا ــ في حق الله / تعالى / إنجاز الوعد والوعيد . أما الوعد فإنه وإن جاز تخلفه عقلا إلا أنه يجب إنجازه شرعا عند الأشاعرة والماتريدية ، لقوله / تعالي / : (وعد الله لا يخلف الله وعده [2]) ، وقوله / تعالي / : (انك لا تخلف الميعاد[3]) أي لا تخلف الوعد .

---

(1) سورة الأنعام . جزء من الآية رقم 126 .

(2) سورة الروم. جزء من الآية رقم 5 .

(3) سورة آل عمران. جزء من الآية رقم 194 .

والدليل العقلي / على ذلك / أنه لو تخلف الوعد للزم الكذب والسفه والخلف ، واللازم باطل ، لأنه نقص يجب تنزيه الإله عنه .

وأما الوعيد فبعد اتفاق أهل السنة على جواز تخلفه عقلا ، اختلفوا في جواز تخلفه شرعا .

فذهب الأشاعرة إلي الجواز مستدلين : بأن خلف الوعيد كرم يمتدح عليه فاعله فيجوز على الله / تعالى / لأنه أكرم الأكرمين ، والوعد حق العباد على الله يجعله / تعالى / لأنه الضامن للعطاء فهو أولي بالوفاء ، والوعيد حق الله على عباده ، وصاحب الحق له أن يأخذه وله أن يعفو عنه ، والأولي بذي الجلال والإكرام العفو والصفح لأنه تعالي عفو غفور . وذهب الماتريدية إلي وجوب إنجازه شرعا لأنه يلزم من تخلفه نقائص يجب تنزيه الإله عنها ، وهي :

أ) ــ الكذب في خبره تعالي ، وهو القائل : (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ندخله نارا خالدا فيها [1]) .

ب) ــ تبديل القول ، وقد قال تعالي : (ما يبدل القول لدي [2]) .

---

(1) سورة النساء. جزء من الآية رقم 14 .

(2) سورة ق. جزء من الآية رقم 29 .

ج) ــ تجويز عدم خلود الكفار في النار ، وهو خلاف ما قـــامت عليه الأدلة القطعية .

وقد أجاب علماء الأشاعرة عن هذا بأنه لا يلزم من تخلف الوعيـــد كذب لأن الكريم إذا أخبر بوعيد بنى ذلك على مشيئته ، يوضح هذا قـــول الرسول / صلى الله عليه وسلم / : (من وعده الله على عمـــل / ثوابـــا / فهو منجز له ، ومن أوعده على عمل / عقابا / فهو بالخيار إن شاء عذبـــه وإن شاء غفر له[1]) .

كما لا يلزم تبديل القول ، لأن الآية خاصة بوعيد الكفار ، أو من لـــم يرد الله العفو عنه ، ولا يلزم / أيضا / تجويز عدم خلود الكفار في النـــار ، لأن جواز تخلف الوعيد فيما يجوز العفو عنه ، لقوله / تعـــالي / : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء [2]) .

مما تقدم يتضح لك أن ما ذهب إليه الأشاعرة هو الأولي بالقبول لأن أدلته قوية . وباختصار فإن تنفيذ الوعد وهو إثابة الطـــائعين بفضـــل الله ، وعدم تخلفـــه لأنه وعـــد به ، كما أن إنجـــاز الوعيـــد وهـــو العقـــاب بعـــدل الله / تعالي / ، ويجوز تخلفه إلا في حق الكفار . فالله / تعالـــى / يجـــوز عليه أن يثيب وأن يعذب ، ولا يجب عليه / عقـــلا / ثـــواب ولا عقاب .

---

(1) انظر : مذكرة التوحيد. حسين السيد متولي. ص 84 .

(2) سورة النساء. جزء من الآية رقم 115 .

** أفعال العباد.

تعتبر هذه المسألة من المسائل التي دار حولها نقاش وحوار كبير بين علماء التوحيد ، وكثرت آراؤهم فيها ، وهم على كل حال ــ من وجهة نظري ــ لا يريدون من وراء ذلك إلا تنزيه الباري / عز وجل / في صفاته وأفعاله ، فقد علمت ــ مما سبق ــ أن الله تعالى متصف بصفة القدرة ، فهو سبحانه وتعالى له القدرة المطلقة على إيجاد الممكنات وإعدامها ، كما أنه تعالى متصف بصفة الإرادة ، وهي مطلقة وكاملة وصالحة للتعلق بجميع الممكنات .

وهنا قد يثار سؤال مؤداه : أن الإنسان يريد ويختار ويعمل كثيرا من الأعمال ، فما نوع هذا العمل وتلك الإرادة في جانب قدرة الله تعالى وإرادته ؟

والجواب على ذلك : أن الله تعالى لما خلق الإنسان أقامه على نوعين من الأعمال :

ـ ***النوع الأول :*** أعمال اضطرارية لا اختيار للإنسان فيها ، كحركة النمو وما يتبعه من قوة وضعف ، وكالولادة والموت ، وارتعاش اليد المريضة بمرض عصبي ونحو ذلك ، وباختصار كل ما يقع في الكون ولا دخل للإنسان فيه كحركة الفصول والأفلاك ، ونمو الأشجار والنباتات ، وغيرها .

- النوع الثاني : أعمال اختيارية يكون للإنسان دخل في حدوثها ، مثل : القراءة والكتابة ، وكل عمل يقوم به أي إنسان مكتمل لقواه الجسمية والعقلية .

فالنوع الأول يستوي فيه الإنسان مع سائر الموجودات الأخرى من حيوانات وجمادات ونبات وأفلاك هي حركات قسرية آلية لا دخل للإنسان في اكتسابها أو في إرادتها .

أما النوع الثاني منهما فتصرفات تنشأ من سر عجيب خاص أودعه الله / تعالى / في الإنسان يسمى الاختيار والإرادة ، (فلقد تعلقت إرادة الله / عز وجل / بأن يغرس في كيان الإنسان هذا السر الذي هو محور التكليف فيه ، وأن يجعله يصدر في كثير من تصرفاته عن هذا السر الذي به يسمى حرا ومختارا [1]) .

ولا خلاف بين العلماء في أن الأفعال الاضطرارية - كما في النوع الأول - مخلوقة لله / تعالى / ، وأنها ليست مناط التكليف ، إذ لا دخل لقدرة العبد ، ولا لاختياره فيها . وإنما الخلاف بينهم فيمن أوجد الأفعال الاختيارية التي هي مناط التكليف .

فجمهور أهل السنة يقولون إنها مخلوقة لله / تعالى / ، وليس للعبد فيها إلا الكسب ، فالعباد كاسبون لأعمالهم ، وليسوا خالقين لها .

---

(1) محمد سعيد البوطي: *كبرى اليقينيات الكونية ص 162 .*

وعليه فإن قدرة الله / تعالى / عامة لكل الكائنات والممكنـــات ، وأن الإنسان لم يكن مجبورا على عمله ــ كما يدعى الجبريون ــ بـــل إن لـــه كسبا يكون كافيا في التكليف وترتب الثواب والعقـــاب ، ومعنـــى هـــذا أن الكسب عبارة عن تعلق الإرادة للفعل ، وعند ذلك يخلق الله / تعالى / فـــي العبد قدرة حادثة مؤقتة تتعلق بذلك الفعل ، ولكنها غير مؤثرة فيـــه ، بـــل يترتب عليها الفعل في ظاهر الأمر ، وقدرة الله ــ باعتبارها مطلقة ــ هـي المؤثرة في الحقيقة .

مثلا إذا أراد الإنسان الصلاة فإنه يصرف إرادتـــه إلـــي إقامتهـــا بالفعل ، بمعنى أن إرادته تتعلق بها ، وعند ذلك يخلق الله له قدرة مقارنـــة للفعل لا تأثير لها فيه ، ولكنه يترتب عليها عادة في الظاهر فقط ، وتســمى تلك القدرة بالعرض المقارن للفعل [1] .

ومعنى ذلك إن إرادة الله / تعالى / تعلقت بأن تكون مريدا فســـرت إرادة الله تعالى بذلك إلي كل ما تريده وتختاره من الأعمال كالصلاة مثـلا، وبهذا ينتفي التعارض بين إرادة الله / تعالى / وما تختـــاره مـــن طريـــق إرادتك الخاصة ، فصرف إرادتك هنا أمر اعتباري لا وجود لـــه إلا فـــي الذهن ، إذ هو عبارة عن تعلق الإرادة . ومثـــال ذلك / لتقريـــب المعنـــى فقط / : أن المعلم ينصح الطلاب دائما بالجد والاجتـــهاد والابتعـــاد عـــن

---

(1) *انظر : عبد الرحمن الجزيري توضيح العقائد ص128- 129 .*

الكسل والخمول ، ثم إنه في نهاية العام الدراسي أو الفصلـــي يعقـد لـهم امتحانا لمعرفة مستوى كل واحد منهم .

إن إرادة المعلم / في هذا / متوجهة إلي نتيجة الامتحان وظـهورها ، أيا كانت نجاحا أم رسوبا ، وهنا لا تناقض بين نصح المعلم لطلابه بـالجد والمثابرة ، وبين ما أراده من النتيجة التي تفصح عن واقع أمره .

فالإرادة لا تستلزم الأمـر ولا الرضي بالشيء المـراد ، فالإنسـان / في كل أعماله وتصرفاته الاختيارية / إنما يتحـرك فـي دائـرة الإرادة الإلهية ، ولا تنافى بين كون الإنسان مختارا مريدا في تصرفاتـه هـذه ، وبين كونه لا يتخطى الإرادة الإلهية المطلقة .

فمصير الإرادة الإنسانية في جنـب إرادة الله / تعـالى / ليـس إلا كمصير إرادة المعلم في المثال المتقدم ــ ولله المثل الأعلى ــ . فالطـالب الذي لم يوفق في الامتحان لا يصح له أن يقول للمعلم إني مجبر على هـذا الرسوب لأنك قد أردت منى الرسوب عندما أردت امتحاني [1] .

إن الإنسان قد وهبه الله / تعالى / الإرادة والقدرة والاختيار وهـذه الهبة الإلهية هي التي سخرته لكل عمل عمله ، وكل ذلك داخل في المشيئة الإلهية .

---

(1) انظر : *كبرى اليقينيات الكونية. محمد البوطي ص 165 .*

فالإنسان ما كان ليتمتع بإرادة في كيانه يتجه بسر هذه الإرادة إلـــى اختيار ما يشاء من التصرفات والأعمال لو لم يشأ الله / تعالى / أن يضـــع في كيانه هذا السر العظيم ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (وما تشـــاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما [1]) .

فهـــذه الآية الكريمة هي أساس ذلك كلـــه ، وأنهـــا توضـــح أن الله / تعالى / أكرم الإنسان ، وشاء ــ جل وعلا ــ أن يجعلـــه ذا إرادة فـــي تصرفاته الاختيارية ضمن دائرة الإرادة الإلهية .

إن ظاهر الآية الكريمة يدل على أن الإنســـان لا يملـــك لنفســـه أي مشيئة إلا بإذن الله / تعالى / ومشيئته ، ولكن المتأمل فيها يجد أن المولـــى / تبارك وتعالى / قد وهب عبده إرادة يسير بها في حياته وتصرفاته .

بناء على ما تقدم فإن إرادة الإنسان / هي من غـــير شـــك / تحـــت إرادة الله تعالي / ولكن لا عن طريق الجبر والإكراه ، وإنما على طريـــق الكسب الذي خلقه الله في الإنسان كما هو رأي علماء الأشاعرة .

إن فكرة الإمام الأشعرى – رحمه الله تعالي – في الكسب تصحـــح الثواب والعقاب ، وتقرر / في الوقت نفسه / أن قـــدرة الإنسان لا تخلـــق شيئا ، وإنما هي قدرة قابلة أو كاسبة لما يفيضه الله عليها من الأعمـــال ، أما القدرة الكاملة الشاملة المطلقة فهي قدرة الله / تعالى / .

---

(1) *سورة النساء. الآية رقم 30 .*

وبهذا التفسير يكون الإنسان دائما في أشد الحاجة / في كل فعل من أفعاله / إلي قدرة الله / تعالى / خلقا ، وقدرته هو كسبا ، وهي من خلق الله أيضا ، وهذا يلهم الإنسان معني التوكل على الله / تعالى/ ويزيد من عاطفته الدينية نحو ربه ، ويبعده عن الكبرياء الذي قد يحس به أولئك القائلون بخلق أفعالهم[1] .

وسيأتي مزيد بيان في مسألة أفعال العباد عند الحديث عن القضاء والقدر لأن هناك علاقة بين هذه المسائل .

** القضاء والقدر.

معناهما : القضاء يرجع في اللغة العربية إلي معني إتمام الشيء قولا وفعلا .

والقدر ــ لغة ــ : يتناول عدة معان ، من بينها : التقدير والقضاء ، والخلق ، والتصوير ، والتضييق ، والمثل ، والجود .

وأما القضاء ــ اصطلاحا ــ : فهو علم الله / تعالى / في الأزل بالأشياء كلها على ما سيكون عليه في المستقبل ، وقد يعرف بأنه عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العلم الأعلى على الوجه الكلى .

---

(1) انظر : أبو الحسن الأشعرى. حسودة غرابة ص 161 .

وقيل إن القضاء هو الحكم الكلى الإجمالي على أعيان الموجـــودات بأحوالها من الأزل إلي الأبد مثل الحكم بأن كل نفس ذائقـــة المـــوت [1] . وقد يطلق القضاء على الشي المقضي نفسه .

أما القدر ــ اصطلاحا ــ : فـــهو عبـــارة عـــن وجـــود جميـــع الموجودات في موادها الخارجية ، ومعني ذلك أن الله ــ جلت قدرتـــه ــ قدر الأشياء في الأزل ، وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ، وعلـــى صفات مخصوصة ، فهي إذن تقع على حسب ما قدرها الله / تعالى / .

وعليـــه فالقدر إيجاد تلك الأشياء بالفعل طبقا لعلمه الأزلي المتعلـــق بها ، أما القضاء فهو علم الله أولا بالأشياء على ما هي عليه .

** ***وجوب الإيمان بالقضاء والقدر :***

من المقرر الثابت في العقيدة الإسلامية أن الإيمان بالقضاء والقـــدر يعتبر جزءا من الإيمان ، ولا يتم إلا بهما ، فقد ثبت في الحديث الصحيـــح الذي رواه مسلم وغيره : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورســـله

---

(1) انظر : *مشارق أنوار العقول. احمد العلوي. ص301 .*

وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره [1]) . ومن لا يؤمن بالقضاء والقـدر ، أي لم يصدق بهما فهو كافر .

وقد تبرأ ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ من القدرية التي أنكـرت القدر ، وقالت : (لا قدر والأمر أنـف) ، ومعنـي قولـهم هـذا أن الله يستأنف علم الأشياء حال وقوعها ، وهذا غير صحيح .

والإيمان بالقضاء والقـدر لا يسـتلزم الرضـى بالمعـاصي ، لأن المعصية مقضي ومقدر ، لا قضاء وقدر ، حيث إن المعصية لها جـهتان : جهة أن العبد كسبها باختياره ، وهي ما يجب الاعتراض عليـه ، وجهـة كونها مخلوقة لله / تعالي / وهي ما يجب الرضى به .

كما أن الإيمان بالقضاء والقدر لا ينـافي الأخـذ بالأسـباب ، ولا مؤاخذة العبد بما كسب ، كما أنه لا يتنافى مع التكليف ، لأنه عبارة عـن التصديق بأن جميع ما أوجده الله / تعالي / على غاية من الإتقان ، وبأنـه علم / أزلا / ما تكون عليه المخلوقات فيما لا يزال .

وهذا الإيمان ليس فيه أي تناف فهو لا يخرج من التصديق بعلـم الله وإرادته وقدرته . فالله / تعالى / أوجب على المؤمنين التصديق بالقضـاء والقدر ، لأنه سبحانه خلق السنن والقوانين لهذا الوجود ، وكـل الأشـياء

---

(1) جزء من حديث *الايمان والاسلام . رواه مسلم وغيره . انظر صحيح مسلم بشرح النووي ص157 .*

تجرى وتدور حسب هذه السنن الكونية ، والقوانين الكليـــة وفــق إرادتــه وعلمه تعالي ، بالإضافة إلي ذلك فإن الله / تعالى / متصف بالعلم والإرادة والقدرة ــ كما عرفت ــ فالقضاء فرع عن ثبوت صفة العلـم ، والإرادة لله / تعالى / . والقدر فرع عن ثبوت صفة القدرة له جل شأنه .

وعليه فإن معني وجوب الإيمان بالقضاء والقدر أنـــه يجــب علـــى المكلف أن يؤمن ويصدق بأن الله / تعالى / عالم أولا بجميع أفعال العبــاد ، وكل ما يتعلق بالخلق بما سيتوالى حدوثه في المستقبل ، كما يجب عليــه أن يؤمن بأن الله ــ جلت قدرته ــ إنما أوجدها وقت أوجدهـــا علـــى القــدر المخصوص والوجه المعين الذي سبق العلم به .

وبناء على ذلك فإنه لا علاقة للقضاء والقدر بالجبر مطلقـــا ــ كمـــا يتوهم بعض الناس ــ ، إذ أن الله / تعالى / وهو المتصف بصفات الكمـــال والتأثير لابد وإن يكون عالما بما سيفعله عباده ومخلوقاتـــه مـــن مختلـــف الأعمال ، وبما سيقع ويحصل في ملكه ، ولابد ــ كذلك ــ أن تقـــع هـــذه الأمور مطابقة لعلم الله عنها ، وإلا لكان نقصا في صفاته تعالي ، وانقــلاب علمه جهلا ، وكل ذلك محال على الله / تعالى / .

إذن فالإيمان بالقضاء والقدر جزء من عقيدة المسلم ، وليـــس فيـــه معني الإجبار أو الإكراه أو القسر ، حيث إن علـــم الله / تعـــالى / صفـــة

كاشفة فقط ، وكل شأنها أنها تكشف عن الأمور على ما هـــي عليـــه ، أو على ما ستوجد عليه [1] .

فالله / تبارك وتعالى / قرر الأشياء في القدم ، وعلم أنها ستقع فـــي أوقات معلومة عنده تعالي ، وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقـــع علـــى حسب ما قدرها / جل وعلا / .

(وقد يحسب كثيـــر من الناس أن معني القضـــاء والقدر إجبـــار الله / تعالى / العبد وقهره على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمونـــه ،

---

(1) من المعلوم أن في مسألة القدر آراء كثيرة يمكن إجمالها فيما يلي :

1 ــ جماعة الجبريين الذين يقولون إن الله / تعالي / خلق العباد وخلق لـــهم أفعالهم ، كما خلق لهم أعضاءهم وأقوالهم ، وأول القائلين بالجبر في صـــدر الدولة الأموية جهم بن صفوان وأتباعه .

2 ــ القدريون من المعتزلة الذين يقولون إن الانسان حر فيما يفعل من خير وشر وسيحاسب عليه ، وإن كل الأفعال الصادرة عن الانسان هي بقدره واختياره .

3 ــ أهل السنة والجماعة وعلى رأسهم أبو الحسن الأشـــعرى الـــذي حـــاول أن يتوسط بين القول بالجبر ، والقول بالاختيار - كما يتضح لك من خلال الدراسة في صلب المباحث .

وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله / تعالى / بما يكون من اكتساب العبد وصدور أفعاله عن تقدير منه / تعالى / وخلق لها خيرها وشرها [1]) .

ومن هنا فإن العلم لا علاقة له بالأشياء إلا على وجه الكشف عنها ، وكل شئ لا يوجد ولا يتكيف آلا بخلق الله / جل شأنه / ولا يتم إلا بإرادته، وليس هناك قهر ولا إجبار بالنسبة للإنسان . ويمكن توضيح ذلك من خلال ما يأتي :

تنقسم مخلوقات الله / تعالى / إلي قسمين :

ـ ***الأول :*** مخلوقات لا كسب لأحد فيها ، وهي كل ما يقع في الكون على وجه القسر والحتمية ، كحركة الأفلاك ونمو الأشجار والنباتات والإنسان ووظائفه وحركاته كالنوم واليقظة ، وحركة الأنعاش والموت وغيرها من الأمور التي لا تدخل تحت قدرة الإنسان ، وهذا القسم ليس محل بحث أو نقاش ، إذ أن الإنسان / في مثل هذه الأمور / ليس مكلفا ، ولا يترتب عليه فيها ثواب أو عقاب .

ـ ***الثاني :*** مخلوقات اكتسابية يتصف بها الإنسان بكسبه وسعيه الاختياري ، وذلك مثل : إقبال الإنسان على الدراسة والعلم ، واختياره

---

(1) *انظر : النووى على صحيح مسلم ج1 ص 154 ، وكذلك : فتح المنعم موسى لاشين ج1 ص 33 .*

لنوع معين من اللباس ، وتقيده بنوع من السلوك ونحو ذلك ، فـــهذه كلـــها أفعال اختيارية كسبية ، وهي محل البحث والنقاش بين كثير من العلماء .

ومن المعلوم أن أفعـــال الإنسان الاختيارية من جملـــة مخلوقات الله /تعالى/ ــ كما سبق ــ فهو / سبحانه / هو الذي يخلق فينا الإقبـــال علـــى الدراسة أو الانقطاع عنها ، وهو الذي يخلق فينا التصرفات كلها ، وهـــذا ثابت بالدليل والبرهان العقلي والنقلي .

فالعقل الذي وهبه الله للإنسان يبرهن على أنه لو لم يكن شـــئ مـــن ذلك بخلق الله وقدرته لما اتصف سبحانه بكل صفات الكمال ، ولكان ذلـــك بتأثير مستقل عن غيره ، وهذا محال على الله /تعـــالى/ . والنقلـــي مـــن القرآن الكريم آيات كثيرة ، من ذلك قوله / تعالى / : (وخلق كـــل شـــئ فقدره تقديرا [1]) .

ولكن كثيرا من الناس يتوهمون أن العبـــد مجبـــور علـــى أفعالـــه وتصرفاته ، والوهم ــ كما تعرف ــ ليس من العلم في شئ .

والصحيح أن خلق الله / تعالى / لأفعـــال الإنســـان وتصرفاتـــه لا يستلزم أبدا أن يكون مكرها عليها ، ومجبرا علـــى فعلـــها ، إذ لا تـــلازم بينهما ، فقيام الإنسان بفعل ما يتوقف على أمرين :

---

(1) *سورة الفرقان. جزء من الآية رقم 2 .*

الأمر الأول : وجود هذا الفعل فى الخارج ، ومعنى ذلك وجود مقومات ذلك الفعل المادية والمعنوية .

الأمر الثاني : اكتساب الإنسان لهذا الفعل عن طريق توجهه نحوه . إذن فالإنسان مريد مختار في هذا العمل بوصفه كاسبا ، ومتوجها إليه ، لا بوصفه خالقا وموجدا لمقوماته وعناصره [2] . ومن هنا فإن القصد والعزيمة والكسب من الإنسان ، وخلق الفعل وأسبابه القريبة والبعيدة كل ذلك من الله / تعالى / . والمحاسبة ــ دائما ــ تكون على القصد والكسب لا على خلق الوسائل والأسباب وخلق الفعل نفسه .

فالمقاضاة ــ مثلا ــ إنما تكون على الكسب لا على جوهر الفعل المستقل بذاته ، فالذي يسير بمركوبه في الطريق العام فيصيب به إنسانا فيقتله لا يقاضي على الفعل ، لأنه ليس هو صاحب الفعل بالذات ، بل صاحب الفعل المباشر هو المركوب نفسه أي الركوبة / مثلا / ، ولكنه يقاضي على الكسب ، ويصير مسئولا أمام الشرع والقانون في هذا القتل لأنه قد اكتسبه ، وقس على ذلك بقية الأعمال . إذن فالله / تعالي/ يحاسب عباده على كسبهم باختيارهم .

ومما تجدر الإشارة إليه في موضوع القضاء والقدر أنه لا يجوز الاحتجاج بهما بعد الوقوع وقبل التوبة لدفع المؤاخذة ، أو التخلص من حد

---

(2) *انظر : كبرى اليقينيات الكونية. محمد البوطي ص170 .*

المعصية ، ولا يجوز / كذلك / قبل الوقوع توصلا إلي المعصيـــة ، فقـد عوقب من تعلل بالقدر في عهد عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقـد أتي له بسارق فقال له لم سرقت ؟ فقال : قضـــي الله علـــي ، فـــأمر بـــه فقطعت يده وضرب أسواطا ، فقيل له في ذلك ، فقال : القطـــع للســـرقة ، والجلد للكذب على الله / تعالى / .

وقيل لعبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ إن قومـــا يزنـــون ، ويشربون الخمر ويسرقون ، ويقتلون النفس ، ويقولون كان في علم الله فلم نجد بدا منه ، فغضب ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ ، ثم قـــال : ســـبحان الله العظيم قد كان في علم الله أنهم يفعلـــون ، ولم يحملهم علـــم الله علـــى فعلها !!

وأخيرا فإن موضوع القضاء والقدر ليس من السهل الوصـــول فيـــه إلي نتيجة ترضي جميع الآراء ، لأن المرجع / في سر القضاء والقـــدر / إنما هو إلي حكمة الله / تعالى / وتقديره وعلمه .

وحكمة الله / تعالى / : (تتعلق بالأبد الذي لا ابتداء له ولا انتـــهاء ، ولا تتعلق بهذه الحقيقة أو تلـــك الحقيقة في الزمـــــن الـــذي يحيـــط مـــن المخلوقات [1]) .

---

(1) *عباس محمود العقاد. الفلسفة القرآنية. ص 144 .*

ومن هنا فإن المسلم يستطيع أن يؤمن بكل حكم من أحكـــام القـــرآن الكريم في مسألة القضاء والقدر ، وأن يسلم الأمر إلي الله / تعالى / وحـــده لأنه له الأمر من قبل ومن بعد .

فسر القضاء والقدر هو من الإيمان بالغيب ، ولا يحصـــــره الحـــس والشهادة .

المبحث الخامس عشر

هدم الأسس التي قامت عليها آراء منكري الديـــن

المبحث الخامس عشر

هدم الأسس التي قامت عليها آراء منكري الدين

من المقرر الثابت أن ضرورة الإنسان إلي دين إلهي صحيح أشد من ضرورته إلي العناصر الأولية لحفظ حياته من ماء وغداء وهواء ، وهذه حقيقة لا ينكرها أو يجادل فيها إلا معاند مكابر استجاب لنزعات الهوى والغرض والتعصب ، وابتعد / كثيرا / عن المنهج العلمي القويم للوصول إلي الحق والحقيقة .

فالإيمان بوجود الله / تعالى / إذا كان في العصور البعيدة إيمانا غيبيا فإن الإيمان به / جل شأنه / في هذا العصر عصر التقدم العلمي بكافة فروعه إيمان لا يقبل الشك ، أو على الأقل ينبغي أن يكون كذلك ، حيث إن هذا العصر قد اكتشفت فيه كثير من الأشياء الخارقة ، والمعجزات الباهرة التي تدل من أول وهلة على أن لهذا الكون خالقا عظيما مسيرا ومدبرا له ، (إن هذا العصر أحق أن يسمي عصر الإيمان [1]) .

ولكن منكري الدين ــ وللأسف ــ عكسوا الآية وقلبوها رأسا على عقب ــ إن صح التعبير ــ فبدل الإيمان أصبح هناك إلحاد ، وبدل

---

(1) *عبد الرزاق نوفل. الله والعلم الحديث. ص15 .*

الاعتقاد صار هناك شك ، وقالوا بالخلق والتخلق طبعا ، وأنكروا وجـــود الله / تعالى / .

والغريب في الأمر أن هـــؤلاء الملحديـــن يزعمـــون أن آراءهـــم واعتقاداتهم هذه مبنية على أسس من العلم ، وأن الدين / عندهم / شـــئ لا حقيقة له ، وإنما هو مظهر من مظاهر الغريزة الإنسانية الباحثة عن حقيقـة الكون ، ويقررون أن البشرية عندما اعتقدت في الماضي بأن هنـــاك إلـــها كانت معذورة في هذا بسبب المعلومات والوسائل المحدودة التـــي كـــانت تمتلكها ، أما اليوم فلا داعي لهذا الاعتقاد ، أو حتـــى لإفتراضـــه بعدمـــا توفرت لنا اليوم كافة الوسائل العلمية .

وانطلاقا من هذا فإن المذهب الواقعي حاول أن يبرز / بشكل كبـــير وواضح / أن المثل الأعلى لليقين يتحقق في العلوم التجريبية التـــي بنـــي على أساسها أن كل ما لا يدخل تحت التجربة والملاحظـــة فـــهو شـــئ لا حقيقة له .

وباختصار فإن كل معرفة صحيحة في نظر الماديين هي ما يجـــوز أن تدخل تحت التجارب العلمية ، وما عدا ذلك فهو شئ لا يقر ولا يعترف به الملحدون أو التجريبيون ، وهم يقصدون بذلك الأمور الإلهية لأنـــها لا يمكن وضعها تحت التجربة .

وهكذا سار هؤلاء الملحدون في هذه السبل المنحرفة عـــن الطريـــق المستقيم ، طريق الحق والهدى والنور .

(إن كلمة الإلحاد لا تعنى شيئا أكثر من مخاصمة العقل النير مـــهما كان نوع هذا الإلحاد ومنبعه ، ومهما كانت فلسفته أو دوافعه[1]) .

لذلك فإن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحي الإلهي الذي لـــم يدخلـــه التحريف والتبديل والزيادة والنقص دعوى فارغـــة لا أســـاس لـــها مـــن الصحة ، وذلك لأن كل ما أفاده الإنسان من العلوم والمعارف إنمـــا هـــو بدون شك مأخوذ من الوحي الإلهي ، فالله / تعالى / خالق كل شئ وهـــو الذي علم الإنسان في كل عصر ومكان ، يضاف إلي ذلك أن العلم المـــادي مقصور على نفع الإنسان في جانبه المادي ، أي ما يتعلق بجســـمه ومـــا يتطلبه ، أما الجانب الروحي فإنه / في الغالب / لم يخدمـــه فـــي شـــيء . وغنى عن القول بأن الجانب الروحي في الإنسان هو الأهم .

إن الفلسفة المادية تزعم أن المادة هي أصل الوجـــود ، وأن جميـــع مظاهر الكون تتصاعد عن طريق المتناقضات ، وتصارعها حيث يتغلـــب الأصلح ويذهب الآخر جفاء ، وهكذا صاروا يتلمســـون الآراء الفاســـدة ، والأسس الواهية ، والجدل العقيم الذي لا يسمن ولا يغنى من جوع .

وحتى نكون على بينة من آرائهم وأسسهم تلك نعرضـــها هنـــا ثـــم ننقدها ونبطلها بالأدلة العلمية .

وفيما يلي بيان لأهم الأسس التي اعتمد عليها منكرو الدين :

---

(1) محمد سعيد البوطي : كبرى اليقينيات الكونيه. ص99 .

ـ **الأساس الأول : قانــون الطبيعة** ، ومعنــاه : أن الكـــون كله ـ أرضه وسماءه ـ مرتبط بقوانين ثابتة تتحرك في نطاقها الأجــرام السماوية .

ويقرر أصحاب هذا القانون أن التطور العلمي والاكتشافات الكثــيرة أوضحت للإنسان كثيرا من الأحداث التي لم يشاهدها مــن قبــل ، وذلــك كأسباب شروق الشمس وغروبها ، والزلازل والبراكين وغيرها فإنه كــان لا يعلم عنها شيئا وينسبها ـ غالبا ـ إلي قوة فوق الطبيعة . أمــا اليــوم وبعد أن عرفنا أسبابا كثيرة منها ، فلا داعي لهذا الافتراض ـ على حــد زعمهم ـ .

** **نقد وإبطال هذا القانون :**

إن القانون الذي بني عليه منكرو الدين نفيهم له هو قانون الطبيعــة ، فما المراد بها ؟ إنها المادة وعناصر تكوينــها مــن الــبرودة والحــرارة والرطوبة واليبوسة والمواد المركبة منها ، وهى الذرات المكونة من النوى المشتمل كل نوات منه على بروتون ، ونيترون والكترون .

وهذه الطبيعة / بكل ما تحتويه / حقيقة من حقائق الكون ، وليســت تفسيرا له . فالمادة ـ كما هو معلوم ـ موجود جــامد لا يحــس نقيـض الروح التي هي موجود يشعر ويحس ، فقولهم إن أصل الحياة التــي فــي الكون كله المادة معناه أن الحياة التي تسرى في كل شئ حي ناشــئة مــن

المادة الجامدة التي هي نقيض الحياة [1] ، وهـذا القـول فاسـد وظـاهر البطلان إذ أن النقيضين لا يجتمعان في وقت واحد ومكـان واحـد ، ولا يتولد أحدهما عن الآخر .

فالمادة الجامدة تناقض الحياة ولا يمكن أن تكون الأولى أي المـادة أصلا ومنشأ للثانية أي الحياة . ولا يصـدق العقـل السـوي أن الطبيعـة أوجدت نفسها أولا ، ثم أوجدت غيرها من الموجودات .

إن المادة المركبة من عناصرها ، والمودع فيها خواصها مفتقرة إلي من يوجد عناصرها ، ويودع فيها خواصها ، وكل شئ احتاج إلي غـيره فهو حادث ، كما أن كل مركب حادث ، وكل حادث مفتقر إلـي محـدث أحدثه قطعا ، وهذا ما قرره العلماء واتفق عليه ذوو العقول السليمة .

أما ما يردده الماديون من اكتشاف العلم لكثير الأشياء عـن طريـق قانون الطبيعة فهو / في الحقيقة / إنما هو لظاهر هذا الكون ، وليس لمـا وراءه ، فكل ما وصل إليه العلم إنما هو الأشياء الظاهرة التـي يمكـن أن تدخل تحت الملاحظة والتجربة ، وهى / مع كل ذلـك / تفصيـل لمـا يحدث ، وليس تفسيرا لهذا الأمر الواقع ، فمقصود العلـم / دائمـا / هـو الإجابة عن أي سؤال بصيغة : ما هذا ؟! وليس لديه إجابة عـن السـؤال ولكن لماذا ؟! [2] .

---

(1) *انظر : كبرى اليقينيات الكونية محمد البوطي ص 101 .*

(2) *وحيد الدين خان: الاسلام يتحدى. ص 41 - 42 .*

إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغـــيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عد وهى التي تتكـــون منها جميـــع المواد .

إن العلم قد وضح للبشرية كثيرا من الأشياء التي لم تكـــن معروفـــة من قبل ، وهذه ميزة حسنة من ميزاته ، إلا أنه لم ولن يستطيع أن يفســـر الأسباب الكامنة وراء هذا الكون ، فهو يشرح ويبين ما يحدث ، وليس لـــه أن يجيب لماذا يحدث ؟ لأن هذا ليس ميدانه .

فالمواد التي استطاع العلماء أن يخترعوا منها أشياء كثيرة موجـــودة في الكون من غير شك خلقها الله / تعالى / من لا شئ . إذن هم عرفوا مـا يحدث ولكنهم لم يعرفوا لماذا يحدث ؟! .

يقول أحد علماء الطبيعة عن نشأة العالم :

(هناك أربعـــة احتمالات : إما أن يكون هذا الكون مجـــــرد وهـــم وخيال ، وإما أن يكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم ، وإمـــا أن يكـــون أبديا ليس لنشأته بداية ، وإما أن يكون له خالق .

أما الاحتمال الأول فهو يعنى أن إحساسنا بهذا الكون ، وإدراكنا لمـــا يحث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل مـــن الحقيقـــة ، وهذا احتمال باطل ورأي لا يحتاج إلي مناقشة .

والاحتمال الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم هو كذلك لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ، والنظر فيه لهو وباطل .

أما الاحتمال الثالث الذي يرى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية فإن العلم يناقضه ، حيث إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة / حتما / إلي يوم تصير فيه جميع الأجناس تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ، ويومئذ تتعدم الطاقة وتستحيل الحياة ، وهذا من أقوى الأدلة على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو / إذن / حدث من الأحداث .

وهذا يسلمنا إلي الاحتمال الرابع والأخير ، وهو أنه لابد لأصل هذا الكون من خالق أزلي ليس له بداية ، عليم محيط بكل شئ ، قوى ليس لقدرته حدود [1]) .

– ***الأساس الثاني :*** ما توصل إليه علماء النفس من أن الدين نتاج اللاشعور الإنساني ، وليس انكشافا لواقع خارجي .

---

(1) *الله يتجلى في عصر العلم. لمجموعة من العلماء. تعليق محمد الفندي ص5 – 6 .*

ومن المعلوم أن علماء النفس يرون أن العقل الإنساني مركب مـــن شيئين هما : (الشعور) ، و (اللاشعور) ، فالشعور هو مركز الأفكـــار التي تخطر على البال والذهن في الظروف العادية .

أما اللاشعور فيعتبر مخزنا للأفكار التي مرت بنا و نســـيناها ، ولا تظهر إلا في الأحوال غير العادية ، كالجنون والهستريا ونحو ذلـــك كمـــا يعتبر عالم اللاشعور أكبر بكثير من عالم الشعور ، إذ أنه يمثل نسـبة 1-9 تقريبا .

ويعتقد " فرويد " المتخصص في علم النفس أن اللاشعور قـــد يقبـــل أفكارا في الطفولة ، وتؤدى به إلي أعمال غير عقلية ، وهذا ما يحـــدث ــ من وجه نظره ــ بالنسبة للعقائد الدينية ، ففكرة الجنة والنار ترجـــع إلـــي الأماني التي تنشأ لدى الإنسان إبان طفولته ، ولكن لا تسمح له الظـــروف بتحقيقها فتبقى مكبوتة في عالم اللاشعور إلي أن يفرض حياة أخرى يتحقق له فيها ما كان يتمناه في طفولته ، وقل مثل ذلك فـــي الإنســـان الـــذي لا يستطيع أن يحصل على ما يتمناه فيحلم به ليلا تحقيقا لرغبته .

هذا هو الأساس الذي اعتمد عليه علماء النفس في إنكارهم للدين .

** ***نقد وإبطال هذا الأساس :***

إن هذا الأساس المبنى على الشعور واللاشعور بعيد كل البعد عـــن المنطق العلمي الصحيح ، ذلك لأن هؤلاء الملحدين / في آرائـــهم هـــذه /

قاسوا أمرا على أمر مع أن بينهما اختلافا كبيرا ، وهـــذا لا يجــوز فـــي القياس الصحيح ، إذ أن له أركانا لابد من تحققها ، فإذا فقد ركـــن منـــها صار قياسا باطلا .

وقياسهم قد فقد ركنا مهما ، وهو العلة الجامعة بين المقيس والمقيـس عليه ، أو بين الأصل والفرع .

وبيان ذلك أننا كيف نستطيع أن ننكر الدين بناء على أفكار لا تظـهر إلا في حالات معينة ، مثل الجنون وأضغاث الأحلام ونحوهما .

فلو افترضنا أن إنسانا يسير في شارع ، وأخذ يهذي بكلام غريـــب غير مفهوم نتيجة لأفكار مختزنة في ذهنه فـــهل يمكـــن أن نســتغل هـــذا الحادث في البحث عن كلام الأنبياء والرسل / عليهم الصـــلاة والســـلام / الذي هو وحي منزل من الله / تعالى / فيه أسرار هذا الكون ؟! .

إن هذه الآراء بعيدة عن الحق والمنهجية العلمية الصحيحـــة وفـــى نفس الوقت هي آراء في غير محلها ، بل إن شئت الدقـــة هـــي خرافـــات وأوهام ، إذ كيف يسوى العاقل بين كلام النبوة ، وكلام الذي عنده مس من الجن ؟! .

إن صاحب هذه الآراء يحتاج / أولا / إلـــي تقويـــم أخلاقـــه حتـــى يستطيع أن يفرق بين كلام الأنبياء والمرسلين / عليهم الصلاة والســـلام / ، وبين كلام رجل الشارع ، بالإضافة إلي أن اللاشعور الإنساني فراغ فـــي أصله ، ولا مضمون له ، وذلك أن الإنسان يولد وليست معه أفكار ، وإنمـا

جاء اللاشعور عن طريق الشعور ، أي الأفكار الموجودة لـــدى الإنســان حاضرا .

فاللاشعور ــ كما تقدم ــ عبارة عن مخزن للمعلومات التي علمـــها الإنسان في حياته ولو مرة واحدة ؛ ومن المستحيل أن يختزن حقـــائق لـــم يعلمها من قبل .

وغنى عن البيان أن الدين الذي جـــاء على لسان الأنبياء والمرسلين / عليهم الصلاة والسلام / يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحـــد من الناس في أي زمن ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومـــــات ، فمن أين يأتي بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلي العلـــم بها ؟! .

بالإضافة إلي أن للدين صلة كبيرة بجميع فروع العلم من الطبيعـــة والفلك وعلم الحياة وعلم النفس والتاريخ والحضارة والاجتمـــاع .. الـــخ ، وكل حديث في التاريخ البشرى مصدره الشعور واللاشعور لا يخلو مـــن الأغاليط والأكاذيب ، أما كلام النبوة فهو منزه عن الهوى والزيف والغلـــط والكذب ، وأكبر شاهد على ذلك ما ورد في القرآن الكريم من المعجـــزات الكبرى التي قال بها وتحققت على أرض الواقع ، ولم يستطع أي أحـــد أن

يكذب ماجاء فيه منذ نزوله حتي الآن والي مابعد الآن إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها (1) .

ـ الأساس الثالث : التاريخ .

ركز الماديون / في هذا الأساس / علي التاريخ ، فقالوا : إن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالأنسان ، سواء أكانت في ميدان الطبيعة كالزلازل والأعاصير ... الخ ، أم في الأمور السياسية كالملك في الدنيا يقابله الملك الأكبر في عالم الغيب .

وبعبارة أخرى فإنه قد عرف / من خلال التاريخ /أن الإنسان/ عندما يواجه الزلازل والأعاصير والأمراض ونحوها ، ولم يستطع أن يفلت منها / يلجأ إلي قوي افتراضية يستغيثها لتنقذه من تلك الشدائد ، وهكذا ظهرت الحاجة إلي شئ يجتمع الناس حوله ، فاستغل اسم : (الإله) الذي تفوق قوته قوة الإنسان !!

وبجانب هذا فإن هناك مؤثرات أخري ساعدت علي خلق الدين ، وذلك كالسياسة والمدنية وغيرها .

ويري أصحاب المادية التاريخية الجدلية أن المادة هي كل الوجود، وأن مظاهر الوجود / علي اختلافها / نتيجة تطور متصل للقوي المادية.

---

(1) انظر : الإسلام يتحدي . وحيد الدين خان ص :34 .

كما يرون أن تركيب المجتمع الإنساني / بما فيـــه مـــن القيـــم المختلفـــة والأفكار واللغات / ناشئ عن الوضع الاقتصادي .

وعلى هذا فإن الحقيقة المطلقة ، لا مكان لها في الوجود كله ، وإنمـا يمتد في مكانها وعلى اتساع الوجود كله قانون : (النسبية المتطورة) فـــي كل شئ .

بناء على ما تقدم أنكر الماديون وجود الله / تعالي / لأنـــهم ركـــزوا على عاملي التاريخ الاقتصاد .

** ***نقد وإبطال هذا الأساس :***

إن الرد على منكري الدين في أساسهم الواهي هذا هو أن حديثـــــهم عن كون الإله وجد لأسباب تاريخية هو كلام لا معني لـــه ، وقـــد أثبـــت العلماء المختصون في العلوم الطبيعية أن أصل الكون مرتبط بزمن بدأ من لحظة معينة ، وأنه لابد لهذا الأصل من خالق أزلي ليس لـــه بدايـــــة ولا نهاية .

ويمكن الرد على هذا الأساس الواهي وإبطاله من الواقع : فإذا كانت الحياة ليست إلا ثمرة من ثمار المادة الجامدة ــ كما يدعـــون ــ فلمـــاذا لا يفهمون سر الحيـــاة ؟! ولماذا لا يوجدون الحياة عـــــن طريـــق التفـــاعل الكيميائي ؟! ولماذا لا يقفون على العناصر المادية التـــي تكونـــت بتآلفـــها الحياة ؟! .

وإنهم لم ولن يستطيعوا أن يتوصلوا إلي شئ من ذلك ، ولم يفـــهموا شيئا عن هذا السر الذي يدخل ضمن القضايا الغيبية التي لا سلطان للعلـــم عليها . يقول الله /تعالى/ (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربـــي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا [1]) .

أما استدلالهم بأن الاقتصاد هو المحرك للتاريخ فإن هـــذا القـــول لا يزيد عن تكييف هذه الحياة ، وتوجيه بعض أفعال الإنسان ، وتبقي القـــوي الإنسانية ، ويبقي الوجدان .

وهذا الجدل باطل ــ أيضا ــ في اعتماده على الإلحاد ، فهل هم لـــم يدركوا ما ينتج عنه من الهبوط بالإنسان إلي درك البهيمة ، بل إلي أدنـــي من ذلك ؟!

إذ أن الإنسان ــ عند ذاك ــ يجري مع غرائزه مطلقا مـــن القيـــد الطبيعي الذي نشاهده في البهيمة ، ولا يعرف رادعا سوي الخـــوف مـــن بطش الأفراد والجماعات .

ومن هنا فإن الحاجة إلي الدين وتعاليمه أصيلة في النفس الإنســـانية لا يمكن اجتثاثها .

لكن الملحدين عندما استدلوا بالتاريخ والاجتماع لإبطـــال الديـــن لا يدرسون الدين من وجه صحيح ، فيجمعون على صعيد واحد كل ما أطلـــق

---

(1) سورة الأسراء. الاية 85 .

عليه اسم الدين ولو كان غير إلهى ، ويقررون أن الدين عمل اجتمـــاعي أي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، وليس كشفا لحقائق كبري .

تلك هي الأسس التي اتكأ عليها الملحدون في نفيهم للديـــن ، وتلـك هي جملة من الردود لإبطال آرائهم وأفكارهم البعيدة عن المنهج العلمـــي الدقيق ، وتبقي الحقيقة واضحة ، وهي أن العلم ومناهجه القويمة يدعـــوان إلي الإيمان بأدلة كثيرة واضحة .

لقد أثبت العلم الحديث أن هذا الكون خلق بحكمة وتدبير يدلان علـى وجود حكيم مدبر ، كما برهن العلماء المتخصصون في جميـــع مجـالات العلوم على أن عجائب علاقات الإنسان بالطبيعة ، ووجود الحيـــاة نفســها تتوقف كلها على وجود الخالق ــ جل وعلا ــ ، وعلى وجود قصد مـــن خلق الكون ، ويتمثل هذا القصد في إعداد الإنسان وتكريمه وتكليفه ثم بعثه بعد موته ليثاب أو يعاقب .

إن دراسة العلوم المختلفة ــ بعقل متفتح ــ ستقود الباحث ــ بـــدون شك ــ إلي إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله / تعالى/ .

لقد من الله / تعالى / على كثير من العلماء بكشف كثير من الأمـــور حول الطبيعة ، وصار من الواجب / على كل إنسان ، سواء أكـــان مـــن

المشتغلين بالعلوم ، أم من غير المشتغلين بها / أن يستفيد من هذه الكشوف العلمية في تدعيم إيمانه بالله / تعالى / [1] .

إن الأدلة على وجود الله / تعالى / ــ كما تقدم ــ لا تقع تحت حصر ، ولا يمكن أن توضع في كتب ، فإن آيات وجوده ــ جل شأنه ــ ماثلة في كل ما يحيط بمختلف حواسنا ، فإذا نظرنا إلي الأرض وما عليها من نبات وشجر، وما تحتها من معادن وحجر ، وما يتخللها من مياه ونهر ، وإلى السماء وما فيها من كواكب وأبراج ، ونجوم وأفلاك ، وإذا سمعنا الهواء والرياح والرعد ونظرنا نظرة عابرة أو متعمقة وجدنا آيات وجود الله ــ تعالي ــ عند كل شئ ، وفي كل حين [1] .

يقول الله / تعالي / : (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ وأن عسي أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون [2]) .

ويقول / تعالى / : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون [3]) .

---

(1) *انظر : الله يتجلى في عصر العلم. لمجموعة من العلماء تعليق محمد الفتدى ص 28 .*

(1) *انظر : الله والعلم الحديث. عبد الرزاق نوفل. ص 19 .*

(2) *سورة الأعراف. الاية 185 .*

لقد خاطب القرآن الكريم العقول ، ووجه الحديث إلي أهل المعرفة والعلم في مواضع عديدة تقدم كثير منها في المباحث السابقة ، وكلها تدعو إلي التأمل والتفكير والتدبر .

والقرآن الكريم / في حد ذاته / أكبر معجزات الرسول / صلى الله عليه وسلم / وأخلدها وليس أخلد على الأرض من كتاب يتلى ، وليس أبقي عليها ، ولا أنفع للناس فيها من كتاب فيه دواء لقلوب المرضي والبائسين ، وسكن لنفوس الحيارى والمحرومين ، وأمل ورجاء للبشر أجمعين ، فيه شفاء للناس وهدي ورحمة للعالمين ، وغذاء للروح والعقل لكل من أخلص النية بالفعل ، أعجز العرب ـ وقد نزل بلغتهم ـ بفصاحته وبلاغته وحكمته وتنبؤاته التي تحققت ، ولا يزال يعجز الخلق أجمعين .

ففي هذا العصر ـ بل وفي كل زمان ومكان ـ نرى القرآن الكريم يصف بعض حقائق الوجود المادية ، ويتنبأ بما سيجيء منها في المستقبل بدقة علمية وسلامة لفظية لا مثيل لها في كتاب من الكتب . وهذه بعض الآيات الكريمة في موضوعات من العلوم المختلفة توضح لنا أن هذا الكلام كلام الله / جل وعلا / .

---

(3) سورة يونس. الآية 101 .

يقول الله / تعالي / : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله[1]).

ويثبت علم الإرصاد الجوي أن الأصل ــ في إثارة السحب ونزول المطر منها ــ إرسال الرياح لتتجمع في صعيد واحد ، وتلك حقيقة لا جدال فيها [2] . ويقول الله / تعالي : (فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم[3]) .

إن الإنسان لا يستطيع أن يرفع بصره نحو السماوات العلى إلا ويغضي إجلالا ووقارا لخالقه ، إذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة ، ويراقب سيرها في أفلاكها وتنقلها في أبراجها .

وكل نجم وأي كوكب ، وكل سديم وأي سيار , إنما هو دنيا قائمة بذاتها ، أكبر من الأرض ، وما فيها وما عليها وما حولها [4] .

ويذكر علماء الفلك أن المسافات بين النجوم تبلغ حد الخيال ، وهي جديرة بأن يقسم بها الخالق لعظمها , فإن مجموعات النجوم التي تكون

---

(1) *سورة الروم . جزء من الآية رقم 47 .*

(2) *محمد جمال الدين الفندى. تعليق على كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص 164 .*

(3) *سورة الواقعة. الآيتان 78 – 79 .*

(4) *انظر : الله والعلم والحديث. عبد الرزاق نوفل ص 27 .*

أقرب مجرات السماء منا تبعد عنا بنحو 700 ألف سنة ضوئية ، والسنة الضوئية تعادل عشرة ملايين الملايين من الكيلومترات [2] .

إن هذه وتلك قطرة من محيط من عالم الخلق والإبداع ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط [3]) .

---

(2) انظر : الله يتجلى في عصر العلم. تعليق محمد جمال الدين الفندى ص 164 .

(3) سورة فصلت. الآيتان 52 - 53 .

الخاتمة

الآن ــ بحمد الله وتوفيقه ــ نأتي إلي خاتمة هذه المباحث في علـــم التوحيد – قسم الإلهيات – .

وقد حاولت ــ بقدر المستطاع ــ الإلمام ببعض المسائل في قضيـــة الألوهية التي تجمعها الجملة العظيمة الأولي من : (لا إله إلا الله محمـــد رسول الله) ، وهي جوهـــر عقيدة الإسلام ، لأنه لا نجـــاة لأحد عنـــد الله / تعالى/ إلا بالدخول في الإسلام ، لقوله تعالي : (ومن يبتغ غير الإســلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين[1]) .

فالإسلام هو دين الله / تعالى / الذي أرسل به جميع أنبيائـــه ورســله ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ، لقوله / تعالي / : (شرع لكم من الدين مـــا وصي به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيســـى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه[2]) ، ولقوله / تعالي / : (ما كان إبراهيـم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين [3]) .

---

(1) سورة آل عمران الآية رقم 84 .

(2) سورة الشورى. جزء من الآية رقم 11 .

(3) سورة آل عمران . الآية رقم 66 .

ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن ما جاء به محمد / صلـــى الله عليه وسلم / هو الإسلام الحق الـــذي لا نجـــاة لأحـــد إلا بـــالدخول فيـــه والتصديق به .

ومن ثم فالعقيدة في الإسلام تتركز في الإيمـــان الكـــامل والمعرفـــة التامة بوجود الله / تعالى / ، والإيمان بالأنبياء والمرسلين ، وباليوم الآخـــر وما فيه ، وبالملائكة ، وبالكتـــب السماوية الصحيحـــة ، وبـــالقدر خـــيره وشره .

وقد جعل الله / تعالى / هذه العقيدة عامة للبشر ، وخالدة على الدهـــر لما لها من الأثر البين ، والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات .

فالإيمان بالله / تعالى / من شأنه أن يفجر المشاعر النبيلة ، ويوقـــظ حواس الخير ، ويربي ملكة المراقبة ، ويبعث على طلب معـــالي الأمـــور وأسناها ، وينأى بالإنسان عن محقرات الأعمال وسفاسفها .

فالإيمان ضرورة لا يستغني عنها الإنسان ليستكمل شخصيته ويحقـق إنسانيته .

والإنسانية ــ جميعها ــ في حاجة ماسة للعقيـــدة الصحيحـــة التـــي يهدي إليها الدين الحق والعقل والعلم ، وهي الإيمان بوجود الله / تعـــالى / ووحدانيته ، وأنه لا سلطان حقيقيا في الكون كله غير سلطانه ، ولا قـــوة قاهرة غير قوته ، ولا خالق إلا هو / سبحانه وتعالى / .

وكل ما وراء ذلـــك فهو مخلوق لله / جل شأنه / يمنحـــه حيـــث يشاء ، ويسلبه عندما يشاء ، وأنه الرقيب على عباده كلهم ، وسيبعثهم مـــن بعد الموت ، فيحاسب كلا على ما قدم من عمل .

هذا الإيمان إذا ما استقر في قلب المرء شعر في أعماق كيانه بأنـــه عبد لهذا الإله الواحد العظيم .

والمعنى الإسلامي يتكامل / لدى المســـلم / بـــالعقيدة الصحيحـــة ، وبالعبادة والتشريع ، فلا يكون المسلم كامل الإســـلام إلا باطمئنـــان قلبـــه بالإيمان ، والعمل بما جاء في الإسلام من أوامر ونواه ، وبإتباع شـــرعته في سائر معاملاته مع الناس وعلاقته بهم .

والأساس الأهم هو العقيدة ، فإذا صلحت صلح الســـلوك واســـتقام ، وإذا فسدت فسد واعوج .

وهذه المباحث قد تناولت هذا الأساس بشيء من التفصيل ، من حيث إثبات وجود الله / تعالى / عن طريق منهج القرآن الكريم ، ومسلك علمـــاء التوحيد ، وطريق الفطرة والبداهة ، والأدلة العلمية ، ومن حيث ما يتعلـــق بصفات الله / تعالى / ، وما يجب في حقه / تعالى / ، وما يســـتحيل ومـــا يجوز ، وما يتعلق بكل ذلك .

وكل هذه المناهج والطرق توصل إلي نتيجـــة واحـــدة مهمـــة هـــي الإيمان بالله الواحد الأحد .

وعلماء التوحيد حين يبحثون في العقيدة على أساس من النقل والعقل والعلم / يرمون / من وراء ذلك إلي إثبات عقيدة الإسلام بكل حجة يـــرون أنها مفيـــدة للرد على المنحرفيـــن والمبطليـــن والملحدين ، كما يرمـــــون ــ أيضا ــ إلي وصف الله / تعالى / بصفات الكمال والتـــأثير ، وتنزيهـــه عن صفات النقص ، ومشابهة غيره من المخلوقات ، وكـــل ذلـــك يعتـــبر منهجا من مناهج القرآن الكريم .

وقد ختمت هذه المباحث بعرض آراء الماديين الملحدين في قضيـــة وجود الله / تعالى / ، ثم الرد عليها وإبطالها بالمناهج العلميـــة الصحيحـــة التي سار عليها العلماء المتخصصون في العلوم المختلفة ، الذيـــن قـــرروا بما لا يدع مجالا للشك والإنكار أن لهذا الكون خالقا متصفا بكـــل صفـــات الكمال والتأثير من القدرة الكاملة والعلم الشامل .

كما قرروا أن العلوم / بمختلف أنواعها / تزيد المرء تبصرا بقـــدرة الله / تعالى / ، وكلما اكتشف الإنسان / من خلال معارفه / شيئا جديـــــدا ازداد إيمانـــه بالله ــ جل وعلا ــ . وصدق الله العظيم حيث يقول :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء [1]) .

وبهذا ينتهي هذا القسم من هذه المباحث في علـــم التوحيـــد ، التـــي أرجو أن تكون وافية بالغرض ، محققة للأهداف المرجوة منها .

---

(1) سورة فاطر. جزء من الآية رقم 28 .

والله ندعو أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعلنـــا من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن الذين ينطبق عليهم قوله تعالى : ((شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إلـــه إلا هو العزيز الحكيم [1])) .

تعاليت يا رب ، ما أجلك ، خلقت الخلق ، وأجريت الـــرزق ، بـــك ينمو الزرع ويدر الضرع ، سبحانك اللهم ما أوسع ملـــك ، ومـــا أعظـــم سلطانك ، السماء والأرض لك ، والملائكة الأطهار جندك ، والخلق كلـــهم عبيدك . تباركت وتعاليت ، صنعت فـــأعجزت ، وصـــورت فـــأعجزت ، وصورت فأحسنت ، الجن والإنس خلقك .

لا إله إلا أنت منحتنا بصائر لا تتكرك ، وأبصارا لا تدركك ، يسـبح الرعد بحمـــدك ، ويترنم الطائر بمجدك ، البحار لا تقر مـــن خشـــيتك ، والجبال جامدة من هيبتك ، لقد جرى النسيم بلطفك ، وتقلب كـــل مخلـــوق في رحمتك .

تباركت وتعاليت لا أول قبلك ، ولا آخـــر بعـــدك ، كيـــف تخفـــى والشمس بعض بيناتك ! . آمن بك المؤمن ، ولم يرك ، وجحدك الجـــاحد ووجوده شاهد بوجودك ، سبحانك يا الله ما أعظمك !! .

---

(1) سورة آل عمران. الآية رقم 18 .

رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات إنـــك ســـميع الدعـــاء مجيب الرجاء . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

د. سالم محمد مرشان .

<u>الخمس في 18 ــ 3 ــ 1426 م</u>

المصادر والمراجع

1 ـ الإبانـــة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري . تقـــديم د. فوقية حسين . دار الأنصار. القاهرة 1977 م .

2 ـ أبو الحسن الأشعرى . د. حمودة غرابة . المطبعة الأميريـة القاهرة 1973 م .

3 ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي . الحلبـــي . القـــاهرة 1939 م .

4 ـ الإرشاد إلي قواطـــع الأدلة فـــي أصـــول الاعتقـــاد لإمـــام الحرمين الجويني . الخانجي . القاهرة 1950 م .

5 ـ الاقتصـــاد فـــي الاعتقـــاد لأبي حامـــد الغزالي . تحقيـــق د. عثمان عيش . القاهرة 1973 م .

6 ـ ابـــن رشـــد والرشديـــة . أرنســـت رينـــان . ترجمـــة عادل زعيتـــر . إحياء الكتب العربية . القاهرة 1950 م .

7 ـ التحقيق التام في علم الكلام . محمد الحسيني الظواهـــري . القاهرة 1939 م .

8 ـ التفسير الكبير . فخر الدين الـــرازى . المطبعـــة العـــامرة القاهرة 1324 هـ .

9 ـ تقريب المرام في شـــرح تـــهذيب الكـــلام . عبـــد القـــادر الكردستاني . الأميرية . القاهرة 1319 هـ .

10 ـ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به . القاضي الباقلاني . تحقيق : محمد زاهد الكوثـــري . مطبعـــة الخـــانجي . القاهرة 1963 م .

11 ـ الله. عباس محمود العقاد. دار المعارف. القاهرة 1947 م.

12 ـ الله والعلم والانسان . د. محمد جلال شرف . دار المعارف القاهرة 1971 م .

13 ـ التاج الجامع للأصول في أحـــاديث الرســـول (صلعـــم) . منصور علي ناصف . دار إحياء التراث . بيروت . 1960 م .

14 ـ الدين والوحي والاسلام . مصطفي عبد الرازق . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة 1945 م .

15 ـ الشامل في أصول الدين لإمام الحرمين الجويني . تحقيق د. علي سامي النشار وزميليه ، بدون تاريخ .

16 ـ علم الكلام وبعض مشكلاته . د. أبو الوفاء التفتازاني . دار الثقافة . القاهرة 1979 م .

17 ـ غاية المرام في علم الكلام . سيف الدين الامدي . تحقيق حسن محمود عبد اللطيف . القاهرة 1971 م .

18 ـ فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية . محمد صالح الزركان ، بدون تاريخ .

19 ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال . ابن رشد . القاهرة 1910 م .

20 ـ قضية الألوهية . عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربي القاهرة 1971 م .

21 ـ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة . ابن رشد القاهرة 1910 م .

22 ـ لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة لإمام الحرمين الجويني . تحقيق : د . فوقية حسين محمود القاهرة 1965 م .

23 ـ كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع لأبي الحسن الأشعري . تعليق د . حمودة غرابة . القاهرة 1950 م .

24 ـ الملل والنحل . محمد عبد الكريم الشهرستاني . تحقيق : سيد كيلاني . القاهرة 1960 م .

25 ـ المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي . تحقيق : عبد الحليم محمود . القاهرة 1972 م .

26 ـ المواقف . عضد الدين الايجي . المطبعة العامرة . القاهرة 1292 هـ .

27 ـ نهاية الإقدام في علم الكلام . محمد عبد الكريم الشهرستاني . تصحيح : الفرد جيوم بغداد ، بدون تاريخ .

28 ـ الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . بيروت ، بدون تاريخ .

29 ـ الله ذاتا وموضوعا . عبد الكريم الخطيب . دار الفكـــــر العربي . القاهرة 1971 م .

30 ـ كتاب دلائل التوحيد . محمد جمال الدين القاسمي . جمعية النشر والتأليف . القاهرة . بدون تاريخ .

31 ـ توضيح العقائد . عبد الرحمن الجزيري. القاهرة 1933 م.

32 ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري . أدم مـتز . ترجمة : محمد عبد الهادي أبوريدة . بيروت 1967 م .

33 ـ قواعد العقائد . لأبي حامد الغزالي . تحقيق : سعيد زايد . القاهرة 1960 م .

34 ـ الجانب الإلهي عند ابن سينا . د . سالم محمد مرشـــان . دار قتيبة . بيروت 1992 م .

35 ـ العلم يدعو الى الايمان . كريـــس مورســن . ترجمـــة : محمود الفلكي . تقديم : د. احمد زكي . القاهرة 1971 م .

36 ـ مجموعة الحواشي البهية على شرح العقـــائد النســفية . سعد الدين التفتزاني . القاهرة 1329 هـ .

37 ـ رسالة شمس الحقيقة والهداية /محمد على بدر/ القاهرة 1928 م

38 ـ دراسات في الحديث النبوي . السيد محمد الحكيم . القاهرة 1969 م .

39 ـ المنهل الحديث في شرح الحديث . د. موسى لاشين وزميله . القاهرة 1965 م .

40 ـ المقدمة . عبد الرحمن بن خلدون . تحقيق : على عبد الواحد وافي . دار الشعب . القاهرة ، بدون تاريخ .

41 ـ ابن القيم وموقفه من التفكير الاسلامي . د.عوض الله حجازي مجمع البحوث الإسلامية . القاهرة 1972 م .

42 ـ الاسلام يتحدى . وحيد الدين خان . تقديم : عبد الصبور شاهين . القاهرة 1977م .

43 ـ علم التوحيد . خضر جلال الدين . القاهرة 1318 هـ .

44 ـ العقيدة والأخلاق . د. محمد بيصار . القاهرة 1968 م .

45 ـ الفلسفة القرآنية . عباس العقاد . القاهرة ، بدون تاريخ .

46 ــ الدليل الصادق. عبد العزيز جاب الله. القاهرة 1316 هـ .

47 ــ الفرق بين الفرق . عبد القاهر البغدادي . بيروت ، 1973.

48 ــ البيان في تصحيح الإيمان . إبراهيم عبد الباقي . القاهرة ، بدون تاريخ .

49 ــ تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام . فرج الله زكي الكردستاني . القاهرة 1319 هـ .

50 ــ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه . عباس العقاد . القاهرة 1957 م .

51 ــ إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري للقسطلاني . القاهرة 1288 هـ .

52 ــ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. مصطفي عبد الرازق . القاهرة 1944 م .

53 ــ طبقات الشافعية . ابن تقي الدين السبكي . بيروت بدون تاريخ .

54 ـ تبيين كذب المفترى فيما ينسب للامام أبي الحسن الأشعري . ابن عساكر الدمشقي . دمشق 1399 هـ .

55 ـ مذكرة التوحيد . حسن السيد متولي . القاهرة 1967 م .

56 ـ شرح الخريدة في علم التوحيد . احمد الدردير . تعليق : حسين مكي . القاهرة 1954 م .

57 ـ العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . عبد الحميد بن باديس . الجزائر 1966 م .

58 ـ فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان . الشيخ سلامة القضاعي العزامي . القاهرة 1358 هـ .

59 ـ الله والعلم الحديث . عبد الرزاق نوفل . القاهرة 1971 م .

60 ـ كبري اليقينيات الكونية . د. محمد سعيد رمضان البوطي . دار الفكر . دمشق 1394 هـ .

61 ـ تحفة المريد على جوهرة التوحيد . الشيخ ابراهيم البيجوري . القاهرة 1939 م .

62 ـ شرح الأصول الخمسة . للقاضي عبد الجبار . تحقيق : عبد الكريم عثمان . القاهرة 1965 م .

63 ـ علم الكلام ومدارسه . د. فيصل بدير عون . القاهرة 1977 م .

64 ـ كتاب التوحيد . أبو منصور الماتريدي . تحقيق : د. فتح الله خليف . القاهرة ، بدون تاريخ .

65 ـ التمهيد في أصول الدين للقاضي الباقلاني . نشر الخضيرى و أبي ريدة . القاهرة 1367 هـ .

66 ـ شرح المقاصد . سعد الدين التفتزاني . دار الطباعة العامرة . استنبول 1277 هـ .

67 ـ مشارق أنوار العقول . أحمد العلوي . القاهرة 1314 هـ.

68 ـ القول السديد في علم التوحيد . محمود أبو دقيقة . القاهرة 1936 م .

69 ـ محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين والعلماء والحكماء والمتكلمين . فخر الدين الرازي . القاهرة 1323 هـ .

70 ـ صحيح مسلم بشرح النووي . القاهرة 1349 هـ .

71 ـ شرح أسماء الله الحسنى . فخر الدين الرازي . مراجعة وتعليق : طه عبد الرؤوف سعد . القاهرة 1976 م .

72 ـ قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام . د. توفيق الطويل . الإسكندرية 1947 م .

73 ـ عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الاسلام . يحي هاشم فرغل . القاهرة 1972 م .

74 ـ قصص الأنبياء . ابن كثير . تحقيق وتقديم : عبد القادر أحمد عطا . بيروت 1982 م .

75 ـ رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام . لأبي حسن الأشعرى . حيدر أباد 1323 هـ .

76 ـ رسالة التوحيد . محمد عبده . القاهرة 1372 هـ .

77 ـ العقيدة والشريعة في الإسلام . جولتسيهر ترجمة : د. محمد يوسف موسى وآخرون . القاهرة 1946 م .

78 ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبي حامد الغزالـــي . القاهرة 1901 م

79 ـ مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعرى . القاهرة ، بدون تاريخ .

80 ـ تفسير التحرير والتنوير. الشيخ محمد الطاهر بن عاشور . تونس ، بدون تاريخ .

81 ـ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر . عبد الوهـــاب الشعراني . القاهرة 1959 م .

82 ـ استحالة المعية بالذات وما يضاهيها من متشابه الصفات . محمد الخضر . القاهرة ، بدون تاريخ .

فهرس الموضوعات

الموضوع :	رقم الصفحة
* الافتتاحية .	7 ــ 13
** المبحث الأول : مبادئ علم التوحيد	15 ــ 27
** المبحث الثاني : نشأة علم التوحيد	29 ــ 40
** المبحث الثالث : علم التوحيد بين المؤيدين والمعارضين .	41 ــ 54
** المبحث الرابع : أقسام الحكم العقلي	55 ــ 62
** المبحث الخامس : المعرفة	63 ــ 70
** المبحث السادس : العقيدة الدينية	71 ــ 73
* العقيدة الإسلامية	74 ــ 77
* العقيدة والشريعة في الإسلام	77 ــ 81
* الفرق بين العقيدة والشريعة	82 ــ 83

الموضوع :	رقم الصفحة
** المبحث السابع : الإيمان والإسلام	85
* المعني اللغوي للإيمان	87 ـ 88
* حقيقة الإيمان الاصطلاحية	89 ـ 91
* أدلة أصحاب الرأي الأول بأن الإيمان هو التصديق القلبي .	91 ـ 95
* أدلة أصحاب الرأي الثاني بأن الإيمان هو التصديق مع الإقرار .	95 ـ 96
* الترجيح .	96 ـ 106
* أدلة أصحاب الرأي الثالث بأن الإيمان هو التصديق والإقرار والعمل الترجيح .	107 ـ 115
* زيادة الإيمان ونقصه ورأي العلماء في هذه المسألة .	117 ـ 121
* الإسلام معناه لغة	121 ـ 124
* المعني الشرعي للإسلام وعلاقته بالإيمان	

الموضوع

** المبحث

** المبحث التاسع :

* حرية الإنسان في قضية العقيدة

** المبحث العاشر : وجود الله تعالي 145 — 149

* مسلك القرآن الكريم على وجود الله تعالي 150 — 164

* مسلك الفلاسفة الإسلاميين 165 — 167

* مسلك المتكلمين 168 — 174

* مسلك الفطرة والبداهة 175 — 184

** المبحث الحادي عشر : صفات الله تعالي 185 — 188

* الصفة النفسية 188

* الصفات السلبية 189 — 198

* صفات المعاني 200 — 221

رقم الصفحة

223 – 221

كل سفة 231 – 225

* حقيقة الإيمان الاصطلاحية

** المبحث الثالث عشر : المستحيل في حق الله تعالي 233 – 237

* النصوص الموهمة للتشبيه 237 – 252

** المبحث الرابع عشر : الجائز في حق الله تعالى 253 – 258

* أفعال العباد 259 – 264

* القضاء والقدر 264 – 273

** المبحث الخامس عشر : هدم الأسس التي قامت عليها آراء منكري الدين . 275 – 294

** الخاتمة 295 – 300

** المصادر والمراجع 301 – 311

** فهرس الموضوعات 313 – 316

المعرفة حق طبيعي لكل إنسان

إن الجامعة المفتوحة ، وهي تنطلق من مبدأ ديمقراطية التعليم واشتراكية الثقافة وضرورة القضاء على احتكار العلم والمعرفة ، والحد من القيود التي تعيق الرغبة في مواصلة التحصيل التعلمي وتنمية المهارات والقدرات العلمية والعملية .

إذ تضع هذا الكتاب بين يدي القارئ ، لتأمل أن يحقق هدف التعليم عن بعد ويصبح كتاب التعليم المفتوح ، في المستقبل القريب ، هو المرجع ، والمرشد ، والمكتبة التي تزور كل بيت .

ولا يخفى على أحد أن تحقيق الأهداف سالفة الذكر ليست أمراً سهلاً ولكنها ممكنة التحقيق ، إذ يجب أن يتميز الكتاب بوضوح الحقائق وسهولة فهمها على الرغم من عمق الفكرة ، وبأن يكون سلس الأسلوب وشموليا في عرضه للمادة وفي تناول جوانبها المختلفة بحيث يصبح هو الأستاذ والمكتبة في آن واحد .

وحتى تحقق هذه الغاية لنرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما يعينه على مواصلة مسيرته التعليمية وتحقيق أهدافه وطموحاته .

والله نسأل أن يوفق الجميع

الجامعة المفتوحة